السيرة النبوية

في ضوء الكتاب والسنة



تأليف

أ.د / عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي

أستاذ الحديث بكلية أصول الدين

جامعة الأزهر

السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ

فى

ضَوْءِ الْكِتَابِ والسُّنَّةِ

الجزء الثاني

بقلم الدكتور
عبد المُهْدى بن عبد القادر بن عبد الهادى
أستاذ الحديث بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر

١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، أرسل رسوله محمداً بالهدى . لينقذ البشرية من الهلاك والردى . وجعله أسوة لمن أراد الائتساء ، وقدوة لمن أراد الاقتداء ، يدلهم على أسلم عقيدة ، ويأخذ بيدهم إلى مكارم الأخلاق ، فبه وجُدت البشرية الحقة ، والانسانية الكاملة واقعاً ملموساً . وعرف التاريخ أمة تنشر العدل وتُشيع الفضيلة حيثما كانت . إن حكمت عدلت ، وإن قالت صدقت ، وإن حاربت احترمت النفس البشرية ، فلم تقتل إلا بقدر الضرورة !!

والحمد لله أن أنعم علينا بنعمة الإسلام ، وجعلنا من أمة هذا النبى القدوة ، الذى أحب الله عن كل ما سواه ، وأفنى كل وقته فى سبيل الله ، لم تشغله دنيا ، وأرسى من قواعد الفضيلة ما به نسعد فى الدنيا ، ونسعد فى الآخرة . فهو جدير بالحب لما جمع من صفات الكمال ، وجدير بالحب لما ساق الله على يديه من الخيرات . صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . وبعد ،

فهذه دروس فى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم أعددتها لإلقائها على الطلاب ، وسرت فيها على النهج الذى سلكته فى الجزء الأول والثانى ، من جمع واستنباط السيرة من القرآن الكريم والسنة المطهرة ، مراعيا فيما أجمعه من القرآن الكريم والسنة النبوية الأصالة فى الموضوع بحيث لا أحمل النص أكثر مما يتحمل ، وما أجمعه من السنة أُبَيِّنُ مصدره من الكتب المعتمده فى السنة ، مبتعداً عما لم يثبت ، ففيما ثبت - والحمد لله - كفاية ،

وأسأل الله سبحانه أن يحفظنى من الزلل ، وأن يرزقنى - من محض فضله - تمام التوفيق فى العمل « وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ » .

وكتبه

عبد المهدى

الهجرة النبوية

تقديم

- تعريفها :-

أصل الهجرة هجر الوطن ، وأكثر ما تطلق على من رحل من البادية إلى القرية. واستعملها الشرع فيمن ترك دار الشرك ولحق بدار الإسلام ، وفيمن ترك المعاصي حياء من الله . يشهد للأول قول الله تعالى « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . . . . »(١).

ويشهد للثانى قوله صلى الله عليه وسلم « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده . والمهاجر من هجر ما نهاه الله عنه »(٢).

والهجرة إذا أطلقت وعرفت تنصرف إلى الهجرة من مكة الى المدينة معه صلى الله عليه وسلم ، وهذا باعتبار الأعم الأغلب ، وإلا فهناك مهاجرون من غير مكة إلى المدينة كما سأوضحه تحت هذا العنوان .

- من هو المهاجر ؟ :-

قال ابن الأثير فى بيان معنى المهاجر : والمراد به فى الشريعة : من فارق أهله ووطنه وجاء إلى بلد الإسلام وقصد النبى صلى الله عليه وسلم رغبة فيه وإيثارا(٣).

وهذا الكلام من ابن الأثير فيه من الدقة الكثير ، إذ أنه أطلق ولم يقيد ، فليس المهاجر من ترك مكة ، وإنما كل من ترك أهله ووطنه ، من أى مكان كان وقصد النبى صلى الله عليه وسلم فى أى مكان كان .

---

(١) الأنفال ٧٢.

(٢) أخرجه الشيخان وغيرهما [راجع جامع الأصول ١ / ٢٤٠] عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٣) جامع الأصول ١ / ٢٤١ .

مهاجر. ومن ثم لا يستغرب أن من الأنصار مهاجرين ، فالأنصار الذين جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة مهاجرون .

يؤكد ذلك حديث ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر من المهاجرين ، لأنهم هجروا دار المشركين ، وكان من الأنصار مهاجرون لأن المدينة كانت دار شرك ، فجاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة [1] .

---

(١) أخرجه النسائى [راجع جامع الأصول ٩ / ٦٠٥ رقم ٩٢١١]

أسباب الهجرة

الناظر فى ظروف الدعوة الإسلامية فى أول عهدها يجد أن الظروف المحيطة بها كانت تقتضى الهجرة من مكة ، وذلك للأسباب الآتية :-

أولاً : اضطهاد المؤمنين :

فلقد أسرفت قريش فى اضطهاد المؤمنين وإيذائهم ، وتفننت فى ذلك ونوعت ، سامتهم سوء العذاب ، سلقوهم فى الماء المغلى و ألبسوهم الحديد وأوقفوهم فى شمس مكة شديدة الحرارة ، ووضعوهم بين الأحجار فى لظى الشمس لقد تفننوا وبكل قسوة نفذوا ، حتى هجم كبيرهم على مسلمة ضعيفة فقتلها ،

ولا أحد يقول: كُفُّوا !!

ولا أحد يقول : ارحموا !!

إنه الكفر الذى لا يعرف الرحمة ، إنها قسوة أهل الكفر فى كل زمان ومكان ، فكما قتلوا المؤمنين فى الأخدود ، يقتلون المؤمنين فى صدر الدعوة ، ويضطهدون المؤمنين فى زماننا .

إ نه الكفر الذى يبغض الإيمان بغضاً شديداً ، ويكره القيم كرها عنيداً .

إنه الكفر الذى نعاه الله على البشرية فى قوله سبحانه « قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ »(١) .

إنه الكفر المصر على بقاء نفسه ورد المؤمنين عن إيمانهم « وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا »(٢) .

يصور ذلك ما روى عن خباب بن الأرت قال : كنت رجلا قينا ، وكان لى على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه فقال : لا والله ، لا أقضيك حتى تكفر

---

(١) سورة عبس آية ١٧

(٢) سورة البقرة آية ٢١٧

بمحمد ﷺ فقلت : لا والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث . قال : فإنى إذا مت ثم بعثت ، جئتنى ولى ثَمّ مال وولد فأعطيك . فأنزل الله « أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاوولداً » الى قوله فرداً »[١].

وما روى عن مجاهد : أول شهيد كان فى أول الإسلام استشهد أم عمار سمية ، طعنها أبو جهل بحربة فى قبلها[٢].

وما روى عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بعمار وأهله وهم يعذبون فقال : « أبشروا آل عمار وآل ياسر ، فإن موعدكم الجنة »[٣].

وعن خباب بن الأرت قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة وهو فى ظل الكعبة ، وقد لقينا من المشركين شدة فقلت : يا رسول الله ألا تدعو الله لنا ؟ فقعد وهو محمر وجهه فقال:لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويوضع الميشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله » زاد فى رواية « والذئب على غنمه »[٤].

---

(١) ذكره فى الدر ٤ / ٢٨٣ وعزاه لأحمد والبخارى ومسلم وسعيد بن منصور وعبد بن حميد والترمذى وغيرهم . وهو فى صحيح البخارى فى التفسير راجع الفتح ٤٢٩/٨ - ٤٣١ من رقم ٤٧٣٢ إلى ٤٧٣٥ . وراجع ٣١٧/٤ رقم ٢٠٩١.

(٢) أخرجه أحمد وهو مرسل .

(٣) أخرجه الحاكم ٣٨٨/٣ وصححه وأقره الذهبى، وذكره فى المجمع ٢٩٣/٩ وعزاه للطبرانى وقال : رجاله رجال الصحيح غير إبراهيم بن عبد العزيز المقوم .

(٤) أخرجه البخارى ٧ / ١٦٤ .« والميشار » هو « المنشار » و « صنعاء » مدينة صغيرة بالشام ، غير المدينة المشهورة باليمن .

وعن عبد الله قال : إن أول من أظهر إسلامه سبعة : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، وعمار ، وأمه سمية ، وبلال ، وصهيب ، والمقداد . فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعه الله تعالى بعمه أبى طالب ، وأما أبو بكر - رضى الله عنه - فمنعه الله تعالى بقومه ، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدراع الحديد وأوقفوهم فى الشمس ، فما من أحد إلا قد آتاهم كل ما أرادوا ، غير بلال ، فإنه هانت عليه نفسه فى الله عز وجل ، وهان على قومه ، فأعطوه الولدان ، فجعلوا يطوفون به فى شعاب مكة وجعل يقول : أحد أحد[1] .

لقد بلغ اضطهاد المؤمنين بهم مبلغاً جعلهم يتركون بلدهم وأهلهم ويهاجرون إلى الحبشة حيث لا أحد يأويهم ، ولا نصير ينصرهم ، وكل ما يتمنون أن يحصلوا على حرية العقيدة والدين ، فقد أصبحت مكة تأبى الإسلام وتضطهد أهله .

ثانياً : الفتنة فى الدين :

وليت الأمر اقتصر على التعذيب البدنى والمالى ، بل ليته اقتصر على ما سوى الدين ، فلو كان الأمر كذلك لكان فيه شىء من الهوادة ،إلاأنه شمل كل شىء بما في ذلك الدين ، فأصبح المسلم يتعرض للفتنة فى دينه ، بمعنى أن يعذب ليرتدّ عن الإسلام !!

ولقد بيّن القرآن الكريم أن المسلمين فعلاً قد تعرضوا للفتنة فى دينهم ، فقال سبحانه « ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ »[2] .

(١) أخرجه الحاكم ٣/٢٨٤ وقال صحيح الاسناد ، ولم يخرجاه ، وأقره الذهبى . وفى النسخة المطبوعة سقط استدركته من الحلية ١/١٤٩ .

(٢) سورة النحل آيه ١١٠ .

روى عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية فيمن كان يفتن من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم . ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا[1].

وروى عن محمد بن عمار قال : أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبى صلى الله عليه وسلم ، وذكر آلهتهم بخير ثم تركوه ، فلما أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : ما وراءك شىء؟ قال : شر، ما تُركتُ حتى نلتُ منك ، وذكرتُ آلهتهم بخير . قال : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئن بالإيمان قال : إن عادوا فعد فنزلت « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان »[2].

وعن عطاء بن أبى رباح قال زرت عائشة مع عبيد بن عمير الليثى فسألناها عن الهجرة فقالت : لا هجرة اليوم ، كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه إلى الله تعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم مخافة أن يُفتن عليه ، فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام ، واليوم يعبد ربه حيث شاء ، ولكن جهاد ونية »[3].

لقد كان إيمان المؤمنين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذنبا يبرر إخراجهم من أموالهم ، ومن كل حرمة لهم فى رأى كفار قريش !!

ومن ثم يشنع القرآن عليهم هذه الفعلة فى قوله سبحانه « إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ » الآيات[4] .

(١) ذكره فى الدر ٤/١٣٣ وعزاه لابن مردويه والبيهقى فى سننه .

(٢) ذكره فى الدر ٤/١٣٢ وعزاه لعبد الرزاق وابن سعد وابن جرير، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، والحاكم وصححه والبيهقى . قلت الحاكم ٢/٣٥٧ وصححه وأقره الذهبى ، وابن سعد ٣/١٧٨ ، والحلية ١/١٤٠ والطبرى ١٤ / ١٨٢ .

(٣) أخرجه البخارى . فتح ٧/٢٢٦ رقم ٣٩٠٠ » .

(٤) سورة الحج ٣٨ - ٤٠ .

فبين القرآن الكريم أن المسلمين أُخرجوا من ديارهم بغير حق ، وتذرع المشركون فى إخراجهم بأنهم مؤمنون يقولون ربنا الله .

ونفس هذا المعنى تجده فى مطلع سورة الممتحنة فى قوله سبحانه « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم . . . » .

لقد عذبوهم عذاباً لا يطاق ، وتفننوا فى ذلك وضاعت إنسانيتهم !!

فعن عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - قال " لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهاجر إلي المدينة قال لأصحابه : تفرقوا عنى ، فمن كانت به قوة فليتأخر إلى أخر الليل ، ومن لم تكن به قوة فليذهب فى أول الليل ، فإذا سمعتم بى قداستقرت بى الأرض فالحقوا بى . فأصبح بلال المؤذن ، وخباب ، وعمار ، وجارية من قريش كانت أسلمت ، فأصبحوا بمكة ، فأخذهم المشركون وأبوجهل ، فعرضوا على بلال أن يكفر فأبى ، فجعلوا يضعون درعاً من حديد في الشمس ثم يلبسونها إياه ، فإذا ألبسوها إياه قال : أحدٌ ، أحدٌ . وأما خباب فجعلوا يجرونه فى الشوك .

وأما عمار فقال لهم كلمة أعجبتهم تقية (١) . واما الجارية فوتد لها أبو جهل أربعة أوتاد ، ثم مدها فأدخل الحربة فى قبلها ، حتى قتلها .

ثم خَلّوا عن بلال ، وخباب ، وعمار فلحقوا برسول الله صلي الله عليه وسلم فأخبروه بالذى كان من أمرهم ، واشتد على عمار الذى كان تكلم به ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف كان قلبك حين قلت الذى قلت ، أكان منشرحاً بالذى قلت أم لا ؟ قال : لا . قال : وأنزل الله ؛ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان (٢) " .

---

(١) أى ذكر آلهتهم بخير ، قال ذلك يتقى شرهم .

(٢) أخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه كذا في الدر ٤/١٣٢ والآية رقم ١٠٦ من سورة النحل .

وعن عمر بن الحكم قال : كان عمار بن ياسر يُعَذَّب حتى لايدرى مايقول ، وكان صهيب يُعَذَّب حتى لا يدري مايقول ، وكان أبو فكيهة يُعَذَّب حتى لايدرى مايقول ، وبلال وعامر بن فهيرة وقوم من المسلمين ، وفيهم نزلت هذه الآية « ثُمَّ إنَّ رَبَّكَ للَّذينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ »(١).

وعن الشعبى قال : دخل خباب بن الأرت على عمر بن الخطاب فأجلسه على مُتَّكئه وقال : ماعلى الأرض أحد أحق بهذا المجلس من هذا إلا رجلٌ واحد . فقال له خباب : من هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : بلال . فقال له خباب : يا أمير المؤمنين ماهو بأحق منى ، إن بلالا كان له فى المشركين من يمنعه الله به ، ولم يكن لى أحد يمنعنى ،فلقد رأيتنى يوماً أخذونى وأوقدوا لى نارا ، ثم سلقونى فيها (٢) ، ثم وضع رجل رجله علي صدرى فما اتقيت الأرض ، أو قال : برد الأرض إلا بظهرى ، قال : ثم كشف عن ظهره فإذا هو قد برص (٣) .

---

(١) أخرجه ابن سعد ٢٤٨/٣ والآية ذكرت مقدمتها فقط وهى من سورة النحل رقم ١١٠ .

(٢)أى وضعوا ماء فى إناء على النار حتى غلا الماء ثم وضعوا خباباً فى الماء المغلى .

(٣) أخرجه بن سعد ١٦٥/٣

ثالثاً : النَّيْل من رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ولم يقف طغيان الشرك عند حد ، وإنما زاد واشتد ، حتى وصل إلى أن آذى المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إيذاء شديداً ، وصل للحرص على قتله !! يصور ذلك النصوص التالية :

* فعن أبى هريرة قال : قال أبو جهل : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟ قال : فقيل : نعم . فقال : واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته ، أو لأعفرن وجهه فى التراب . قال : فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى ، زعم ليطأ على رقبته . قال : فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه . قال : فقيل له : مالك ؟ فقال : إن بينى وبينه لخندقاً من نار وهَوْلاً وأجنحة [١] .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً [٢] »

وعن ابن عباس قال : قال أبو جهل : يامعشر قريش ، إن محمداً قد أتى ماترون ، من عيب ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وسب آلهتنا ، وإنى أعاهد الله [٣] لأجلسن له غداً بحجر ، فإذا جلس في صلاته فضخت به رأسه ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف مابدا لهم ، فلما أصبح أخذ حجراً ثم جلس ، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى ، وقد غدت قريش فجلسوا فى أنديتهم ، ينظرون ، فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع مُنْبَهِتاً ، منتقعاً لونه ، مرعوباً ، قد يبست يداه

---

(١) أجنحة الملائكة التي نزلت لحماية رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) أخرجه مسلم فى صفات المنافقين ٢١٥٤/٤ وأخرجه أحمد ٢/ ٣٧٠

(٣) كانوا يعرفون الله ، لكن كانوا يعبدون الأوثان .

على حجره ، حتى قذف الحجر من يده ، وقامت اليه رجال من قريش فقالوا:مالك؟ قال : لما قمت به إليه عرض لى دونه فحل من الإبل ، والله مارأيت مثل هامته ولا قَصَرَته [1] ولا أنيابه لفحل قط ، فهمَّ أن يأكلنى .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم - أى لما أُخبر بذلك - ذاك جبريل ، لو دنا منى لأخذه [2] " .

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت : لما نزلت « تبت يدا أبى لهب» أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ، ولها ولولة ، وفي يدها فهر [3] وهي تقول : مذمما [4] أبينا . ودينه قلينا [5] . وأمره عصينا ،والنبي صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد ومعه أبو بكر ، فلما رأها أبو بكر قال : يارسول الله : قد أقبلت وأنا أخاف أن تراك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنها لن تراني، وقرأ قرآناً فاعتصم به كما قال ، وقرأ « وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا » فوقفت على أبى بكر ، ولم تر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا أبا بكر ، إني أخبرت أن صاحبك هجانى . فقال : لا ورب هذا البيت ماهجاك . فولت وهي تقول : قد علمت قريش أنى بنت سيدها [6] .

---

(١) القَصَرة : بفتحات أصل العنق إذا غلظت .

(٢) أخرجه ابن إسحاق والبيهقي وأبو نعيم كذا فى الخصائص ٣١٥/١ وهو عند البيهقى فى دلائل النبوه جماع المبعث باب « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ٢/ ١٩٠.

(٣) حجر يملأ اليد .

(٤) تعنى « محمدا » وقد روى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ألا تعجبوا كيف يصرف الله عز وجل عنى شتم قريش ولعنهم ، يشتمون مذمما ، ويلعنون مذمما ، وأنا محمد صلى الله عليه وسلم أخرجه الحميدى فى مسنده رقم ١١٣٦ وهو عند البخاري وغيره .

(٥) من القلى وهو البغض .

(٦) أخرجه الحميدى فى مسنده ١٥٣/١ رقم ٣٢٣ والحاكم ٣٦١/٢ وصححه ووافقه الذهبى والبيهقى فى الدلائل ١٩٥/٢ .

وفى رواية أخـرى[١] أنها قالت : ياابن أبى قحافة ماشأن صاحبك ينشد فىّ الشعر ؟ فقال : والله ماصاحبى بشاعر ومايدرى ما الشعر . فقالت : أليس قد قال « في جيدها حبل من مسد » فما يدريه ما فى جيدى ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : قل لها ترين عندى أحداً ، فإنها لن ترانى . قال : جُعل بينى وبينها حجاب . فسألها أبو بكر ، فقالت أتهزأ بى يا ابن أبى قحافة ! والله ما أرى عندك أحداً .

وعن عبد الله رضي الله عنه قال : بينما النبى صلى الله عليه وسلم ساجد وحوله ناس من قريش جاء عقبة بن أبى معيط بسلى جزور فقذفه علي ظهر النبى صلى الله عليه وسلم فلم يرفع رأسه ، فجاءت فاطمة عليها السلام فأخذته من ظهره ودعت على من صنع ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : اللهم عليك الملأ من قريش : أبا جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف - أو أبى بن خلف ، شعبة الشاك - فرأيتهم قتلوا يوم بدر ، فألقوا فى بئر ، غير أمية بن خلف أو أبى تقطعت أوصاله فلم يلق فى البئر[٢].

وعن أسماء بنت أبى بكر أنهم قالوا لها ما أشد مارأيت من المشركين بلغوا من رسول الله صلي الله عليه وسلم ، فقالت : كان المشركون قعدوا في المسجد يتذاكرون رسول الله صلي الله عليه وسلم وما يقول فى آلهتهم فبينما هم كذلك إذ دخل رسول الله صلي الله عليه وسلم فقاموا إليه وكانوا إذا سألوا عن شيء صدقهم فقالوا : ألست تقول كذا وكذا ؟ فقال : بلى فتشبثوا به بأجمعهم فأتى الصريخ إلى إبى بكر فقيل له : أدرك صاحبك ، فخرج من عندنا وإن له غدائر فدخل المسجد وهو يقول : ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله ؟ وقد جاءكم

(١) عند البيهقى فى التخريج السابق .

(٢) أخرجه البخارى - راجع الفتح ١٦٥/٧ رقم ٣٨٥٤.

بالبينات من ربكم ، قال : فلهوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبلوا على أبي بكر فرجع إلينا أبو بكر فجعل لا يمس شيئاً من غدائره إلا جاء معه وهو يقول: تباركت يا ذا الجلال والإكرام[1].

وعن عروة بن الزبير قال سألت ابن عمرو بن العاص : أخبرنى بأشد شيء صنعه المشركون بالنبى صلى الله عليه وسلم . قال : بينما النبى صلى الله عليه وسلم يصلى فى حجر الكعبة . إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبى صلى الله عليه وسلم وقال (أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله)[2].

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم : لقد أخفت فى الله ما لم يُخَف أحد ، وأوذيت فى الله ما لم يؤذ أحدِ.. الحديث[3].

وعن عروة بن الزبير أن عائشة رضى الله عنها حدثته أنها قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ قال : لقد لقيت من قومك مالقيت . . . الحديث[4].

---

(١) أخرجه الحميدى فى مسنده ١/١٥٥ رقم ٣٢٤ وراجع مجمع الزوائد ١٦/٦.

(٢) أخرجه البخارى . راجع الفتح ١٦٥/٧ رقم ٣٨٥٦.

(٣) أخرجه ابن حبان فى التاريخ ٥١٥/١٤ وأخرجه الترمذى وأحمد راجع جامع الأصول ٦٨٧/٤ رقم ٢٧٩٩ ، وفتح البارى ١٦٦/٧ الشرح .

(٤) أخرجه البخارى راجع الفتح ٣١٢/٦ رقم ٣٢٣١.

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن الملأ من قريش اجتمعوا فى الحجر فتعاقدوا باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ونائلة وإساف لو قد رأينا محمداً لقد قمنا إليه قيام رجل واحد فلم نفارقه حتي نقتله ، فأقبلت ابنته فاطمة رضي الله عنها تبكي حتي دخلت على رسول الله صلي الله عليه وسلم فقالت : هؤلاء الملأ من قريش قد تعاقدوا عليك لو قد رأوك لقد قاموا إليك فقتلوك فليس منهم رجل إلا قد عرف نصيبه من دمك ، فقال : يابنية أريني وضوءاً فتوضأ ثم دخل عليهم المسجد فلما رأوه قالوا هاهو ذا ، وخفضوا أبصارهم وسقطت أذقانهم فى صدورهم وعقروا في مجالسهم فلم يرفعوا إليه بصراً ولم يقم إليه رجل ، فأقبل رسول الله صلي الله عليه وسلم حتي قام علي رؤوسهم فأخذ قبضة من التراب فقال : شاهت الوجوه ثم حصبهم بها فما أصاب رجلاً منهم من ذلك الحصي حصاة إلا قتل يوم بدر كافرا[1].

عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : جاء جبريل إلى النبى صلى الله عليه وسلم ذات يوم وهو جالس حزيناً قد خضب بالدماء ،ضربه بعض أهل مكة ، قال فقال له : مالك ؟ قال فقال له فعل بى هؤلاء وفعلوا ، قال فقال له جبريل : أتحب أن أريك آية ؟ قال : نعم . قال : فنظر إلى شجرة من وراء الوادى فقال : ادع بتلك الشجرة ، فدعاها فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه ، فقال : مرها فلترجع فأمرها فرجعت إلى مكانها فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم : حسبى »[2].

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم من الغد يوم النحر - وهو بمنى - نحن نازلون غداً بخيف بني كنانة حيث تقاسموا علي

(١) أخرجه أحمد بإسناد رجاله رجال الصحيح، راجع الفتح الربانى ٢٢٣/٢٠. وطبعة الرسالة ٤٨٦/٤ رقم ٢٧٦٢ و٥ /٤٤٢ رقم ٣٤٨٥

(٢) أخرجه أحمد الفتح الربانى ٢٠/ ٢٢٠ ، ٢٢١.

الكفر ، يعني بذلك المحصب ، وذلك أن قريشاً وكنانة تحالفت علي بنى هاشم وبني عبد المطلب - أو بني المطلب - أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتي يُسْلموا إليهم النبى صلى الله عليه وسلم(١).

وماذا بعد قول الله سبحانه مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ »(٢).

عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ » قال : تشاورت قريش ليلة بمكة : فقال بعضهم : إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق ، يريدون النبى صلى الله عليه وسلم . وقال بعضهم : بل اقتلوه . وقال بعضهم : بل أخرجوه .فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك ، فبات عليٌّ على فراش النبى صلى الله عليه وسلم تلك الليلة ، وخرج النبى صلى الله عليه وسلم حتى لحق بالغار و بات المشركون يحرسون علياً يحسبونه النبى صلى الله عليه وسلم .فلما أصبحوا ثاروا عليه ، فلما رأوا علياً رد الله عليهم مكرهم . فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ فقال : لا أدرى .

فاقتفوا أثره ، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم ، فصعدوا الجبل فمروا بالغار ، فرأوا على بابه نسج العنكبوت ، فقالوا : لو دخل هاهنا أحد لم يكن نسج العنكبوت على بابه فمكث فيه ثلاث ليال(٣).

رابعاً : عدم ملاءمة المناخ للدعوة :

إن هدف كل رسول يصطفيه الله سبحانه أن يُبَلِّغ ما أمر به ، امتثالا لأمر الله

---

(١) أخرجه البخارى راجع الفتح ٤٥٣/٣ .

(٢) الأنفال آية ٣٠ .

(٣) ذكره فى الدر ١٧٩/٣ وعزاه لعبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد وابن المنذر والطبرى وآخرين . وذكره فى الفتح ٢٣٦/٧ وعزاه لأحمد بإسناد حسن .

وتنفيذاً لما وجب عليه ، وإذا كان الرسل هم أكثر الناس مثالية ، بل هم دعاة المثالية فإنهم يحرصون كل الحرص على تنفيذ ما وجب عليهم . وهذا هو السر فى تفانيه صلى الله عليه وسلم فى تبليغ الدعوة وحرصه على امتثال قومه حتى قال الله له « فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ »[1].

وقال سبحانه « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا »[2].

فإذا كان هذا حال الرسول صلى الله عليه وسلم - تفان فى التبليغ ، وحرص على الاستجابة - وحال مشركى مكة هذا - تفان فى الصد عن سبيل الله ، وإعراض عن الاستجابة - فإن مكة أصبحت بيئة لا تصلح لانطلاق الدعوة منها ، ومناخها غير ملائم لانطلاقة إسلامية تعم العالم .

من هنا ، ولهذه الأسباب مجتمعة كانت الهجرة .

وهذه الأسباب تساعدنا فى معرفة جواب سؤال يطرح نفسه وهو :-

كيف تكون هجرة من مكة ؟

مكة صاحبة تراث دينى قديم ، ففيها بيت الله الحرام ، والحرم ، وهى بلد الله الحرام . وقد حظيت بدعاء إبراهيم لها بالأمن والرِّزق من الثمرات التى تجبى اليها ، وزارها كثير من الأنبياء حاجين بيت الله الحرام ، فكيف يهاجر الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون منها ؟

والجواب يتضح من النقطتين الآتيتين :-

أولاً : الهجرة ترك أو إخراج ؟

وإذا كان صلى الله عليه وسلم قد أذن الله له بالهجرة ، فإن هذا الإذن إنما كان

(١) سورة فاطر جزء من آية ٨ .
(٢) الكهف آية ٦ .

بسبب حال الدعوة وموقف المشركين منها . ومن ثَمّ فإنه صلى الله عليه وسلم لم يترك مكة وإنما أُخرج منها ، فالهجرة إخراج له صلى الله عليه وسلم من مكة ، أخرجه المشركون بصنيعهم - الذى تكلمت عليه فى أسباب الهجرة - ولم يترك هو مكة .و النصوص تفيد ذلك ، نلحظ هذا فى قول الله سبحانه :

« وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ »(١).

وقوله سبحانه :

« إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ »(٢).

وأيضاً فى قوله صلى الله عليه وسلم :

« عن عبد الله بن عدى بن الحمراء رضى الله عنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفاً على الحزورة وهو يقول : والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ولولا أنى أُخرجت منك ما خرجت »(٣).

والحزورة - بوزن القسورة ، وبعضهم شدد الواو - موضع بمكة .

وعن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم لمكة : ما أطيبك من بلد وأحبك إلىّ ولولا أن قومى أخرجونى منك ما سكنت غيرك »(٤).

ولا تعارض بين هذه النصوص المنيدة أن قومه صلى الله عليه وسلم أخرجوه ، وبين قول الله تعالى « وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق » ذلك

---

(١) الأنفال آية ٣٠ .

(٢) التوبة آية ٤٠ .

(٣) أخرجه الترمذى وقال : حسن غريب صحيح تحفة ٤٢٦/١٠ وهو فى ابن ماجه رقم ٣١٠٨ .

(٤) أخرجه الترمذى وقال : حسن صحيح غريب من هذا الوجه راجع التحفة ١٠ / ٤٢٧ ، ٤٢٨ .

أن الأخيرة دعاء ، وأيضاً خروجه وان كان لفعل قومه فإنه بأمر الله سبحانه المدبر أمور خلقه .

والهجرة إخراج للصحابه أيضاً ، فهم لم يتركوا مكة وإنما أخرجوا منها ، يوضح ذلك قول الله سبحانه « الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ »(١).

وقوله سبحانه « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ »(٢).

وقوله سبحانه « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ »(٣).

ثانياً : مكة بين تراثها وعصبيتها :

إن مكة فعلاً صاحبة تراث دينى ، إلا أن هذا ليس جوهرياً فى نجاح الدعوة ، إن القضية رسالة ورسول ، ودعوة تريد ويراد لها أن تنتشر ، فهل مزايا مكة هذه تؤدى لانتشار هذه الدعوة ؟ بديهى لا .

إن مكة صاحبة التراث الدينى ، أعمت العصبية قلوب أهلها عن قبول الحق ، والكبر والعناد حالا دون انتفاعهم بالدعوة ، ولم يراعوا هم تراثهم الدينى مما ضيع ثمرته . وأصبحت الدعوة تبحث عن مكان ، قلوب أهله صافية ، وفطرهم حية، وإن خلا هذا المكان عن أى مزية دينية ، وإن امتلأ هذا المكان بالسلبيات الطبيعية ، فالداعية يحرص على القلوب وكفى ، ولا يعنيه البتة ماذا كان هذا المكان ، ولا المتع الطبيعية – من مناخ ومياه وجمال – المتوفرة فى هذا المكان .

(١) الحج آيه ٤٠.
(٢) الممتحنة آية ١.
(٣) البقرة آية ٢١٧ .

وفى هذا درس لأهل زماننا ، فالإسلام ليس ميراثاً ، يكون الإنسان مسلما بإسلام أبويه ، لا ، وإنما يكون مسلماً باتباع كل ما جاء فى القرآن والسنة ، ولا ينفع المكان من أن بلادنا إسلامية ، ولا تنفع الأسماء من أنها عبد الله أو محمد ، فمكة قد أمروا بالخروج منها حينما تنكر أهلها للحق وكذلك نحن إن لم نكن جنوداً للإسلام فإن الله يولى ذلك غيرنا كما قال سبحانه « وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ »(١).

إلى أين الهجرة ؟

وبدأت الرؤيا تشير إلى الهجرة ، ورؤيا الأنبياء حق إذ هى من الوحى ، فرأى صلى الله عليه وسلم أنه وأصحابه يهاجرون من مكة إلى أرض بها نخل ، وهى سبخة بين ظهرانى حرتين ، وظن صلى الله عليه وسلم أنها اليمامة ، أو هجر - بفتح الهاء والجيم بلد معروف من البحرين يسكنها عبد القيس وهم أهل سبق إلى الإسلام - وظن أنها يثرب ، وظن أنها قِنَّسرين - بكسر القاف وفتح النون الأولى المشددة ويجوز كسرها ، بلد بالشام - ولا تعارض فى كل ذلك فإنه رأى صفة المكان ، وهذه الصفة رأى صلى الله عليه وسلم أنها تنطبق على كل هذه الأماكن ، فأصبحت كل هذه الأماكن محتملة . ثم خيَّره الله بالوحى بين ثلاثة بلاد هى المدينة ، والبحرين ، وقنسرين . ثم حدد له الوحى دار هجرته وأنها المدينة والتى تسمى آنذاك يثرب .

أخرج البخارى فى حديث عائشة الطويل فى الهجرة - وسيأتى إن شاء الله تعالى - أنه صلى الله عليه وسلم قال :

« إنى أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين »

واللابتان مثنى لابة وهى الحرة ، والحرة : أرض حجارتها سود كأنها أحرقت بالنار

(١) الآية الأخيرة من سورة محمد .

. وللمدينة لابتان شرقية وغربية وهى بينهما[١].

وذكر قول أبى موسى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : رأيت فى المنام أنى أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل فذهب وَهَلى الى أنها اليمامة أو هجر ، فإذا هى المدينة يثرب »[٢].

وعن جرير بن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله أوحى إلىّ ، أىّ هؤلاء الثلاثة نزلت فهى دار هجرتك . المدينة ، أو البحرين ، أوقنسرين[٣].

وعن صهيب عن النبى صلى الله عليه وسلم : أريت دار هجرتكم سبخة بين ظهرانى حرتين ، فإما أن تكون هجراً أو يثرب »[٤].

تحديد دار الهجرة :

وقد يقول قائل : لم لم تحدد دار الهجرة بعينها بادىء ذى بدء ، وحددت ببعض صفاتها ؟

وأقول : من ذكر صفاتها حددت عينها وزيادة ، فمن اجتماع الأوصاف عرفت ، وما كان المهم بادىء ذى بدء معرفة عين دار الهجرة ، وإنما كان المهم معرفة الصفات ، فمن معرفة أنها ذات نخل يعلم أنها قوية غنية ، ومن كونها بين حرتين يعلم أنها محصنة من جهتين وهذا يفيد أن الدعوة بها ستجد أتباعاً كثيرين ، مما يجعل أعداء الدعوة يحاربون هذه الدار ، ومن تحصينها لن يستطيعوا النيل منها ،

(١) فتح ٧/ ٢٣٠ ، ٢٣١.

(٢) فتح ٧ / ٢٢٦ و أسنده فى مواضع أخر، وأخرجه مسلم كذلك .

(٣) أخرجه الترمذى واستغربه تحفه ١٠/٤٢٤ ، وذكره فى الخصائص ٤٥٧/١ وعزاه للحاكم ، وصححه والبيهقى .وهو فى المستدرك ٢/٣ وصححه .

(٤) ذكره فى الفتح ٢٢٨/٧ وعزاه للبيهقى . وهو فى مستدرك الحاكم، ٣/ ٤٠٠ وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

أما هى فلها مخارج يمكن لأهلها أن يخرجوا منها مجاهدين ، وهذا إيذان بأن قوافل الحياة ستنطلق بسهولة ، وجيوش الفتح ستتحرك غادية رائحة مما يؤذن بالفتوحات، وهذا الذى تم ولله الحمد والمنة .

الإذن بالهجرة :-

وما أن حددت دار الهجرة إلا وأسرع المسلمون إليها راجين داراً يسعدون فيها بدينهم ونبيهم واثقين أنها ستكون هذه الدار ، فإن الهجرة إليها بوحى الله ، ولهم فيها إخوة قد آمنوا وبايعوا على النصرة فأسرعوا إلى المدينة مهاجرين من مكة ، وراجعين من الحبشة ، حتى أبو بكر عزم على الرحيل .

وانتظر الرسولُ صلى الله عليه وسلم الإذن له بالهجرة ، فأذن له وعلّمه الوحى بما يدعو وهو خارج من مكة ومتجه إلى المدينة .

أخرج البخارى عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنى أريت دار هجرتكم ذات نخلٍ بين لابتين ، وهما الحرتان . فهاجر من هاجر قِبَل المدينة ، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة ، وتجهز أبو بكر قبل المدينة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : على رسلك ، فإنى أرجو أن يؤذن لى »[1].

وعن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم بمكة ، ثم أُمر بالهجرة ، فأنزل الله تعالى « وقل رب أدخلنى مدخل صدق ، وأخرجنى مخرج صدق ، واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً »[2].

وفى تقديم المدخل على المخرج بيان أنه صاحب دار ، فإن من جهز مكانه الثانى قبل إخراجه من الأول ذو دار وليس بضائع . وفى وصف المدخل بالصدق إشارة الى

---

(١) أخرجه البخارى فى حديث طويل سيأتى إن شاء الله تعالى، راجع الفتح ٧ / ٢٣٠ ، ٢٣١ .

(٢) ذكره فى الدر ١٩٨/٤ وعزاه لأحمد ، والترمذى وصححه ، وابن جرير، وابن المنذر، والطبرانى والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبى نعيم والبيهقى معاً فى الدلائل والضياء فى المختارة وهو فى المستدرك ٣/٣ .

أنه سيجد فيه ما تقر به عينه ، وأن دار هجرته خالية من العيب الذى أتعبه في مكة وهو تكذيب أهلها ، ووصف المخرج بالصدق لتطمينه على هجرته ، وأنهم لن ينالوا منه .

وعن قتادة رضى الله عنه فى قوله « وقل رب ادخلنى مدخل صدق » . . الآية . قال : أخرجه الله من مكة مخرج صدق وأدخله المدينة مدخل صدق وعلم نبى الله صلى الله عليه وسلم أنه لاطاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله تعالى وحدوده وفرائضه وإقامة كتاب الله تعالى فإن السلطان عزة من الله تعالى جعلها بين عباده ولولا ذلك لغار بعضهم على بعض وأكل شديدهم ضعيفهم »(١).

هجرة الصحابة :-

وإذا كان الصحابة قد أسرعوا بالهجرة ، فإن الأمر لم يك سهلاً ميسوراً ، فلقد تعرضوا للكثير من أذى كفار قريش ، فمنعوا البعض ، وربما فرقوا بين المرء وزوجه، وأخذوا مال البعض ، واعتدوا على البعض ، بما يفيد أنهم بذلوا كل ما فى وسعهم للكيد لهؤلاء الذين أخرجوا من ديارهم لقولهم « ربنا الله » !!

عن عكرمة فى قوله تعالى « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد » قال : نزلت فى صهيب بن سنان ، وأبى ذر الغفارى ، وجندب بن السكن - أحد أهل أبى ذر - ؛ أما أبو ذر فانفلت منهم فقدم على النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما رجع مهاجرا عرضوا له وكانوا بمر الظهران فانفلت أيضاً حتى قدم على النبى صلى الله عليه وسلم . وأما صهيب فأخذه أهله فافتدى منهم بماله ثم خرج مهاجراً فأدركه قنفذ بن عمير بن جدعان فخرج مما بقى

---

(١) ذكره فى الدر حـ ٤ صـ ١٩٨، ١٩٩ وعزاه للحاكم، وصححه والبيهقى فى الدلائل . وهو فى المستدرك ٣/٣ .

من ماله ، وخلى سبيله[1].

وعن صهيب قال : لما خرج النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة همت بالخروج فصدنى فتيان من قريش ثم خرجت فلحقنى منهم ناس بعد ما سرت بريداً ليردونى فقلت لهم : هل لكم أن أعطيكم أواقى من ذهب وتخلوا سبيلى ؟ ففعلوا فقلت : احفروا تحت أسكفة الباب فإن تحتها الأواقى . وخرجت حتى قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قباء ، قبل أن يتحول منها ، فلما رآنى قال : يا أبا يحى ، ربح البيع ثم تلا هذه الآية « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله . . . الآية »[2].

وعن أم سلمة قالت : لما أجمع أبو سلمة الخروج الى المدينة رحّل لى بعيره ، ثم حملنى عليه ، وجعل معى ابنى سلمة ابن أبى سلمة فى حجرى ، ثم خرج يقود بى بعيره .فلما رأته رجال بنى المغيرء قاموا اليه فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها فى البلاد ؟ قالت : فنزعوا خطام البعير من يده ، وأخذونى منه .

قالت : وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبى سلمة ، وقالوا : والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا . قالت : فتجاذبوا ابنى سلمة بينهم حتى خلعوا يده . وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبسنى بنو المغيره عندهم وانطلق زوجى أبو سلمة إلى المدينة !!

قالت : فَفُرِّق بينى وبين ابنى ، وبين زوجى !!!

(١) ذكره فى الدر ١ / ٢٤٠ وعزاه لابن جرير والطبرانى .

(٢) ذكره فى الدر ١ / ٢٤٠ وعزاه للطبرانى والحاكم والبيهقى فى الدلائل وابن عساكر . وهو فى المستدرك ٣ / ٤٠٠ بأطول من هذا . وصححه .

قالت : فكنت أخرج كل غداة فأجلس فى الأبطح ، فما أزال أبكى حتى أمسى ، سنة أو قريبا منها حتى مر بى رجل من بنى عمى أحد بنى المغيرة ، فرأى مابى فرحمنى ، فقال لبنى المغيرة : ألا تحرِّجون من هذه المسكينة ؟ فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها ؟!

قالت : فقالوا لى الحقى بزوجك إن شئت . قالت : فرد بنو عبد الاسد إلىَّ عند ذلك ابنى . قالت : فارتحلت بعيرى ، ثم أخذت ابنى فوضعته فى حجرى ، ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة .

قالت : ومامعى أحد من خلق الله . حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة ابن أبى طلحة أخا بنى عبد الدار ، فقال : إلى أين يا ابنة أبى أمية ؟ قلت : أريد زوجى بالمدينة . قال : أو ما معك أحد ؟ قلت : ما معى أحد إلا الله، وبنىَّ هذا . فقال : والله مالك من مَتْرَك . فأخذ بخطام البعير فانطلق معى يهوى بى ، فو الله ما صحبت رجلا من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه ، كان إذا بلغ المنزل أناخ بى ، ثم استأخر عنى حتى إذا نزلتُ استأخر ببعيرى فحط عنه ثم قيده فى الشجر ، ثم تنحى إلى شجرة فاضطجع تحتها . فإذا دنا الرواح قام إلى بعيرى فقدمه فرحله ، ثم استأخر عنى وقال : اركبى . فإذا ركبت فاستويت على بعيرى أتى فأخذ بخطامه فقادنى حتى ينزل بى . فلم يزل يصنع ذلك بى حتى أقدمنى المدينة ، فلما نظر إلى قرية بنى عمرو ابن عوف بقباء قال : زوجك فى هذه القرية - وكان أبو سلمة بها نازلا - فادخليها على بركة الله . ثم انصرف راجعاً إلى مكة .

فكانت تقول : ما أعلم أهل بيت فى الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة ، وما رأيت صاحبا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة .

(أسلم عثمان بن طلحة هذا بعد الحديبية ، وهاجر هو وخالدبن الوليد معاً ،

ودفع إليه الرسول صلى الله عليه وسلم يوم الفتح والى ابن عمه شيبة مفاتيح الكعبة ، أقرها عليهم فى الإسلام كما كانت فى الجاهلية ، ونزل فى ذلك قوله تعالى « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا »[1].

وهذا من لطف الله وعنايته بهذه الصحابية ، فلقد هيأ لها هذا الرجل الأمين يصحبها فى هجرتها بكل أمانة وخلق ، وكم لله من ألطاف بعباده الصالحين .

ولقد كافأه الله سبحانه وتعالى على خُلُقِه الكريم هذا فجعل سبحانه الحجابة فيهم ، وبشرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ببشرى عظيمة ، ألا وهى أن هذه القبيلة قبيلة مباركة طويلة الأجل إلى قيام الساعة .

فعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خذوها يا بنى طلحة خالدة تالدة ، لا ينزعها منكم إلا ظالم يعنى حجابة الكعبة »[2].

وعن ابن عباس أن عبد الله بن جحش - رضى الله عنهم - وكان آخر من بقى ممن هاجر وكان قد كف بصره فلما أجمع على الهجرة كرهت امرأته ذلك بنت حرب بن أمية وجعلت تشير عليه أن يهاجر إلى غيره فهاجر بأهله وماله مكتتماً من قريش حتى قدم المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فوثب أبو سفيان بن حرب فباع داره بمكة فمر بها بعد ذلك أبو جهل ابن هشام وعتبة ابن ربيعة وشيبة ابن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وحويطب ابن عبد العزى وفيها أهب معطونة فذرفت عينا عتبة وتمثل ببيت من شعر :-

وكل دار وإن طالت سلامتها ... يوماً سيدركها النكباء والحوب

قال أبو جهل وأقبل على العباس فقال هذا ما أدخلتم علينا .

---

(١) سورة النساء آيه ٥٨ . ذكره فى سيره ابن كثير ٢/٢١٥ عن ابن إسحاق بإسناده والتعريف بعثمان منه بتصرف .

(٢) أخرجه الطبرانى كذا فى الدر ٢/١٧٥ .

فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح قام أبو أحمد [1] ينشد داره فأمر النبى صلى الله عليه وسلم عثمان ابن عفان فقام إلى أبى أحمد فانتحاه فسكت أبو أحمد عن نشيد داره ، قال ابن عباس وكان أبو أحمد يقول والنبى صلى الله عليه وسلم متكىء على يده يوم الفتح .

حبذا مكة من وادى　　بها أمشى بلا هادى

بها يكثر عوادى　　بها تركز أوتادى[2]

عن عمر بن الخطاب قال اجتمعناللهجرة أوعدت أنا وعياش بن أبى ربيعة وهشام بن العاص الميضأة ميضأة بنى غفار فوق سرف وقلنا أيكم لم يصبح عندها فقد احتبس فليمض صاحباه ، فحبس عنا هشام بن العاص فلما قدمنا المدينة نزلنا فى بنى عمرو بن عوف وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش بن أبى ربيعة وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما حتى قدما علينا المدينة فكلماه فقالا له إن أمك نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتي تراك ، فرق لها فقلت له يا عياش والله إن يريدك القوم إلا عن دينك فاحذرهم فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت ولو قد اشتد عليها حر مكة - أحسبه قال - لامتشطت قال : إن لى هناك مالا فآخذه قال : قلت والله إنك لتعلم أنى من أكثر قريش مالا فلك نصف مالى ولا تذهب معهما فأبى إلا أن يخرج معهما فقلت له لما أبى علىّ أما إذ فعلت فخذ ناقتى هذه فإنها ناقة ذلول فالزم ظهرها فإن رابك من القوم ريب فانج عليها فخرج معهما عليها حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال أبو جهل بن هشام

---

(١) أبو أحمد : كنية عبد الله بن جحش راجع الإصابة ٦/٧ رقم ٩٤٩٢ .

(٢) ذكره فى المجمع ٦٣/٦، ٦٤، وعزاه للطبرانى وقال: فيه عبد الله بن شبيب وهو ضعيف ، ويبدو أن سقطا فى النص إذ أن زوجته هى الفارعة بنت أبى سفيان بن حرب كذا فى الإصابة ٦/٧ .

والله لقد استبطأت بعيرى هذا أفلا تحملنى على ناقتك هذه ؟ قال بلى فأناخ وأناخا ليتحول عليها فلما استووا بالأرض عديا عليه فأوثقاه ثم أدخلاه مكة وفتناه فافتتن قال فكنا نقول والله : لا يقبل الله ممن افتتن صرفاً ولا عدلاً ولايقبل توبة قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم قال وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أنزل الله عز وجل فيهم وفى قولنا لهم وقولهم لأنفسهم (ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقطنوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم) إلى قوله (وأنتم لا تشعرون) قال عمر فكتبتها فى صحيفة وبعثت بها إلى هشام بن العاص ، قال هشام : فلم أزل أقرؤهابذى طوى أصعد بها فيه حتى فهمتها قال فألقى فى نفسى انها إنما نزلت فينا وفيما كنا نقول فى أنفسنا ويقال فينا ، فرجعت فجلست على بعيرى فلحقت برسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة (١).

هذه نماذج قليلة سقتها لبيان ما تحمله المؤمنون عند عزمهم على الهجرة .

ولعلماء السير كلام كثير فى أول من هاجر إلى المدينة وحسبنا فى تدقيق الأمر وتحديده ما رواه البخارى - رحمه الله تعالى - فى صحيحه عن البراء من أن أول من قدم المدينة مصعب بن عمير ، وابن أم مكتوم ، ثم قدمها بلال ، وسعد بن أبى وقاص ، وعمار بن ياسر .

وإنى وإن كنت أقدم رواية البخارى ، فإننى أنبه إلى أنه يمكن الجمع بينها وبين الروايات الأخرى بطرق مختلفة ، كأن يكون السبق نسبيا ، أو باعتبارات مختلفة، كأن يكون باعتبار علم المتحدث ، أو باعتبار الهجرة من مكة ، فلا ينافى تقدم

---

(١) أخرجه البزار ٣٠٢/٢ رقم ١٧٤٦ وذكره فى مجمع الزوائد حـ ٦ صـ ٦١وقال : رواه البزار ورجاله ثقات " وابن سعد ٢٧١/٣ .

من جاء من الحبشة مثلا ، أو يكون الأمر باعتبار وصول المدينة فإذا عارضه خبر آخر فقد يكون باعتبار الخروج من مكة . فمجمل القول أن القارىء لا يظن أن ماعدا رواية البخارى ضعيف أو باطل ، وكذا لا يظن أن من خالفها معارض لها .

« فعن البراء رضى الله عنه قال : أول من قدم علينا مصعب بن عمير ، وابن أم مكتوم ، ثم قدم علينا عمار بن ياسر ، وبلال رضى الله عنهم » (١)

« وعن البراء بن عازب رضى الله عنهما قال : أول من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم وكان يقرئون الناس فقدم بلال وسعد وعمار بن ياسر ، ثم قدم عمر بن الخطاب فى عشرين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ثم قدم النبى صلى الله عليه وسلم فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشىء فرحهم برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جعل الإماء يقلن : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما قدم حتى قرأت (سبح اسم ربك الأعلى) فى سور من المفصل (٢)

ولا تظنن أن بين الروايتين تعارضاً ، فالرواية الثانية فيها زيادة ليست فى الأولى وهذا لا تعارض فيه إذ هو من باب الزيادة . وزيادة الثقة مقبولة عند جمهور المحدثين .

(١ ، ٢) أخرجهما البخارى . راجع الفتح ٧/ ٢٥٩ .

أوائل المهاجرين :-

* ومصعب هو ابن عمير بن هشام بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى بن كلاب قُتل يوم أحد رُوى عن خباب قال : هاجرنا مع النبى صلى الله عليه وسلم نبتغى وجه الله ، فوقع أجرنا على الله ، فمنا من مات لم يأكل من أجره شيئاً ، ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدُ بها . وإن مصعب بن عمير مات ولم يترك إلا ثوبا كانوا إذا غطوا به رأسه خرجت رجلاه ، وإذا غطوا به رجليه خرج رأسه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : غطوا رأسه واجعلوا على رجليه الإذخر[١].

* وابن أم مكتوم هو عمرو - كما يقول أهل العراق - أو عبد الله - كما يقول أهل المدينة - اشتهر بكنيته حتى اختلف فى اسمه ، وأبوه قيس بن زائدة بن الأصم ، نسب إلى أمه أم مكتوم وهذه كنيتها أما اسمها فـ « عاتكة بنت عبد الله المخزومية » وهو ابن خال خديجة أم المؤمنين ، فأمها فاطمة أخت قيس .

أسلم قديما وكان من المهاجرين الأولين ، شهد القادسية وكان معه اللواء ويقال استشهد بها ، وهو الذى نزل فيه « عبس وتولى » وكان رسول الله صلي الله عليه وسلم يستخلفه على المدينة فى عامٌ غزواته ، قال ابن عبد البر : روى جماعة من أهل العلم بالنسب والسير أن النبى صلى الله عليه وسلم استخلف ابن أم مكتوم ثلاث عشرة مرة ، ذكرها . وأما قول أنس : إن النبى صلى الله عليه وسلم استخلف ابن ام مكتوم مرتين فلم يبلغه ما بلغ غيره .

عن أنس بن مالك قال : رأيت ابن أم مكتوم يوم القادسية وعليه درع وبيده راية [٢].

وعن أنس بن مالك قال : استخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أم مكتوم مرتين على المدينة ، ولقد رأيته يوم القادسية معه راية سوداء[٣].

---

(١) أخرجه الخمسة راجع التحفة ١٠ / ٣٥٣ .

(٢) أخرجه الحارث بن أبى أسامه كذا فى المطالب ١٠٢/٤ .

(٣) أخرجه أحمد . الفتح الربانى ٢٠/ ٣٣٣ .

* وبلال هو ابن رباح ، وهو حبشى وقيل نوبى ، أسلم وهو عبد ، فعذبه أبو جهل وأمية بن خلف فاشتراه أبو بكر .

رُوى عن قيس بن أبى حازم قال : اشترى أبو بكر بلالا بخمس أواق ، وهو مدفون بالحجارة[1] .

كان بلال لا يفارق النبى صلى الله عليه وسلم وأبا بكر ، لكن فارقهما هذه المرة بإذن .

عن بريدة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبلال : ما دخلت الجنة قط إلا سمعت خشخشتك أمامى »[2] .

* وسعد هو ابن أبى وقاص - واسم أبى وقاص مالك وقيل وهيب وقيل أهيب - بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة . يجتمع مع النبى صلى الله عليه وسلم فى كلاب .

من أوائل من أسلم ، فهو ثانى حر بالغ أسلم .

روى عنه أنه قال : لقد رأيتنى وأنا ثلث الإسلام[3] .

وهو أول من رمى بسهم فى سبيل الله من المسلمين .

روى عنه قال : « إنى لأول العرب رمى بسهم فى سبيل الله »[4] .

---

(١) ذكره فى الفتح ٩٩/٧ وعزاه لابن أبى شيبة باسناد صحيح . وراجع الفتح ٤١٢/٤ الشرح ففيه زيادة فائدة.

(٢) أخرجه الترمذى - راجع التحفة ١٠ / ١٧٤ رقم ٣٧٧٢ - وقال : حسن صحيح غريب.

(٣) أخرجه البخارى . فتح ٨٣/٧ .

(٤) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى جامع الأصول ١٧/٩ وراجع الفتح ٧/ ٨٣ رقم ٣٧٢٨ .

ومناقبه كثيرة ، ففيه أنزلت أربع آيات من القرآن .

وهو خال رسول الله صلى الله عليه وسلم

وجمع له الرسول صلى الله عليه وسلم أبويه فى التفدية فقال له يوم أحد « ارم فداك أبى وأمى ».

ودعا له الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكون مستجاب الدعوة .

وهو حارس رسول الله عليه وسلم .

وأصرت أمه على أن يترك الإسلام فأبى[1] .

* وعمار هو ابن ياسر العنسى - بالمهملة والنون - يكنى أبو اليقظان . وأمه سمية .

أسلم وأبوه وأمه قديما ، وعذبوا لإسلامهم ، وقتل أبو جهل أمه فكانت أول شهيد فى الإسلام [2] رُوى عن على بن أبى طالب قال : « جاء عمار بن ياسر يستأذن على النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ائذنوا له مرحباً بالطيب المطيب»[3].

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما خير عمار بين أمرين الا اختار أرشدهما »[4].

وعن حذيفة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « واهتدوا بهدى عمار»[5].

---

(١) ثبت كل ذلك فى المرفوع راجع جامع الأصول حـ ٩ صـ ١٠ - ١٨ من رقم ٦٥٢٩ - ٦٥٣٧.

(٢) راجع السبب الأول من أسباب الهجرة .

(٣) أخرجه الترمذى - تحفة ١٠ / ٢٩٨ - وقال : حسن صحيح - والحاكم ٣٨٨/٣ وصححه ووافقه الذهبى وابن ماجه ٥٢/١ .

(٤) أخرجه الترمذى - تحفة ٢٩٩/١٠ - وقال حسن غريب . . . وأشار فى الفتح ٩٢/٧ الى أن الحاكم أخرجه .

(٥) أخرجه الترمذى ضمن حديث - تحفة ٢٩٩/١٠ ، ٣٠٠ وقال حسن .

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ملىء إيمانا الى مشاشه [1] - يعنى عماراً »[2] .

هذا تعريف موجز بأوائل المهاجرين قصدت به التعريف بشىء من مناقبهم ومآثرهم .

وما أن وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة إلا هاجر كل من استطاع الهجرة ، ولم يبق إلا المستضعفون .

هجرته صلى الله عليه وسلم

أخرج البخارى حديثاً عن عائشة فى هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر ، اشتمل هذا الحديث على كثير من أمور الهجرة فسأذكره بتمامه فى صدر الموضوع محيلا عليه فى كل نقطة لها فيه ذكر . وهذا الحديث أخرجه الحاكم بأطول من رواية البخارى وقال الحافظ فى الفتح ٢٣٨/٧ « واسناده صحيح » إلا أننى آثرت أن أذكر رواية البخارى لما لها من مزية فى الصحة ، وعند الكلام على نقاط الهجرة فإن كانت زيادة فى رواية الحاكم ذكرتها مستفيداً بها .

فعن عائشة رضى الله عنها زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت : لم أعقل أبوىّ قط إلا وهما يدينان الدين ، ولم يمر علينا يومٌ إلا يأتينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفى النهار : بكرة وعشية . فلما ابتلى المسلمون ، خرج

---

(١) المشاش : جمع مشاشة : وهى رؤوس العظام اللينة التى يمكن مضغها . والمراد : ملىء حتى أطرافه أى أنه ممتلىء ايمانا .

(٢) ذكره فى الفتح ٩٢/٧ وعزاه للبزار وقال : واسناده صحيح . وأخرجه النسائى عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم. وقال فى الفتح ٩٢/٧ « بسند صحيح » وأخرجه الحاكم. فى المستدرك ٣٩٢/٣ وراجع فى مناقبه جامع الأصول ٤١/٩-٤٦. من رقم ٦٥٧٩ - ٦٥٨٥ .

أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة حتى بلغ برك الغماد [١] لقيه ابن الدغنة [٢] - وهو سيد القارة [٣] - فقال أين تريد يا أبا بكر ؟ فقال أبو بكر : أخرجنى قومى فأريد أن أسيح فى الأرض [٤] وأعبد ربى ، قال ابن الدغنة : فإن مثلك يا أبا بكر لا يَخرج ولا يُخرج ، إنك تكسب المعدوم ، وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فأنا لك جار . ارجع واعبد ربك ببلدك . فرجع ، وارتحل معه ابن الدغنة ، فطاف ابن الدغنة عشية فى أشراف قريش فقال لهم : إن أبا بكر لا يَخرج مثله ولا يُخرج ، أتُخْرجون رجلاً يكسب المعدوم ، ويصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويقرى الضيف ، ويعين على نوائب الحق ؟ فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة [٥] وقالوا لابن الدغنة : مر أبا بكر فليعبد ربه فى داره فليصل فيها ، وليقرأ ما شاء ، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا . فقال ذلك ابن الدغنة لأبى بكر فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه فى داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ فى غير داره . ثم بدا لأبى بكر فابتنى مسجداً بفناء داره وكان يصلى فيه ويقرأ القرآن فيتقذف [٦] عليه

---

(١) بَرْك بفتح الباء وسكون الراء ، وقد تكسر الباء ، والغماد : بكسر الغين المعجمة وقد تضم وتخفف الميم . وبرك الغماد : موضع على خمس ليال من مكة الى جهة اليمن .

(٢) علماء اللغة يضبطونه بضم المهملة والمعجمة وتشديد النون . والرواة يضبطونه بفتح أوله وكسر ثانيه وتخفيف النون . والدغنة أمه ، وقيل أم أبيه ، وقيل دابته . ومعنى الدغنة المسترخية ، وأصلها الغمامة الكثيرة المطر . اشتهر بهذه الكنية حتى نسى اسمه فقيل : اسمه الحارث بن يزيد وقيل مالك .

(٣) بالقاف وتخفيف الراء ، وهى قبيلة مشهورة من بنى الهون - بالضم والتخفيف - ابن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ، وكانوا حلفاء بنى زهرة من قريش ، وكانوا يضرب بهم المثل فى قوة الرمى .

(٤) تقدم أن أبا بكر كان متجها للحبشة ، وانما طوى قصده عن ابن الدغنة لأنه كان كافراً . وقوله أسيح فى الأرض قول صدق لأنه لا يصل الى الحبشة الا بعد أن يمشى وحده فى الأرض زمانا فيصدق أنه سائح وحقيقة السيح : أن لا يقصد مكانا معينا يستقر فيه .

(٥) أى لم ترد جوار ابن الدغنة . فأطلق الكذب وأراد لازمه ، فإن من كذب شخصاً رد عليه كلامه .

(٦) فى رواية أخرى عند البخارى « فيتقصف » أى يزدحمون عليه حتى يسقط بعضهم على بعض فيكاد ينكسر ، وأطلق يتقصف مبالغة . ومصير معنى ما هنا الى هذا أى يقذف بعضهم بعضا فيتساقطون .

نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه وكان أبو بكر رجلاً بكاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين ، فأرسلوا إلى ابن الدغنة ، فقدم عليهم فقالوا : إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه فى داره ، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه ، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا ، فانهه ، فان أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه فى داره فعل ، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك ، فإنا قد كرهنا أن نُخْفِرك ولسنا بمقرين لأبى بكر الاستعلان . قالت عائشة : فأتى ابن الدغنة إلى أبى بكر فقال : قد علمت الذى عاقدت لك عليه ، فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن تُرجع إلىَّ ذمتى ، فإنى لا أحب أن تسمع العرب أنى أُخفرت فى رجل عقدت له . فقال أبو بكر : فانى أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله عز وجل . والنبى صلى الله عليه وسلم يومئذ بمكة . فقال النبى صلى الله عليه وسلم للمسلمين : إنى أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين ، وهما الحَرَّتان (١) ، فهاجر من هاجر قِبَلَ (٢) المدينة ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة ، وتجهز أبو بكر قِبَلَ المدينة فقال له رسول الله صلى عليه وسلم : على رِسْلِك (٣) ، فانى أرجو أن يُؤذن لى . فقال أبو بكر : وهل ترجو ذلك بأبى أنت ؟ قال : نعم . فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحبه ، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السَّمُر- وهو الْخَبَط (٤)-أربعة أشهر. قال ابن شهاب (٥)

---

(١) مثنى حرة و الحرة : أرض حجارتها سود كأنها أحرقت بالنار . وهذا التفسير أى كلمة « وهما الحرتان » مدرج فى الحديث من كلام الزهرى الراوى عن عروة عن عائشة .

(٢) بكسر القاف ، وفتح الباء الموحدة أى جهة .

(٣) الرسل بكسر الراء وسكون السين السير الرفيق والمعنى على مهلك وفى رواية ابن حبان « فقال اصبر » .

(٤) هذا التفسير من كلام الزهرى فسر السمر بالخَبَط . والخبط : بفتح الخاء المعجمة والباء الموحدة ما يخبط بالعصا فيسقط من ورق الشجر . وهناك أقوال أخرى فى تفسير السمر قيل : شجرة أم غيلان ، وقيل : كل ماله ظل ثخين وقيل : ورق الطلح . والسمر بفتح السين المهملة ، وضم الميم .

(٥) هذا متصل بالإسناد الذى ذكره البخارى فى أول الحديث ، وليس من المعلق .

قال عروة قال عائشة : فبينما نحن يوماً جلوس فى بيت أبى بكر فى نحر [1] الظهيرة قال قائل لأبى بكر : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنعاً [2]- فى ساعة لم يكن يأتينا فيها - فقال أبو بكر : فداء له أبى وأمى ، والله ما جاء به فى هذه الساعة إلا أمر . قالت فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذن ، فأذن له ، فدخل فقال النبى صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : أخرج من عندك ، فقال أبو بكر : إنما هم أهلك [3] بأبى أنت يا رسول الله ، قال : فإنى قد أذن لى فى الخروج فقال أبوبكر : الصحابة [4] بأبى أنت يا رسول الله . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم . قال أبو بكر : فخذ بأبى أنت يا رسول الله إحدى راحلتى هاتين . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بالثمن [5] . قالت عائشة : فجهزناهما أحث الجهاز [6] وصنعنا لهما سفرة فى جراب [7] فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها [8] فربطت به على فم الجراب ، فبذلك سميت ذات النطاق . قالت : ثم لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر بغار فى جبل ثور ، فكمنا [9] فيه ثلاث ليال ، يبيت عندهما عبد الله بن أبى

---

(١) أى أول الزوال ، وهو أشد ما يكون فى حرارة النهار .

(٢) أى مغطيا رأسه من شدة الحرارة .

(٣) أراد بذلك عائشة وأسماء ، والمقصود أنهم من أهل دينك فلا تخش منهم ، كما جاء فى رواية موسى بن عقبة ففى روايته « أخرج من عندك ، قال : لا عين عليك ، انما هما ابنتاى » .

(٤) أى أريد مصاحبتك يا رسول الله .

(٥) مع أن أبا بكر أنفق الكثير من ماله على الدعوة ورسولها ، الا أن الرسول صلى الله عليه وسلم حرص على دفع الثمن حتى لا تكون هجرته الا من مال نفسه .

(٦) أفعل تفضيل من الحث وهو الاسراع . والجهاز : ما يحتاج اليه فى السفر .

(٧) أى زاداً فى جراب ، وأصل السفرة الزاد ثم استعملت فى وعاء الزاد ، وانما أرادت السيدة عائشة من اللفظة هنا أصلها اللغوى .

(٨) النطاق ما يشد به الوسط وقيل غير ذلك .

(٩) أى اختفيا .

بكر وهو غلام شاب ثقف [١] لقن [٢] فيدلج من عندهما بسحر ، فيصبح مع قريش بمكة كبائت ، فلا يسمع أمراً يكتادان [٣] به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبى بكر منحة [٤] من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان فى رسل - وهو لبن منحتهما ورضيفهما[٥] - حتى ينعق [٦] بها عامر بن فهيرة بغلس ، يفعل ذلك فى كل ليلة من تلك الليالى الثلاث واستأجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رجلاً من بنى الدِّيل [٧]، وهو من بنى عبد بن عدى هادياً خريتاً - والخريت الماهر بالهداية [٨] قد غمس حلفاً فى آل العاص بن وائل السهمى ، وهو على دين كفار قريش ، فأمناه ، فدفعا إليه راحلتيهما ، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث ، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل ، فأخذ بهم طريق السواحل »[٩].

الترتيب للهجرة :-

واضح من حديث عائشة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد رتب أمور الهجرة

---

(١) بفتح المثلثة وكسر القاف ، ويجوز اسكانها وفتحها وهو الحاذق .
(٢) بفتح فكسر : السريع الفهم .
(٣) من الكيد
(٤) بكسر الميم وسكون النون بعدها حاء مهملة يُقَال أعطاه الشاه منحة أو الناقة منحة أى أعاره إياها ينتفع بلبنها وصوفها ثم ترد .
(٥) الرضيف بوزن رغيف والمراد اللبن المرضوف أى الذى وضعت فيه الحجارة المحماة بالشمس أو النار لينعقد وتزول رخاوته .
(٦) أى يصيح ، والنعيق صوت الراعى إذا زجر الغنم .
(٧) بكسر الدال وسكون المثناه التحتانية . وقيل بضم أوله وكسر ثانيه مهموز . وهذا الرجل اسمه عبد الله ابن أريقط على أشهر الأقوال .
(٨) هذا التفسير من كلام الزهرى كما تقدم .
(٩) أخرجه البخارى . فتح ٧/ ٢٣٠ .

مع أبى بكر ، وأنهما اتفقا على :-

١ - أن يكمنا فى الغار فترة ثلاثة أيام يتلمسون خلالها أخبار مشركى مكة ، رجاء أن يهدأ الطلب ، وتأتيهما أخبار المشركين عن طريق عبد الله بن أبى بكر فهو كفء لذلك فهو « ثقف » أى حاذق ماهر ، وهو أيضاً « لقن »أى ذكى ، على أن يقوم بتوصيل الأخبار فى أوقات لا يفطن لها ، ولا يُعرف السائر فيها ، فيذهب اليهما عند اختلاط الظلام ، ويرجع من عندهما فى وقت السحر فيصبح مع أهل مكة ، وكأنه بات ليلته معهم « فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت » .

٢ - يرعى عامر بن فهيرة غنم أبى بكر مع فتيان قريش طول اليوم ، ويتأخر فى العود قليلاً ، ماراً على الغار ليأخذا ما يشاءان من لبن ولحم ، ثم يواصل سيره إلى مكة ، وهكذا كل ليلة ، فإذا انتهت الفترة سار عامر معهم يساعدهم فى أمورهم طول سفرهم من مكة إلى المدينة .

« ويرعى عليهما عامر بن فهيرة - مولى أبى بكر- منحة من غنم . . . الليالى الثلاث » .

٣ - كان أبو بكر قد عزم على الهجرة إلى المدينة قبل ذلك بأربعة أشهر ، فأمره الرسول صلى الله عليه وسلم بالانتظار ، مبيناً أنه صلى الله عليه وسلم ينتظر الإذن من ربه بالهجرة ، فليظل أبو بكر ليصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك . فلما علم أبو بكر ذلك - ويبدو أنه كان يظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يهاجر - بدأ الاستعداد ، فعلف ناقتين ورق السمر يريد بذلك إعدادهما للرحلة .

فلما أخبره الرسول صلى الله عليه وسلم بالإذن له بالهجرة ، قدّم إحدى الراحلتين هدية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأصر صلى الله عليه وسلم

على أن يدفع له ثمنها ، راجيا بذلك أن تكون هجرته من ماله الخاص ، ودفع صلى الله عليه وسلم ثمن الناقة إلى أبى بكر ، وهذه الناقة هى الجذعاء ، على أظهر الأقوال. وبذا أصبحت راحلتا السفر جاهزتين .

٤ - اتفق صلى الله عليه وسلم وأبو بكر مع عبد الله بن أريقط ، وهو من كفار قريش ، ومن أصحاب الخبرة بالطرق ، اتفقا معه على أن يكون دليلا لهما فى رحلتهما هذه الى المدينة ويدفعان له الأجرة - ولم أقف على مقدار الأجرة التى دفعت له - ودفعا إليه راحلتيهما ليأتى بهما إلى الغار الذى فى جبل ثور بعد ثلاث ليال ليبدؤا رحلتهم ، ومع أن هذا الرجل كان كافراً إلا أنهما وثقا فى أمانته، وقد كان عند حسن ظنهما فوفى لهما .

«واستأجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رجلا من بنى الديل . . . السواحل » وفى رواية موسى ابن عقبة عن ابن شهاب » .

« حتى إذا هدأت عنهما الأصوات جاء صاحبها ببعيريهما فانطلق معهما بعامر ابن فهيرة يخدمهما ويعينهما ، يردفه أبو بكر ، ويعقبه ليس معهما غيره »[١].

ولم يسر بهم الدليل فى الطريق المألوف طلبا للستر ، وإنما أخذ بهم طريقا أطول، لكنه عن المألوف أبعد . جاء فى رواية موسى بن عقبة .

« فأجاز بهما أسفل مكة ، ثم مضى بهما حتى جاء بهما الساحل أسفل من عسفان ، ثم أجاز بهما حتى عارض الطريق » [٢] .

وجاء فى رواية عبد الرزاق « فأخذ بهم طريق أذاحر ، وهو طريق الساحل »

ترتيب آخر:-

ولم يرتب صلى الله عليه وسلم أمور الهجرة مع أبى بكر وحده ، وإنما

(١) فتح (٢٣٨/٧).
(٢) فتح ٢٣٨/٧.

كان لعلى دور ، وأى دور ؟ فلو أنه صلى الله عليه وسلم ترك بيته فى تلك الليلة وانصرف لا نتشر المشركون فى أرجاء مكة فاكتشفوه صلى الله عليه وسلم وصاحبه قبل أن يدخلا الغار، ثم إنه كان عنده ودائع كان لابد من ردها إلى أهلها. وكان الأمران على عاتق على بن أبى طالب كرم الله وجهه . فلقد خرج صلى الله عليه وسلم من بيته تاركا عليا ينام على فراشه ، والمشركون ينظرون من ثقب الباب فيظنون أن النائم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشغلهم الله بذلك حتى استقر الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه فى الغار .

وفى حديث ابن عباس الذى ذكرته فى السبب الثالث للهجرة .

« فبات علىٌّ على فراش النبى صلى الله عليه وسلم تلك الليلة ، وخرج النبى صلى الله عليه وسلم حتى لحق بالغار ، وبات المشركون يحرسون عليا يحسبونه النبى صلى الله عليه وسلم .

وذكر ابن اسحاق - ووافقه ابن كثير - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر عليا أن يتخلف حتى يؤدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التى كانت عنده للناس ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بمكة أحد عنده شىء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال شرى على نفسه ولبس ثوب النبى صلى الله عليه وآله وسلم ثم نام مكانه وكان المشركون يرمون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ألبسه بردهُ وكانت قريش تريد أن تقتل النبى صلى الله عليه وآله وسلم فجعلوا يرمون عليا ويرونه النبى صلى الله عليه وآله وسلم وقد لبس بردهُ وجعل على رضى الله عنه يتضور [١] فإذا هو على فقالوا إنك للئيم إنك لتتضور وكان صاحبك لا يتضور ولقد استنكرناه منك[٢].

(١) يتلوى .

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك ٤/٣ .

وعن على بن الحسين قال : إن أول من شرى نفسه ابتغاء رضوان الله على بن أبى طالب .

وقال علىٌ عند مبيته على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

وَقَيْتُ بنفسى خيرَ مَنْ وَطِىءَ الحصا ... ومن طافَ بالبيت العتيقِ وبالحِجْرِ

رسـول الـه خـاف أن يمكـروا بـه ... فنجّاه ذو الطولِ الإلهُ من المكرِ

وباتَ رسـولُ اللهِ فـى الغـار آمنًا ... موقّىً وفى حفظ الإله وفى سَتْر

وبِـتُّ أُرَاعيـهـم ولـم يتْهِمُونَنِى ... وقد وُطِّنَت نفسى على القتلِ والأسرِ[1]

نظرة فى الترتيبين :-

وبنظرة فى الترتيبين نجد حكما عالية :

ففى الهجرة الصاحب هو أبو بكر ، ولو كان عليا أو حمزة لأخذ الأمر صورة قبلية ، فربما قيل إنه صلى الله عليه وسلم وابن عمه ، أو عمه يتوليان أمراً يريدان منه شيئاً ، كما كانت فكرة العرب من عدم التفريق بين الرسالة والزعامة فكان يمكن القول إنهما طلاب زعامة يسعون من أجلها ، فلما كان أبو بكر الصاحب أبعد الأمر عن ذلك .

عن على - رضى الله عنه - أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال لجبريل عليه الصلاة والسلام من يهاجر معى ؟ قال : أبو بكر الصديق[2].

- وحينما كان فى الأمر تضحية ، والموت أقرب ما يكون إلى المضحى ، قُدم علىٌ وهو من أهله صلى الله عليه وسلم . وكان صلى الله عليه وسلم يقدم أهله فيما يحتاج إلى التضحية ، ويجعل نفسه أمام الجميع .

- وبينما يرتب صلى الله عليه وسلم أمور الهجرة مع أبى بكر لم يحملا سلاحا

(١) أخرجه فى المستدرك ٤/٣

(٢) أخرجه فى المستدرك ٥/٣ وقال صحيح الاسناد والمتن، ولم يخرجاه، وقال الذهبى صحيح غريب .

ولم يستكثرا من الرفقاء ، فإن الأمر بالجهاد لم ينزل بعد ، وأحوال المسلمين لا تسمح بالمواجهة ، فالبعض فى مكة ، وجموع فى الطريق ، وبعض فى المدينة ، وآخرون هنا وهناك ، وكان سلاحهما الذى أعداه لمواجهة الأعداء دعاؤه صلى الله عليه وسلم وسؤاله ربه ، ومن هنا فإن أبا بكر كان يحرص على أن يدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يعلم أنه مستجاب الدعوة .

ليلة الخروج :-

حديث ابن عباس الذى ذكرته فى السبب الثالث للهجرة فيه بيان لتآمر قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما توصلوا إليه لأجل التخلص منه ، وفيه أنه صلى الله عليه وسلم لو لم يخرج فى هذه الليلة من بيته لأقدموا على قتله فى الصباح لو قدروا على ذلك .

وكأن الله سبحانه أراد أن تكون الليلة التى دبروا فيها قتله صلى الله عليه وسلم وصمموا على التنفيذ أراد سبحانه أن تكون أول مرحلة بها ينتشر الإسلام ، فى كل أرجاء المعمورة ، تكون أولى لياليه صلى الله عليه وسلم مهاجراً ، وبالهجرة كان ما كان من الخير .

وفى رواية أخرى عن ابن عباس ، تفصيل لتآمرهم وبيان المكان الذى كان فيه التآمر، وهذه الرواية تكمل الصورة لدى القارىء مع الرواية السابقة التى أشرت إليها .

عن عبد الله بن عباس قال : لما اجتمعوا لذلك واتعدوا أن يدخلوا فى دار الندوة ليتشاوروا فيها فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، غدوا فى اليوم الذى اتعدوا له ، وكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة فاعترضهم إبليس لعنه الله فى صورة شيخ جليل عليه بتٌ له فوقف على باب الدار ، فلما رأوه واقفاً على بابها قالوا : من الشيخ ؟ قال : شيخ من أهل نجد سمع بالذى اتعدتم له فحضر

معكم ليسمع ما تقولون ، وعسى أن لا يعدمكم منه رأياً ونصحاً . قالوا : أجل فادخل ، فدخل معهم وقد اجتمع فيها أشراف قريش : عتبة وشيبة وأبو سفيان وطعيمة ابن عدى وجبير بن مطعم بن عدى والحارث بن عامر بن نوفل والنضر بن الحارث ، وأبو البخترى بن هشام وزمعة بن الأسود وحكيم بن حزام وأبو جهل ابن هشام ونَبيه ومنبه ابنا الحجاج وأمية بن خلف ومن كان منهم وغيرهم ممن لا يعد من قريش . فقال بعضهم لبعض : إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم وإننا والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن قد اتبعه من غيرنا ، فأجمعوا فيه رأياً

قال : فتشاوروا ، ثم قال قائل منهم ، قيل إنه أبو البخترى بن هشام : احبسوه فى الحديد وأغلقوا عليه باباً ، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله زهيراً والنابغة ومن مضى منهم من هذا الموت ، حتى يصيبه ما أصابهم .

فقال الشيخ النجدى : لا والله ما هذا لكم برأى ، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب هذا الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه ، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم ، ما هذا لكم برأى . فتشاوروا ، ثم قال قائل منهم : نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا ، فإذا خرج عنا فو الله ما نبالى أين ذهب ولا حيث وقع، إذا غاب عنا وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت . قال الشيخ النجدى : لا والله ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به ! والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحلَّ على حى من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد ، أديروا فيه رأياً غير هذا . فقال أبو جهل بن هشام : والله إن لى فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه

بعد ، قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعها ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم . قال : يقول الشيخ النجدى : القول ماقال الرجل ، هذا الرأى ولا رأى غيره ، فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له ، فأتى جبرائيل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه . قال : فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبوا عليه ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهم قال لعلى بن أبى طالب : نم على فراشى وتسج ببردى هذا الحضرمى الأخضر ، فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شىء تكرهه منهم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام فى برده ذلك إذا نام[1] .

من بيتيهما إلى الغار :-

اجتمع فتيان قريش على بابه صلى الله عليه وسلم ، وهم يأتمرون أيهم يهجم عليه صلى الله عليه وسلم ليوثقه ، وجاء جبريل عليه السلام فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، وأمره أن لا يبيت فى مضجعه الذى كان يبيت فيه ، ولما أرخى الليل سدوله اجتمع المتعدون على بابه صلى الله عليه وسلم ورآهم صلى الله عليه وسلم فقال لعلى : نم على فراشى وتسج ببردى هذا الحضرمى الأخضر ففعل على . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ صدر سورة «يس» إلى قوله « فأغشيناهم فهم لا يبصرون » فحفظه الله منهم ، ولم يشعروا بخروجه، ولا بنثره التراب على رؤوسهم ، خرج متجها لبيت صديقه وصاحبه فى رحلة

(١) ذكره ابن كثير فى السيرة ٢٢٧/٢ عن ابن اسحاق . وذكره فى الدر ١٧٩/٣ وعزاه لابن اسحاق وابن جرير وابن المنذر ، وابن أبى حاتم وأبى نعيم والبيهقى معا فى الدلائل .

الهجرة ، إلى بيت أبى بكر الصديق .

يوضح لك هذا حديثا ابن عباس (أحدهما تقدم قبل هذا مباشرة ، والآخر سبق فى أسباب الهجرة فى الكلام على السبب الثالث) وأيضاً حديث محمد بن كعب القرظى .

عن محمد بن كعب القرظى قال : لما اجتمعوا له ، وفيهم أبو جهل بن هشام : فقال وهم على بابه : إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره ، كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بُعثتم من بعد موتكم ، فجُعلت لكم جنان كجنان الأردن ، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ، ثم بعثتم من بعد موتكم ، ثم جعلت لكم نار تُحرقون فيها . قال : وخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ حفنة من تراب فى يده ثم قال أنا أقول ذلك ، أنت أحدهم . وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه ، فلا يرونه ، فجعل ينثر ذلك التراب على رءوسهم وهو يتلو هؤلاء الآيات من يس : « يس والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين .على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم » . . . إلى قوله « فأغشيناهم فهم لا يبصرون » حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من هؤلاء الآيات ، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب ، فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم ، فقال : ما تنتظرون هاهنا ؟ قالوا : محمداً ، قال : خيبكم الله ! قد والله خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك منكم رجلا إلا وقد وضع على رأسه تراباً ، وانطلق لحاجته ، أفما ترون مابكم ؟ قال : فوضع كل رجل منهم يده على رأسه ، فاذا عليه تراب ، ثم جعلوا يتطلعون فيرون عليا على الفراش متسجياً ببرد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقولون : والله إن هذا لمحمد نائماً ، عليه برده ، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا فقام على رضى الله عنه عن الفراش فقالوا : والله لقد كان صدقنا الذى حدثنا[1].

(١) أخرجه ابن إسحاق بإسناده ، نقله ابن هشام صـ ٤٨٣، وذكره ابن كثير فى السيرة ٢/ ٢٣٠ وذكره فى الدر ٥/ ٢٥٨، وعزاه لابن إسحاق وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبى نعيم.

وحديث ابن عباس الذى فيه تشاورهم فى دار الندوه ومعهم إبليس عليه اللعنة يدل على أنهم كانوا قد خططوا لاقتحام داره عليه صلى الله عليه وسلم . ولفظه «فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبوا عليه » وحديثه - أى ابن عباس - الذى تقدم فى صدر الموضوع والذى فيه الكلام عن نسج العنكبوت فيه أنهم لم يقتحموا ، وانما انتظروا خروجه صلى الله عليه وسلم حتى أصبح الصباح .

وهنا سؤال لِمَ لَمْ يقتحموا عليه بيته صلى الله عليه وسلم ، وهم الذين قد عزموا على قتله ؟ وقد أجاب السهيلى عن هذا السؤال نقلا فقال : وذكر بعض أهل التفسير السبب المانع لهم من التقحم عليه فى الدار مع قصر الجدار وأنهم إنما جاءوا لقتله ، فذكر فى الخبر أنهم هموا بالولوج عليه فصاحت امرأة من الدار ، فقال بعضهم لبعض والله إنها لسبة فى العرب أن يتحدث عنا أنا تسورنا الحيطان على بنات العم ، وهتكنا ستر حرمتنا ، فهذا هو الذى أقامهم بالباب . أصبحوا ينتظرون خروجه ، ثم طمست أبصارهم على من خرج .

والأمر - فى رأيى - لا يحتاج الى صياح امرأة ، فإن الله الذى أخرجه من وسطهم - وفُتح الباب وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضع التراب على رؤوسهم ، كل ذلك وهم لا يشعرون - هو سبحانه الذى منعهم من اقتحام بيته صلى الله عليه وسلم . إلا إذا ثبت الخبر .

ووصل صلى الله عليه وسلم دار أبى بكر ، وعلى عجل خرجا إلى الغار ، وكان فى خروجهما كثير من التستر ، نلمح هذا من خروجهما من خوخة فى ظهر بيت أبى بكر ، والتى ما كان الخروج منها إلا بجهد .

عن مارية قالت : طأطأت لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد حائطاً ليلة فر من المشركين »[1].

(١) ذكره فى المجمع ٦/ ٥٢ وقال :رواه الطبرانى وفيه من لم أعرفه .

أما المشركون فظلوا إلى الصباح ينتظرون خروجه صلى الله عليه وسلم ، وكلما نظروا فوجدوا نائماً ظنوه هو صلى الله عليه وسلم ، فلما تبين لهم أن النائم هو على بن أبى طالب جن جنونهم ، وعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خرج من مكة وتركهم فراحوا يبحثون عنه .

توديع مكة :

وقبل أن يبتعد صلى الله عليه وسلم عن مكة كثيراً نظر اليها وودعها بكلمات تنم عن حبه الجم لمكة ، حب نبع من معرفته بحب الله لها . فإن كل هدفه أن يعيش فيما يحب الله . يبين كل هذه المعانى ما أسوقه من نصوص .

« عن عبد الله بن عدى بن الحمراء رضى الله عنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفاً على الحَزْوَرَةِ وهو يقول : والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله الى الله ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت »[1].

والحزورة بوزن القسورة ، وبعضهم شدد الواو - موضع بمكة .

« عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم لمكة : ما أطيبك من بلد وأحبك إلىَّ ولولا أن قومى أخرجونى منك ما سكنت غيرك »[2].

توديع الكعبة :-

وكان للكعبة توديع خاص ، فلقد كان المشركون قد نصبوا عليها صنمهم الأكبر وكان من نحاس ، وكان موتدا بأوتاد من حديد إلى الأرض ، فلم يترك صلى الله عليه وسلم الكعبة على حالها هذه ، وإنما ذهب إليها فى الليلة التى سيخرج من

---

(١) أخرجه الترمذى وقال : حسن غريب صحيح . تحفه ١٠/٤٢٦ وهو فى ابن ماجه رقم ٣١٠٨ .

(٢) أخرجه الترمذى وقال :- حسن غريب صحيح، من هذا الوجه راجع التحفة ١٠/٤٢٧ . ٤٢٨ .

مكة فيها مهاجراً - ومعه على بن أبى طالب - ابن عمه صلى الله عليه وسلم - وتعاونا فى إنزال هذا الصنم من على ظهر البيت وتكسيره ، وهو صلى الله عليه وسلم يردد « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » .

وسبحان الله ففى آخر أوقاته بمكة يكسر الصنم الذى فوق الكعبة مردداً « جاء الحق وزهق الباطل » وتمر الأيام ويفتح الله مكة للمسلمين فيحطم صلى الله عليه وسلم كل ما حولهم من أصنام قارئا نفس الآية .

عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : انطلق بى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى بى الكعبة فقال لى اجلس فجلست إلى جنب الكعبة فصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبى ثم قال لى انهض فنهضت فلما رأى ضعفى تحته قال لى اجلس فنزلت وجلست [1] ثم قال لى يا على اصعد على منكبى فصعدت على منكبيه ثم نهض بى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما نهض بى خُيل إلىّ لو شئت نلت أفق السماء فصعدت فوق الكعبة وتنحى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لى ألق صنمهم الأكبر صنم قريش وكان من نحاس موتداً بأوتاد من حديد إلى الارض فقال لى رسول الله صلي الله عليه وسلم : عالجه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لى إيه إيه « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » فلم أزل أعالجه حتى استمكنت منه فقال : اقذفه ، فقذفته فتكسر وترديت من فوق الكعبة فانطلقت أنا والنبى صلى الله عليه وسلم نسعى وخشينا أن يرانا أحد من قريش وغيرهم ، قال على فما صُعد به حتى الساعة [2]

---

(١) هكذا فى نسخة المستدرك المطبوعة ٣٦٦/٢ وتصحيحها حسب المعنى المفهوم منها ومن الرواية الثانية « فنزل وجلس » .

(٢) اخرجه الحاكم من اكثر من طريق فى مستدركه جـ ٢ صـ ٣٦٦ - ٣٦٧ وجـ ٣ صـ ٥ وقال هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه . وتعقبه الذهبى بقوله : قلت اسناده نظيف والمتن منكر وأخرجه أحمد فى مسنده وعبد الله فى زوائده على المسند . الفتح الربانى ٢٢٤/٢٠ ونقل صاحب الفتح الربانى عن مجمع الزوائد رواه أحمد وابنه وأبو يعلى والبزار . . . ورجال الجميع ثقات .

الرسول صلى الله عليه وسلم وأبوبكر فى الغار :-

وسار صلى الله عليه وسلم وصاحبه إلى الغار المتفق على الاختباء فيه ، وأثناء سيرهما أبدى أبو بكر من الحرص على سلامة رسول صلى الله عليه وسلم مايؤكد أهليته لأن يلقب بالصديق ، فكان يمشى أمام الرسول حيناً ، وخلفه حيناً حذراً واحتياطاً ، فهو يخشى أن يكون فى الطريق من يترصدهما ، كما أنه يخشى أن يدركهما من يطلبهما .

ووصلا الغار فطلب أبو بكر من رسول صلى الله عليه وسلم أن ينتظر حتى يدخل هو الغار ينظر مافيه ، وذلك من باب الحرص على سلامة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلربما كان فى الغار حيوان مؤذ ، أو فتاك ، فإن كان الأمر كذلك فإن أبا بكر جعل نفسه فداء لرسول صلى الله عليه وسلم .

عن ابن أبى مليكة أن النبى صلى الله عليه وسلم لما خرج هو وأبو بكر إلى ثور فجعل أبو بكر يكون أمام النبي صلي الله عليه وسلم مرة ، وخلفه مرة ، فسأله النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : إذا كنت خلفك خشيتُ أن تؤتى من أمامك ، وإذا كنت أمامك خشيت أن تؤتى من خلفك . حتى إذا انتهيا[(١)] إلى الغار من ثور ، قال أبو بكر : كما أنت حتى أدخل يدى فأحسه وأقصه ، فإن كانت فيه دابة أصابتنى قبلك . قال نافع[(٢)] : فبلغنى أنه كان فى الغار جحر فألقم أبو بكر رجله ذلك الجحر تخوفاً أن تخرج منه دابة أو شىء يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم[(٣)] .

---

(١) فى الأصل انتهى .

(٢) هو نافع بن عمر الجمحى الراوى عن ابن أبى مليكة .

(٣) ذكره ابن كثير فى السيرة ٢٣٧/٢ وعزاه لأبى القاسم البغوى . وقال : وهذا مرسل وقد ذكرنا له شواهد أخرى فى سيرة الصديق رضى الله عنه، وأشار الحافظ فى الفتح ٧ / ٢٣٧ لهذا الحديث .

وعن محمد بن سيرين قال : ذكر رجال على عهد عمر ، فكأنهم فضلوا عمر على أبى بكر فبلغ ذلك عمر فقال : والله لليلة من أبى بكر خير من آل عمر وليوم من أبى بكر خير من آل عمر :

لقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة انطلق إلى الغار ومعه أبو بكر فجعل يمشى ساعة بين يديه وساعة خلفه حتى فطن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا أبا بكر ، مالك تمشى ساعة خلفى وساعة بين يدى ؟ ، فقال : يا رسول الله أذكر الطلب فأمشى خلفك ، ثم أذكر الرصد فأمشى بين يديك . فقال : يا أبا بكر لو كان شىء لأحببت أن يكون بك دونى ؟ قال : نعم و الذى بعثك بالحق .

فلما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر : مكانك يارسول الله حتى أستبرىء لك الغار فدخل فاستبرأه ، حتى إذا ذكر أنه لم يستبرىء الحجرة فقال : مكانك يارسول الله حتى أستبرىء ، فدخل فاستبرأ ثم قال : انزل يارسول الله ، فنزل . .

ثم قال عمر : والذى نفسى بيده لتلك الليلة خير من آل عمر[(١)(٢)].

أخرج الطبرانى عن على أنه كان يحلف أن الله أنزل اسم أبى بكر من السماء « الصديق »[(٣)].

وأخرج البخارى عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن أمنّ الناس علىّ فى صحبته وماله أبو بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربى لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن أخوة الإسلام ومودته[(٤)].

---

(١) وهذان الحديثان مع ما فى موضوعهما يثبتون جدارة أبى بكر بماحظى به من منزلة .

(٢) أخرجه فى المستدرك ٣/٦ وقال : صحيح الإسناد على شرط الشيخين لولا ارسال فيه وذكره ابن كثير فى السيرة ٢/٢٣٧، ٢٣٨ نقلاً عن البيهقى فى الدلائل ، وذكره فى الفتح ٧/٢٣٧ بشىء من المغايرة.

(٣) ذكره فى الفتح ٧/٩ وعزاه للطبرانى ورجاله ثقات .

(٤) فتح ٧/١٢ رقم ٣٦٥٤.

وأسأل الله الكريم الله أن أوفق لذكر بعض مناقب أبى بكر عند ذكر مناقب بعض المهاجرين والأنصار .

وفى صباح ليلة تآمر قريش ، وتخطيطها لقتل الرسول صلى الله عليه وسلم ، صدمت قريش بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد خرج من مكة وتركها ، ومعه صاحبه أبو بكر !!

وراحت قريش تبحث عنه صلى الله عليه وسلم وانتشروا فى كل أنحاء مكة وأرجائها ، يستعينون بكل حيلة ويسلكون كل مسلك ، وهم الذين فيهم أهل المعرفة بالأثر ، وفيهم الفرسان أصحاب السرعة الزائدة . ويبحثون ويجدون في بحثهم ، حتى وصلوا إلى الغار !! واضطرب الصديق !! فهو يعرف أن المشركين لو عثروا عليهم لقتلوهم ، والصديق لا يحرص على حياة نفسه ، فإنه إن قتل ففرد من الأمة ، وإنما يحرص على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لو قتل لماتت الدعوة فإنها مازالت فى طور التكوين .

وكاشف الصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يدور فى خاطره قائلاً : يارسول الله لو نظر أحدهم الى أسفل لأبصرنا . إنه يريد أن يقول له أوشك أمرنا أن ينكشف ، فبين لحظة وأخرى ، أو حركة وأخرى سننكشف .

والرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم لم يرعه ذلك ، ولم يشغله فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مصلياً ، ومن عادته صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر أو أهمه خطب فزع إلى الصلاة . فيطمئن الصديق ." إن الله معنا " ومن كان الله معه فهو مرحوم منصور ، مكرم مستور، فلا خطب ولا كرب ، وإنما نعم وعطاء .

عن ابن عباس - رضى الله عنهما في قوله تعالى « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك » قال : تشاورت قريش ليلة بمكة : فقال بعضهم : إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق يريدون النبى صلى الله وعليه وسلم وقال بعضهم : بل اقتلوه . وقال

بعضهم بل أخرجوه . فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك ، فبات عليٌّ على فراش النبى صلى الله عليه وسلم تلك الليلة ، وخرج النبى صلى الله عليه وسلم حتى لحق بالغار ، وبات المشركون يحرسون علياً يحسبونه النبى صلى الله عليه وسلم . فلما أصبحوا ثاروا عليه ، فلما رأوا عليا رد الله عليهم مكرهم فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ فقال : لا أدرى . فاقتفوا أثره ، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم ، فصعدوا الجبل فمروا بالغار ، فرأوا على بابه نسج العنكبوت . فقالوا : لو دخل ها هنا أحد لم يكن نسج العنكبوت على بابه فمكث فيه ثلاث ليال(١).

«عن أبى بكر رضى الله عنه قال : قلت للنبى صلى الله عليه وسلم وأنا فى الغار : لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا . فقال : ماظنك ياأبا بكر باثنين الله ثالثهما »(٢).

عن أبى بكر رضى الله عنه قال : كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الغار فرفعت رأسى فإذا أنا بأقدام القوم ، فقلت : يانبى الله لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا . قال : اسكت يا أبا بكر ، اثنان الله ثالثهما »(٣).

عن الحسن البصرى قال : انطلق النبى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر إلى الغار، وجاءت قريش يطلبون النبى صلى الله عليه وسلم وكانوا إذا رأوا على باب الغار نسج العنكبوت قالوا : لم يدخل أحد وكان النبى صلى الله عليه وسلم قائماً يصلى وأبو بكر يرتقب فقال أبو بكر للنبى صلى الله عليه وسلم : هؤلاء قومك يطلبونك ، أما والله ما على نفسى أئِلُ ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره . فقال

---

(١) ذكره فى الدر ١٧٩/٣ وعزاه لعبد الرزاق وأحمد، وعبد بن حميد وابن المنذر والطبرانى وأخرين. وذكره فى الفتح ٢٣٦/٧ وعزاه لأحمد بإسناد حسن

(٢) أخرجه البخارى فتح ٨/٧ رقم ٣٦٥٣ .

(٣) أخرجه البخارى فتح ٢٥٧/٧ رقم ٣٩٢٢

له النبى صلى الله عليه وسلم : يا أبا بكر لا تخف إن الله معنا[1].

ويصور القرآن الكريم حال الرسول صلي الله عليه وسلم وصاحبه وهما في الغار في قوله تعالى : « إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا »[2].

وورد أن شجرة أنبتها الله على فم الغار تستر رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه ، وأن حمامتين وحشيتين عششتا على الغار ، كل ذلك من العنكبوت والشجرة والحمام من باب العناية الإلهية المحسوسة برسوله صلى الله عليه وسلم .

عن أبى مصعب المكى قال : أدركت زيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة وأنس بن مالك يذكرون النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الغار أمر الله شجرة فخرجت فى وجه النبى صلى الله عليه وسلم تستره وأن الله بعث العنكبوت فنسجت مابينهما فسترت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمر الله حمامتين وحشيتين فأقبلتا تدفان حتى وقعتا بين العنكبوت وبين الشجرة ، وأقبلت فتيان قريش من كل بطن منهم رجل ، معهم أعصيهم وقسيهم وهراواتهم حتى إذا كانوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم قدر مائتى ذراع قال الدليل وهو سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى :هذا الجحر ثم لا أدرى أين وضع رجله . فقال الفتيان : أنت لم تخطىء منذ الليلة ، حتى إذا أصبحوا قال : انظروا فى الغار فاستبقه القوم حتى

---

(١) ذكره ابن كثير فى السيرة ٢٣٩/٢ وعزاه الى ابى بكر القاضى فى مسند أبى بكر . وقال : هذا مرسل عن الحسن ، وهو حسن بماله من الشواهد .

(٢) التوبة آيه ٤٠.

إذا كان من النبى صلى الله عليه وسلم قدر خمسين ذراعاً ، فإذا الحمامتان فرجع فقالوا : ماردك أن تنظر فى الغار قال : رأيت حمامتين وحشيتين بفم الغار، فعرفت أن ليس فيه أحد ، فسمعها النبى صلى الله عليه وسلم فعرف أن الله قد درأ عنهما بهما فسمت عليهما أى برك عليهما ، وأحدرهما الله إلى الحرم فأفرخا كما ترى[1] .

وواضح من هذا الحديث أن القائف كان سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى - وسيأتى ماكان منه من البحث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإدراكه - .

قال الحافظ (فتح ٢٣٦/٧) : وذكر الواقدى أن قريشاً بعثوا فى أثرهما قائفين : أحدهما كرز بن علقمة ، فرأى كرز بن علقمة على الغار نسج العنكبوت فقال : ههنا انقطع الأثر . ولم يسم الآخر وسماه أبو نعيم فى الدلائل من حديث زيد بن أرقم وغيره سراقة بن جعشم .

وقد سبق (عند الكلام على الترتيب للهجرة) بيان الدور الذى كان يقوم به عبد الله بن أبى بكر ، وعامر بن فهيرة .

وهكذا بذل مشركو مكة كل ما فى وسعهم للوصول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإظهاراً لقدرة الله سبحانه ونصرته للحق ، شاء أن يكون الرسول أمام أعينهم بينهم وبينه أقل من مسافة البصر ، ومع ذلك لم يروه ، ولم يستطيعوا النيل منه «وربك على كل شىء حفيظ »

---

(١) ذكره فى المجمع ٥٢/٦ ،٥٣ وقال : رواه البزاوالطبرانى، وفيه جماعة لم أعرفهم، وذكره ابن كثير فى السيرة ٢/ ٢٤٠ وعزاه لابن عساكر، وذكر أسناده وقال :وهذا حديث غريب جداً من هذا الوجه ، وعزاه لأبى نعيم أيضاً وذكره فى الخصائص ١/ ٤٦٠ وعزاه لابن سعد وابن مردويه والبيهقى وأبى نعيم .

ولم يكن الستر مقصوراً على العنكبوت والحمامتين والشجرة ، وإنما أمر الله سبحانه وتعالى ملائكته أن تستر نبيه وصاحبه عن أعين المشركين ، فكان صلى الله عليه وسلم وصاحبه يريان المشركين ، والمشركون لا يرونهما .

عن أسماء بنت أبى بكر « . . . وطافوا فى جبال مكة حتى انتهوا إلى الجبل الذى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر : يا رسول الله إن هذا الرجل يرانا - وكان مواجهه - فقال : كلا إن ملائكة تسترنا بأجنحتها فجلس ذلك الرجل يبول مواجهة الغار ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لو كان يرانا ما فعل هذا »[1].

من الغار إلى المدينة المنورة :-

وبعد أن أمضيا ثلاث ليال فى الغار ، وخف الطلب عنهما ، جاء الدليل - عبد الله بن أريقط - ومعه الراحلتان وكان عامر بن فهيرة حاضراً ،وبدأ الجميع رحلتهم المباركة إلى المدينة المنورة .ويمكن إبراز أحداث هذه الرحلة المباركة فى نقاط :-

١- حال قافلة الهجرة :-

فلقد بدأوا رحلتهم وحال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر كما كان فى الغار ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مطمئناً ، ولذا كان لا يلتفت ، أما أبو بكر فإن شدة خوفه على رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلته يكثر الالتفات .

(ولذا جاء فى حديث سراقة - الذى تقدم - وهو يصف حال النبى والصديق «حتى إذا سمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت، وأبو بكر

(١) ذكره فى الفتح ٧/ ٢٤٠ ، ٢٤١ وعزاه للطبرانى، وذكره فى المجمع ٦/ ٥٤ وقال : رواه الطبرانى وفيه يعقوب، بن حميد بن كاسب وثقه ابن حبان وغيره ، وضعفه، أبو حاتم وغيره ، وبقية رجاله رجال الصحيح .

يكثر الالتفات » والمراد بقراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاؤه ، وقد جاء موضحاً فى حديث أنس عند البخارى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم اصرعه ؛ فصرعه الفرس »[1].

وجاء فى حديث البراء - الذى سيأتى إن شاء الله تعالى - « وقلت له : نم يا رسول الله ، وأناأنفض لك ما حولك ، فنام ، وخرجت أنفض ما حوله » ومعنى « أنفض لك ما حولك » أى أنفضه من الغبار بنحو ذلك حتى لا يثيره عليه الريح. وقيل معنى النفض هنا الحراسة يقال :نفضت المكان إذا نظرت جميع ما فيه ، ويؤيده قوله فى رواية إسرائيل « ثم انطلقت أنظر ما حولى هل أرى من الطلب أحداً » قاله الحافظ فى الفتح ٦٢٣/٦ . قلت : وأيضاً نفض الغبار فى الصحراء لا يتأتى ، والمعنى عليه بعيد . وأيضاً فقول أبى بكر « وخرجت أنفض ما حوله فإذا أنا براع » يؤيد أن النفض هنا معناه الحراسة ، إذ على الأول لا يصح قوله « وخرجت » وكونه رأى الراعى مما يدل على أنه كان ينظر ما حولهم .

وفى هذه الرحلة كان أبو بكر نعم العون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو حارس يقظ ، وهو خبير بالأسفار ويعرف كيف يهيىء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما يريحه ، وكيف يعد الطعام اللائق والشراب اللائق ، أما كونه حارساً يقظاً فيتضح من كونه كان يكثر الالتفات - كما فى حديث سراقة - ويرقب الطرق المؤدية إليهم - كما فى حديث البراء - أما كونه خبيراً بالأسفار فيظهر هذا من لجوئه إلى ظل صخرة ، قد أراد الراعى منها نفس الشىء ومع أن العادة فى الرعاة أنهم أهل دراية بأماكن رعيهم ، فإن الراعى قد رام هذه الصخرة ، مما يدل على أنها أفضل مكان ، وأنسب مقيل فى هذه المنطقة ، وقد أرادها أبو بكر -

(١) فتح ٢٤٩/٧ .

وهو الذى لم يألف المكان كالراعى - لمقيلهم فى ظلها . فدل على خبرته ودرايته بالطرق والأسفار .

جاء فى حديث البراءً . . « فرفعت لنا صخرة طويلة لها ظل لم تأت عليه الشمس فنزلنا عنده . . . فإذا أنا براع مقبل بغنمه الى الصخرة يريد منها مثل الذى أردنا » .

وأما كونه كان يعرف كيف يهىء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما يريحه فيتضح هذا من كونه كان يعد له صلى الله عليه وسلم مكانا يناسب الراحة ، وكان قد أخذ معه ما يساعد على راحة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكان قد حمل فروة يفرشها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو يبسطها عليه إذا نام ، وحمل إداوة للنبى صلى الله عليه وسلم يشرب منها ويتوضأ ، وإذا نام رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لا يوقظه .

وفى حديث البراء « وسويت للنبى صلى الله عليه وسلم مكانا بيدى ينام عليه، وبسطت عليه فروة ... ومعى اداوة حملتها للنبى صلى الله عليه وسلم يرتوى منها يشرب ويتوضأ، فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فكرهت أن أوقظه . . . » .

أما كونه كان يعرف كيف يعد الطعام اللائق والشراب اللائق فنجد هذا واضحاً من محافظته على برودة الماء فى الإداوة ، ولم يقدم اللبن لرسول الله صلى الله عليه وسلم الا بعد برده بواسطة هذا الماء البارد . وعندما طلب الحلب من الراعى أمره بما يجعل اللبن نظيفاً ، وكل هذا يدل على كفاءة الرجل مع حرص على مصلحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعظيم التقدير والإجلال .

فى حديث البراء « فقلت - أى للراعى - انفض الضَّرع من التراب والشعر والقذى » وفى رواية أخرى عند البخارى أيضاً (٩٣/٥) « ثم أمرته أن ينفض

كفيه فقال هكذا - ضرب إحدى كفيه بالأخرى - فحلب كثبة [1] من لبن وقد جعلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم إداوة ، على فيها خرقة ، فصببت على اللبن حتى برد أسفله »

- أما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر فكان يقوم بخدمتهما وفى رواية موسى بن عقبة « . . . عامر بن فهيرة يخدمهما ويعينهما يردفه أبو بكر خلفه ويعقبه ليس معهما غيره » وفيها أيضاً « وكان عامر أمينا مؤتمناً حسن الإسلام »[2].

وفى حديث عروة عند الطبرانى « وانطلقا معهما بعامر بن فهيرة يحديهما ويخدمهما ، ويعينهما »[3].

واذا كان الصديق قد قام على راحة رسول الله صلى الله عليه وسلم خير قيام ، يساعده فى ذلك مولاه عامر بن فهيرة فما أدق أم معبد ، وما أشد ذكاءها وهى تصف رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه فتقول « له رفقاء يحفون به ، إن قال أنصتوا له ، وإن أمر تبادروا إلى أمره ، محفود محشود »[4].

٢- موقف المشركين :

أما المشركون فراحوا يبحثون عن حيلة للوصول إلى هدفهم - إدراك محمد صلى الله عليه وسلم . والإتيان به حيا أو ميتا - وجعلوا فى ذلك المكافآت المغرية لقد جعلوا لمن يحضره صلى الله عليه وسلم مائة ناقة وكذا فى صاحبه أبى بكر .

وكان هذا القدر من المال مغريا جعل الكثير يحرص عليه ، ويخدع أحدهما الآخر رجاء أن يكون هو الفائز . وراح كل من عنده قدرة يستنفد قدرته فى هذا

---

(١) بضم الكاف وسكون المثلثة وفتح الموحدة أى قدر قدح . وقيل حلبة خفيفة .

(٢) ذكره فى الفتح ٧/٢٣٧ ، ٢٣٨ .

(٣) رواه الطبرانى مرسلا وفيه ابن لهيعه وفيه كلام، وحديثه حسن مجمع ٦/٥١ . ٥٢ .

(٤)أى يخف الناس لخدمته : لأنه مطاع فيهم . وسيأتى حديث أم معبدإن شاء الله تعالى .

الموضوع وكان الأمر عاما والمكافأة لأى شخص يأتى بهما أو بأحدهما ، سواء كان هذا الذى يأتى بهما قرشياً أو غير قرشى ، فإن قريشاً أشاعت الأمر وأذاعته . خاصة فى أصحاب المياه .

ويبدو أن هذا الرأى لم يأخذ وقتا للتفكير فيه ، فلم يجتمعوا فى دار الندوة ، كما اجتمعوا للتشاور فى طريق الخلاص من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولعل السر فى هذا أنه قريب من الرأى المتفق عليه فى دار الندوة فإنهم فى دار الندوة اتفقوا على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ودفع الدية ، وهم الآن وبعد أن خرج من بين أظهرهم يجعلون نفس القدر لمن قتله أو أسره ، وكأن الحال الثانية نظراً لخروجه من بين أظهرهم .

ولقد سجلت السنة موقف رجل من هؤلاء الباحثين ، ولعل السر فى هذا أنه حظى فعلاً بالعثور على طلبه ، فوصل إلى قافلة الهجرة المباركة ، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه ، وهذا الرجل اسمه سراقة بن مالك بن جعشم - بضم الجيم والشين المعجمة بينهما عين مهملة - المدلجى - بضم الميم وسكون الدال المهملة وكسر اللام ثم جيم - وكنيته أبو سفيان .

وسأسوق حديث البخارى فى هذا ليبين ما كان من الرجل ؛ وكيف أنه عَمّى على قومه رجاء التفرد بالجائزة ، وما كان له حينما اقترب منهما من غوص يدى فرسه فى الأرض حتى الركبتين ، وتودده لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليقينه من حبس فرسه هذا أن دين الاسلام سيظهره الله ، وأن رسول الله على حق ، ولقد وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرد القوم فوفى بما وعد . ولذا قال حينما لامه أبو جهل على ترك الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومَنْ معه :

أبا حكم واللات لوكنت شاهداً ... لأمر جوادى إذ تسيخ قوائمه
عجبت ولم تشكك بأن محمداً ... نبى وبرهان فمن ذا يكاتمه

عن سراقة بن جُعشُم أنه قال : جاءنا رسل كفار قريش يجعلون فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر دية كل واحد منهما [1] لمن قتله أو أسره فبينما أنا جالس فى مجلس من مجالس قومى بنى مدلج إذا أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال : يا سراقة ، إنى قد رأيت آنفاً [2] أسودة [3] بالساحل أراها محمداً وأصحابه . قال سراقة : فعرفت أنهم هم، فقلت له : إنهم ليسوا بهم ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا ، ثم لبثت فى المجلس ساعة [4] ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتى أن تخرج بفرسى - وهى من وراء أكمة - فتحبسها علىَّ وأخذت رمحى فخرجت به من ظهر البيت فخططت بُزجّه [5] الأرض وخفضت عاليها [6] حتى أتيت فرسى فركبتها ، فرفعتها [7] تقرب بى [8] ، حتى دنوت منهم ، فعثرت بى فرسى فخررت عنها ، فقمت فأهويت يدى [9] إلى كنانتى فاستخرجت منها الأزلام ، فاستقسمت بها : أضرهم أم لا ؟ فخرج الذى أكره ، فركبت فرسى - وعصيت الأزلام - تقرب بى حتى إذا سمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات ساخت [10] يدا فرسى فى الأرض حتى بلغتا الركبتين ، فخررت عنها ، ثم زجرتها ، فنهضت فلم تكد تخرج يديها ، فلما استوت قائمة إذ لأثر يديها عثان ساطع فى السماء مثل الدخان ، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذى أكره فناديتهم بالأمان ، فوقفوا ، فركبت

---

(١) والدية مائة من الإبل . وفى حديث أسماء بنت أبى بكر عند الطبرانى - الذى تقدم جزء منه فى الأصل - وجعلوا فى النبى صلى الله عليه وسلم مائة ناقة .
(٢) أى فى هذه الساعة .
(٣) أشخاصاً .
(٤) جزءاً من الوقت .
(٥) الزُج - بضم الزاى بعدها جيم - الحديدة التى فى أسفل الرمح .
(٦) يريد أنه أمسكه بيده وجر زجه على الأرض فخطها به لئلا يظهر بريقه لمن بعد منه .
(٧) أى أسرعت بها السير .
(٨) التقريب : السير دون العدو وفوق العادة . وقيل أن ترفع الفرس يديها معا وتضعهما معاً .
(٩) أى بسطهما للأخذ .
(١٠) غاصت .

فرسي حتى جئتهم ، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له : إن قومك قد جعلوا فيك الدية ، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم وعرضت عليهم الزاد والمتاع ، فلم يرزآني[1] ولم يسألاني إلا أن قال : أخف عنا . فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أدم ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم[2].

عن ابن إسحاق قال : فلما انطلق سراقة راجعاً من طلب النبي صلى الله عليه وسلم وطلب أبي بكر « جعل يذكر ما رأى من الفَرَس ويذكر ما أصابه من الجهد في طلبهما ، فسمع أبو جهل بذلك ، فخشي أن يسلم حين رأى ما رأى فقال في ذلك أبياتاً :-

بني مدلج إن أخاكم سفيهكم ... سراقة يستغوى لنصرِ محمدِ
عليكم به أن لا يفرق جمعكُمْ ... فيصبح شتى بعد عز وسؤددِ
يظن سفيه الحي أن جاء سهمه ... على واضح من سنة الحق مهتدى
وأني يكون الحق ما قال إذ غدا ... ولم يأت بالحق المبين السوددِ
ولكنه ولى غريباً بسخطه ... إلى يثرب منا فيا بُعد مولدِ
ولو أنه لم يأت يثرب هارباً ... لأسحاه وقع المشرفيِّ المهندِ

فأجابه سراقة فيما قال ، فقال :

أبا حكمٍ والله لو كنت شاهداً ... لأمر جوادي إذ تسيخ قوائمُهْ
عجبت ولم تشكك بأن محمداً ... أتانا ببرهان فمن ذا يكاتمه
عليك بكف القوم عنه فإنني ... أرى أمره يوماً يشيدُ معالمه
بأمرٍ يسود الناس فيه بأسرهم ... لو ان جميع الناس طراً يسالمه[3]

---

(١) أي لم ينقصاني مما معي شيئاً .

(٢) أخرجه البخاري . فتح ٧/٢٣٨ .

(٣) ذكره في المطالب ٤/٢٠٦ عن اسحاق بن راهويه.وفي دلائل أبي نعيم ٢/٣٣٦ . وإتحاف الورى ١/٣٨٩ .

٣- حاجتهما من الغذاء وغيره :

وخرجا من الغار والليل مازال مخيماً على مكة ، وسار الجميع ما بين من مهمته معرفة الطريق ، ومن مهمته الحراسة ،ومن مهمته الخدمة ، ومكثوا سائرين حتى اشتد الحر ، وأصبحت الراحة مطلوبة ، استظلوا فى ظل صخرة مستطيلة ، وإذ براع يريد أن يستظل بها أيضاً ، فأصبحت الأغنام أمامهم ، وهم فى حاجة الى مايغذيهم ، وتساءل أبو بكر مع الراعى ، لمن أنت ؟ فأخبره بأنه لفلان ذكر رجلاً من قريش عرفه أبو بكر . ثم تساءل ثانياً أمعك إذن بالحلب لمن يمر عليك على سبيل الضيافة ؟ وأجاب الراعى نعم .

فطلب أبو بكر منه أن يحلب ، وبيّن الطريقة الصحيحة فى الحلب : فلينفض يده أولاً ، ثم لينفض الضرع ، ثم ليحلب ، وامتثل الراعى . وأخذ أبو بكر اللبن فبرده ، وأراد أن يقدمه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لكنه كان قد نام صلى الله عليه وسلم ، فانتظر أبو بكر حتى استيقظ صلى الله عليه وسلم فقدم أبو بكر له اللبن فشرب صلى الله عليه وسلم بإمعان على غير عادته ، مما أرضى أبا بكر.

عن البراء بن عازب أن أباه سأل أبا بكر فقال له : يا أبا بكر حدثنى كيف صنعتما حين سريت (١) مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال نعم ، أسرينا ليلتنا (٢) ومن الغد (٣) حتى قام قائم الظهيرة (٤) وخلا الطريق لا يمر فيه أحد فرفعت (٥) لنا صخرة طويلة لها ظل لم تأت عليه الشمس فنزلنا عنده وسويت للنبى صلى الله عليه وسلم مكاناً بيدى ينام عليه ، وبسطت عليه فروة وقلت له :

---

(١) يقال : سريت . وأسريت إذا سرت ليلاً .

(٢) أى بعضها ، بعد خروجنا من الغار .

(٣) أى ومن يومها .

(٤) أى نصف النهار ، وسمي قائما لأن الظل لا يظهر حينئذ فكأنه واقف .

(٥) ظهرت

نم يارسول الله وأنا أنفض لك ماحولك (١) . فنام . وخرجت أنفض ماحوله ، فإذا أنا براع مقبل بغنمه إلي الصخرة يريد منها مثل الذى أردنا ، فقلت : لم أنت ياغلام ؟ فقال : لرجل من أهل المدينة - أومكة (٢)- قلت : أفى غنمك لبن ؟ قال : نعم . قلت أفتحلب ؟ قال : نعم . فأخذ شاة فقلت : انفض الضرع من التراب والشعر والقذى . قال فرأيت البراء يضرب إحدى يديه علي الأخرى ينفض فحلب فى قعب كثبة (٣) من لبن ، ومعى إداوة حملتها للنبي صلى الله عليه وسلم يرتوى منها يشرب ويتوضأ ، فأتيت النبى صلي الله عليه وسلم فكرهت أن أوقظه ، فوافقته حين استيقظ ، فصببت من الماء على اللبن حتى برد أسفله ، فقلت اشرب يا رسول الله ، فشرب حتي رضيت ، ثم قال : ألم يأن للرحيل ؟ قلت : بلى . قال فارتحلنا بعد ما مالت الشمس(٤).

وأخذهما اللبن من هذا الراعى لا يعترض عليه بأن يقال كيف استجاز أبو بكر أخذ اللبن من الراعى بغير إذن المالك . لا يعترض بهذا لأنه كما قدمت - سأله «أفتحلب ؟ قال نعم » والمراد بهذا الاستفهام أمعك إذن في الحلب لمن يمر بك على سبيل الضيافة ؟ فأجاب الراعى : نعم ، أي معى إذن بهذا(٥).

ولا يصح أن يكون الاستفهام عن معرفته بالحلب ، لأن هذا فى الراعى ثابت ،

---

(١) أراقب الطرق الموصلة إلينا - كما تقدم - .

(٢) شك أحمد بن يزيد أحد الرواة - أى اللفظتين سمع . وهذا الشك غير مؤثر فى المعنى ، إذ المعنى واحد فالمراد بالمدينة مكة أيضاً إذ هى مدينة ، ولا يصح أن يراد مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم لأنها لم تكن سميت بعد بالمدينة وقد جاء فى رواية « فقال الرجل من قريش سماه فعرفته والقرشيون ماكانوا يسكنون المدينة النبوية ، ثم أنهم قابلوا الراعى بعد وقت قليل من السير فكانوا قريبين من مكة ، ولم تجر العادة أن راعياً من المدينة يظل يرعى حتى يقترب بغنمه من مكة . وراجع الفتح ٦٢٢/٦ رقم ٣٦١٥ الشرح

(٣) بضم الكاف وسكون المثلثة وفتح الموحدة أى قدر قدح ، وقيل حلبة خفيفة . وتطلق على غير ذلك .

(٤) أخرجه البخارى . فتح ٦٢٢/٦

(٥) قاله فى الفتح ٦ / ٦٢٣ ، ٦٢٤

وإلا كيف يعيش هو؟ فإنه في معظم وقته يغتذى باللبن الذى يحلبه ، فكيف يسأل عن معرفته بالحلب .

وهذا الذى قاله ابن حجر هو أوضح مايقال في المسألة ، وللعلماء فيها كلام[1].

ويظهر للدارس أن الرسول صلي الله عليه وسلم وصاحبه إذا مراً بمن يظن أن معه ما يحتاجان إليه من غذاء أو غيره سألاه فإن كان مباحاً أخذا ، وإلا أخذا بالثمن ، ويظهر لي هذا من النصوص ، بل ويظهر لى أنهما اتفقا علي هذا في ترتيبهما لأمور الهجرة . ولذا نجد أبا بكر قد حمل معه ما أمكنه من ماله ، وهو فى حديث البراء هذا يسأل عن الإذن للراعي بالحلب ، وفي حديث أم معبد - والذى سيأتى إن شاء الله تعالى - يسألونها لحماً وتمراً ليشتروا منها . وحينما قابلهما الزبير فى ركب من المسلمين فى تجارة عائدين من الشام قدم الزبير لهما هدية من الثياب البيض .

فإن اشتدت الحاجة ولا شيء من هذا ظهرت المعجزة بأن يرزقهما الله على غير ماجرت به العادة كما في حديث قيس بن النعمان - وسيأتى -

" عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج معه أبو بكر احتمل أبو بكر ماله كله معه خمسة آلاف أو ستة آلاف درهم ، قالت وانطلق بها معه : قالت فدخل علينا جدى أبو قحافة وقد ذهب بصره فقال : والله انى لآراه قد فجعكم بماله مع نفسه ، قالت : قلت كلا ياأبت إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً ، قالت فأخذت أحجاراً فتركتها فوضعتها في

---

(١) راجع الفتح ٧ / ١٠ .

كوة ببيت كان أبى يضع فيها ماله ، ثم وضعت عليها ثوباً ثم أخذت بيده فقلت ياأبت ضع يدك علي هذا المال ، قالت فوضع يده عليه فقال لا بأس إن كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفي هذا لكم بلاغ ، قالت لا والله ماترك لنا شيئاً ولكنى قد أردت أن أسكن الشيخ بذلك »(١).

وعن عروة بن الزبير أن رسول الله صلي الله عليه وسلم لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام ، فكسا الزبير رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبابكر ثياب بياض(٢).

٤- التستر فى الطريق :-

وفي رحلة الهجرة كان صلى الله عليه وسلم وصاحبه يحرصان على التخفى والتستر ما أمكن طلبا للسلامة ، وبعداً عن ما يمكن أن يسفر عنه الظهور من تتبع المشركين لهم ، ومن هذا المنطلق قال صلي الله عليه وسلم لأبى بكر : أَلْهِ النَّاسَ عَنِّى (٣)» وسار أبو بكر طوال الرحلة علي هذا النهج فإن قابله من يعرفه فسأله من هذا أجاب « هاد يهدينى السبيل » فيحسب السامع أنه دليله يدله على الطريق ، ويريد أبو بكر أنه يهديه سبيل الرشاد ، ويأخذ بيده إلى الدين الحق . أما إذا قابله من لا يعرفه وسأله من أنت ؟ قال : باغى حاجة . وإذا سأله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أجابه « هاد يهدينى السبيل » .

---

(١) أخرجه أحمد . الفتح الربانى ٢٠ / ٢٨٢ رقم ١٤٥ وأخرجه الحاكم فى المستدرك ٣/ ٥ وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وذكره فى المجمع ٦/ ٥٩ وقال : رواه أحمد والطبرانى ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع .

(٢) أخرجه البخارى . فتح ٧/ ٢٣٩.

(٣) أخرجه البيهقى كذا فى السبل ٣/ ٣٥٧.

« عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : أقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وهو مردف أبابكر ، وأبو بكر شيخ يعرف ونبى الله صلى الله عليه وسلم شاب لا يعرف . قال فيلقى الرجل أبا بكر فيقول : يا أبا بكر من هذا الرجل الذى بين يديك ؟ فيقول هذا الرجل يهدينى السبيل ، قال : فيحسب الحاسب أنه إنما يعنى الطريق ، وإنمايعني سبيل الخير »[١].

وفى حديث أسماء بنت أبى بكر « . . . وكان أبو بكر رجلاً معروفاً فى الناس، فإذا لقيه لاق فيقول لأبى بكر من هذا معك ؟ فيقول : هاد يهدينى ، يريد الهدى فى الدين ، ويحسب الآخر دليلاً . . . . »[٢].

وربما صرح الرسول صلي الله عليه وسلم وذلك إذا وثق من المتحدث معه أنه سيوفى بمايعهد إليه ، فلقد مرا على راع وطلبا منه لبنا ، فأخبرهما أن لا لبن عنده غير شاه ألقت ولدها منذ فترة ولا لبن فيها ، فطلباها منه ، ومسح رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرعها ودعا فرزقهم الله الكثير من لبنها حتى شربوا فتساءل الراعى : بالله من أنت ؟ فاشترط الرسول عليه أن يكتم عليهم ويخبره . وقبل الراعى الشرط ، واطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أنه سيوفى فأحبره صلى الله عليه وسلم بأنه محمد رسول الله .

عن قيس بن النعمان : قال لما انطلق النبى صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر مستخفيين مرا بعبد يرعى غنما فاستسقياه من اللبن فقال ما عندى شاة تحلب غير أن هاهنا عناقا حملت أول الشتاء وقد أخدجت وما بقى لها لبن فقال : ادع بها

---

(١) أخرجه البخارى . فتح ٧/٢٤٩.

(٢) أخرجه الطبرانى . قاله فى المجمع ٦/٥٤، وقال : وفيه يعقوب بن حميدين كاسب ، وثقه ابن حبان، وغيره وضعفه ابو حاتم وغيره ، وبقية رجاله رجال الصحيح.

فدعابها فاعتقلها النبى صلى الله عليه وآله وسلم ومسح ضرعها ودعا حتى أنزلت قال وجاء أبو بكر رضى الله عنه بمجن فحلب فسقى أبا بكر ثم حلب فسقى الراعى ثم حلب فشرب فقال الراعى : بالله من أنت فوالله ما رأيت مثلك قط ؟! قال : أوتراك تكتم على حتى أخبرك ؟ قال : نعم . قال : فإنى محمد رسول الله . فقال أنت الذى تزعم قريش أنه صابىء . قال : إنهم ليقولون ذلك . قال : فأشهد أنك نبى، وأشهد أن ما جئت به حق ، وأنه لا يفعل ما فعلت إلا نبى ، وأنا متبعك . قال إنك لا تستطيع ذلك يومك فاذا بلغك أنى قد ظهرت فأتنا[1].

٥- مع راع لبيب :-

ومر صلى الله عليه وسلم وصاحبه فى الطريق على راع فاستسقياه اللبن فاعتذر بأنه لا لبن فى شائه ، إلا شاة جف لبنها قريبا ، وهنا ظهرت معجزته صلى الله عليه وسلم ، فلقد مسح ضرعها ودعا فرزقهم الله الكثير من اللبن ، وكانت هذه آية كافية لتحويل قلب الراعى من الكفر إلى الإيمان ، وتوسم فيه صلى الله عليه وسلم الكثير من الخير ، فلذا أخبره بأنه صلى الله عليه وسلم رسول الله ، وطلب الراعى أن يسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فطلب منه صلى الله عليه وسلم ، أن يتمهل حتى يسمع بظهور أمره صلى الله عليه وسلم فحينئذ فليلحق بالمدينة وساكنها صلى الله عليه وسلم .

عن قيس بن النعمان قال لما انطلق النبى صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر مستخفيين مرا بعبد يرعى غنماً فاستسقياه من اللبن فقال ما عندي شاة تحلب غير أن هاهنا عناقا حملت أول الشتاء وقد أخدجت وما بقى لها لبن ، فقال : ادع

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك ٨/٣ وذكره فى الخصائص ٤٧٠/١ وعزاه لأبى يعلى والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى وأبو نعيم. وذكره ابن كثير فى السيرة ٢٦٣/٢ عن البيهقى وأبى يعلى . وذكره فى المطالب٢٠٨/٤ عن أبى يعلى

بها فدعا بها فاعتقلها النبى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ومسح ضرعها ودعا حتى أنزلت ، قال وجاء أبو بكر رضى الله عنه بمجن فحلب فسقى أبا بكر ثم حلب فسقى الراعى ثم حلب فشرب فقال الراعى بالله من أنت فوالله ما رأيت مثلك قط قال : أو تراك تكتم على حتى أخبرك ، قال : نعم قال فإنى محمد رسول الله ، فقال : أنت الذى تزعم قريش أنه صابىء ، قال إنهم ليقولون ذلك ، قال :فأشهد أنك نبى ، وأشهد أن ما جئت به حق وأنه لا يفعل ما فعلت إلانبى وأنا متبعك، قال: إنك لا تستطيع ذلك يومك فإذا بلغك أنى قد ظهرت فأتنا »[١].

٦- فى منزل عقلاء :

ومر النبى صلى الله عليه وسلم وصاحبه على خيمتى أم معبد الخزاعية ، وكانت وزوجها من أهل الكرم ، يطعمون ابن السبيل ، ويجودون بماعندهم .

وطلب النبى صلى الله عليه وسلم والصديق أن يشتريا لحما وتمراً ، فأخبرتهم بعدم وجود شىء من ذلك عندها ، وأنه لو كان شىء من ذلك عندها لقدمته قرى للضيف بدون ثمن .

وفى جانب الخيمة شاة ظهرت معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن حلبت، وما كانت تحلب مما أعجب القوم وخاصة زوجها ، والذى أخذ فى البحث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسلم على يديه . وأسوق الحديث ففيه تفصيل هذا الأمر من شأن هجرته صلى الله عليه وسلم .

عن حبيش بن خالد صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من مكة مهاجراً إلى المدينة وأبو بكر رضى الله عنه ومولى أبى بكر عامر بن فهيرة ودليلهما الليثى عبد الله بن أريقط مروا على خيمتى أم

(١) تقدم مع تخريجه فى عنوان « التستر فى الطريق ».

معبد الخزاعية وكانت امرأة بَرْزَةً [1] جَلْدَةً تحتبى بفناء الخيمة ، ثم تسقى وتطعم فسألوها لحماً وتمراً ليشتروا منها فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك [2]، وكان القوم مرملين مسنتين فنظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى شاة فى كِسْر الخيمة [3] فقال :ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ قالت شاة خَلَّفها الجَهْدُ [4] عن الغنم ، قال : هل بها من لبن ؟ قالت : هى أجهد من ذلك . قال : أتأذنين لى أن أحلبها. قالت : بأبى أنت وأمى إن رأيت بها حَلباً فاحلبُها ، فدعا بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فمسح بيده ضرعها وسمى الله تعالى ودعا لها فى شاتها فتفاجَّت [5] عليه ودرت فاجترت فدعا بإناء يُرْبِض الرهط [6] فحلب فيه ثجاً [7] حتى علاه البهاء[8] ثم سقاها حتى رويت ، وسقى أصحابه حتى رووا ، وشرب آخرهم حتى أراضوا [9]، ثم حلب فيه الثانية على هدة حتى ملأ الإناء ثم غادره عندها ، ثم بايعها وارتحلوا عنها . فقل ما لبثت حتى جاءها زوجها أبو معبد ليسوق أعنزاً عجافاً [10] يتساوكن هزالاً ، مخهن قليل . فلما رأى أبو معبد اللبن أعجبه وقال من أين لك هذا يا أم معبد والشاء عازب حائل [11]، ولا حلوب فى البيت ؟ قالت : لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك من حاله كذا وكذا . قال : صفيه لى يا أم معبد ، قالت : رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة ، أبلج

---

(١) متقدمة فى السن ، فتخرج على الرجال .
(٢) فى رواية أبى معبد « وقالت : لو كان عندنا شىء ما أعوزكم القرى »
(٣) جانب الخيمة .
(٤) الضعف .
(٥) فتحت ما بين رجليها للحلب .
(٦) يروى الرهط حتى يثقلوا . والرهط : ما بين الثلاثة الى العشرة .
(٧) سيلاً .
(٨) أى حتى علا الإناء بهاء اللبن ، وهو وبيص رغوته .
(٩) شربوا .
(١٠) مهازيل .
(١١) اى لم تحمل

الوجه ، حسن الخَلْق ، لم تعبه ثُجْلة [١] ، ولم تزريه صُعْلَة [٢] ، وسيم قسيم ، فى عينيه دعج [٣] وفى أشفاره وطف [٤] ، وفى صوته صحل [٥] ، وفى عنقه سطع [٦] ، وفى لحيته كثاثة [٧] ، أزج [٨] أقرن [٩]، إن صمت فعليه الوقار ، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء ، أجمل الناس وأبهاه من بعيد ، وأحسنه وأجمله من قريب ، حلو المنطق ، فصلا لا نَزْر [١٠] ولاهَذَر، [١١] كأن منطقه خرزات نَظْم يتحدرن ، ربعة لا تشنأه [١٢] من طول ولا تقتحمه [١٣] عين من قصر ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظراً ، وأحسنهم قدراً ، له رفقاء يَحُفُّون به ، إن قال سمعوا لقوله ، وإن أمرتبادرو ا إلى أمره ، محفود [١٤] محشود[١٥] لا عابس ولا مُفَنِّد . قال أبومعبد : هذا والله صاحب قريش الذى ذُكر لنا من أمره ما ذكر ، ولقد هممت أن أصحبه ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً . وأصبح صوت بمكة عال يسمعون الصوت ولا يدرون من صاحبه وهو يقول :

جزى اللهُ ربُّ الناس خير جزائه رفيقين حلاَّ خيمتى أمِّ مَعْبد

---

(١) عظم البطن
(٢) صغر الراس
(٣) شدة سواد العين مع سعتها .
(٤) غزارة شعر العينين والحاجبين .
(٥) كالبُحّه وأن لا يكون حاد الصوت .
(٦) طول .
(٧) غزارة الشعر .
(٨) الزجج تقوس في الحاجب مع طول في طرفه وامتداده .
(٩) ملتقي الحاجبين .
(١٠) التافه ، أو القليل .
(١١) الهذر : سقط الكلام .
(١٢) لا تبغضه .
(١٣) ولاتحتقره .
(١٤) مخدوم .
(١٥) يحيط به أصحابه انتظاراً للخدمة .

هما نزلاها بالهُدى واهتدت به … فقد فاز من أمسى رفيقَ محمد
فيالَ قُصى مازوى الله عنكم … به من فعال لا تُجارى وسُـؤْدَدِ
لِيَهْنِ أبـا بكـر سعادةُ جَـدِّه … بصحُبته منْ يُسْعِد اللـهُ يَسْعَدِ
ويهن بنى كعب مقَامُ فتاتهـم … ومقعدُهـا للمؤمنينَ بمِرصَـدِ
سلوا أختَكم عن شاتهاوإنائها … فإنكُم إن تسألوا الشـاةَ تشهَد
دعـاها بشاةٍ حائـلٍ فتحلَّبتْ … عليه صريحاً ضَـرَّةُ الشاة مزبـدِ
فغـادره رهناً لَديها لحالـب [1] … يرددها فى مصـدَرٍ بعـد مـوردِ

فلمع سمع حسان الهاتف بذلك شبب يجاوب الهاتف فقال :

لقد خاب قومٌ زال عنهم نبيُهـم … وقُدِّس من يَسْرى إليهم ويغتـدى
تَرَحَّل عن قوم فضلَّت عقولُهـم … وحلَّ علـي قـومٍ بنـورٍ مُجـدَّدِ
هداهُم بهِ بعدَ الضلالةِ ربُّهـم … فأرشـدَهُم مَـنْ يتبعِ الحقَّ يَرْشُـدِ
وهل يستوى ضُلاَّلُ قومٍ تسفهوا … عمـىً وهـداةُ يهتـدون بمهتـدِ
وقد نزلت منه على أهلِ يثـربِ … ركابُ هُدىً حلت عليهم بأسْعَـدِ
نبى بري مالا يرى الناسُ حولَهُ … ويتلو كتابَ الله في كل مشهـدِ
وإنْ قال في يوم مقالةَ غـائبٍ … فتصديقها في اليوم أو فى ضحَى الغَدِ [2،3]

(١) يعني أنه صلي الله عليه وسلم خلف الشاه مرتهنة لأن تدر .

(٢) فى سيرة ابن كثير ٢٦٢/٢ ومجمع الزوائد ٥٧/٦ ، ٥٨ قليل خلاف فى هذه الأبيات ففيها البيتان الرابع والخامس من كلام الجنى هنا من كلام حسان والبيت الثالث من كلام حسان هنا ليس فى سيرة ابن كثير .

(٣) والحديث أخرجه الحاكم في المستدرك ٩/٣ وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه وذكر أموراً يستدل به على الصحة ، ونازعه الذهبى فى توافر شرط الصحيح . وفيه أنه عن هشام بن حبيش بن خويلد . وفيه خطأ من عدة نقاط ، فقد سقط لفظ عن جده حبيش ، وخويلد خطأ والصواب خالد وهذا فيما بدا لى والله أعلم- وحبيش بن خالد أخو أم معبد .

وذكره في مجمع الزوائد ٦/ ٥٥-٥٨ عن حبيش بن خالد وقال: رواه الطبراني وفى إسناده جماعة لم أعرفهم وذكره في علامات النبوة باب صفته صلى الله عليه وسلم ٢٧٨/٨ وأخرجه المزى في تهذيب الكمال ١/ ٢٢٠ وذكره ابن كثير في السيرة ٢/ ٢٦٠-٢٦٣ عن البيهقى وأبى نعيم وفى رواية البيهقى أن أبا معبد أسلم وهاجر. وفى رواية أبى نعيم أن أم معبد هاجرت وأسلمت. وأخرجه ابن السكن.

٧- لصان يسلمان :-

وقبل وصولهما إلى المدينة بأيام ، وعندما وصلا إلى العرج ، احتاجا للاستفسار عن الطريق فدلهما أحد القاطنين، وبيّن أن الطريق القريب به لصان يقال لهما المهانان فسار الرسول صلى الله عليه وسلم منه غير مبال باللصين ، وعندما مروا عليهما تحدثا فيما بينهما فدعاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرض عليهما الإسلام فأسلما ، ثم سألهما عن اسميهما فقالا : المهانان فغير صلي الله عليه وسلم اسميهما وسماهما " المكرمان " وأمرهما بقدوم المدينة عليه صلي الله عليه وسلم .

ويلاحظ هنا أنه لقرب المسافة من المدينة أصبح القوم في خدمته ، وأصبح صلي الله عليه وسلم يصرح باسمه وبأنه رسول الله ، بل ويدعو إلى دينه ، وأصبح يستجاب له ، ويتبعه من خلق الله من قدرت له الهداية .

عن فائد مولى عبادل قال خرجت مع إبراهيم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبى ربيعة فأرسل إبراهيم بن عبد الرحمن إلى ابن سعد حتي إذا كنا بالعرج أتانا ابن سعد ،وسعد : الذي دل رسول الله صلي الله عليه وسلم على طريق ركوبه فقال إبراهيم أخبرني ماحدثك أبوك ؟

قال ابن سعد حدثني أبى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاهم ومعه أبو بكر وكان لأبى بكر عندنا بنت مسترضعة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد الاختصار في الطريق إلى المدينة فقال له سعد هذا الغائر من ركوبه وبه لصان من أسلم يقال لهما المهانان فإن شئت أخذنا عليهما ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خذ بنا عليهما قال سعد فخرجنا حتي أشرفنا إذا أحدهما يقول لصاحبه هذا اليمانى فدعاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرض عليهما الإسلام فأسلما ثم سألهما عن أسمائهما فقالا نحن المهانان فقال بل أنتما

المكرمان وأمرهما أن يقدما عليه المدينة فخرجنا حتى أتينا ظاهر قباء فتلقاه بنو عمرو ابن عوف فقال النبي صلي الله عليه وسلم أين أبو أمامة أسعد بن زرارة فقال سعد ابن خثمة إنه أصاب قبلي يارسول الله أفلا أخبره بذلك ؟ ثم مضي حتي إذا طلع علي النخل فإذا الشرب مملوء ، فالتفت النبي صلي الله عليه وسلم إلى أبى بكر رضي الله عنه فقال يا أبا بكر هذا المنزل رأيتنى أنزل على حياض كحياض بنى مدلج(١).

٨- إشراقات المدينة (لقى كريم) :-

وفي أثناء رحلتهما وبينما هما بالجحفة ، إذ وجدا إبلا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لمن هذه الإبل ؟ فقالوا لرجل من أسلم . فتفاءل صلى الله عليه وسلم أيضاً وقال لأبى بكر سلمت إن شاء الله .

وكانت إحدى الراحلتين قد تخلفت عنهما ، وأصبحا يسيران على راحلة واحدة ، فجاء صاحب هذه الإبل وهو أوس بن عبد الله بن حَجَر من بنى أسلم ، فقدم لهما فحل إبله ويقال له " ابن الرداء " ليستكملا عليه رحلتهما ، وأرسل معهما غلامه مسعود بن هنَيدة ، وأمره أن يسير بهما حيث يعلم من محارم الطريق ، وأن يظل معهما بجمله حتى يصلا إلي المكان الذي يريدانه ، فظل معهما حتي وصلا قباء .

عن إياس بن مالك بن الأوس الأسلمى ، عن أبيه قال : لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر مروا بإبل لنا بالجحفة فقال رسول الله صلى الله

(١) أخرجه عبد الله بن الإمام .أحمد الفتح الربانى ٢٨٨/٢٠ رقم ١٥٠ وذكره في المجمع ٥٨/٦ وقال : رواه عبد الله بن أحمد . وابن سعد اسمه عبد الله ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات .

عليه وسلم : لمن هذه الإبل ؟ فقالوا : لرجل من أسلم . فالتفت إلي أبى بكر فقال: سلمت إن شاء الله . فقال : ما اسمك ؟ قال : مسعود . فالتفت إلى أبي بكر فقال : سعدت إن شاء الله . قلت : فأتاه أبى فحمله على جمل يقال له ابن الرداء[1].

" عن أوس بن عبدالله بن حَجَر الأسلمى قال مربى رسول الله صلي الله عليه وسلم ومعه أبو بكر بحذوات بين الجحفة وهرشا وهما علي جمل واحد وهما متوجهان الي المدينة ، فحملهما علي فحل إبله ابن الرداء ، فبعث معهما غلاماً له يقال له مسعود ، فقال : اسلك بهما حيث تعلم من محارم الطريق ، ولا تفارقهما حتي يقضيا حاجتهما منك ومن جملك ، فسلك بهما ثنية الرمحا ثم سلك بهما ثنية الكوية ثم سلك بهما المرة ، ثم أقبل إليهما من شعبة ذات كشط ، ثم سلك بهما المدلجة ، ثم سلك بهما الغسانة ، ثم سلك ثنية المرة ، ثم أدخلهما المدينة ، وقد قضيا حاجتهما منه ومن جمله ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم مسعوداً الى سيده أوس بن عبد الله وكان مغفلاً لا يسم الإبل فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأمر أوساً أن يسمها في أعناقها قيد الفرس . قال صخر بن مالك وهو والله يسمها اليوم . وقيد الفرس فيما أرى :حلقتين ومد بينهمامداً"[2].

---

(١) ذكره ابن كثير في السيرة ٢/٢٥٦ عن ابى نعيم بإسناده وذكره فى سبل الهدى والرشاد ٣/ ٣٥٦.

(٢) ذكره فى المجمع ٦/٥٥ وقال : رواه الطبرانى وفيه جماعة لم أعرفهم . وذكر في الفتح ٧/٢٥١ أنه أخرجه أبو سعيد فى «شرف المصطفى » وابن السكن والطبرانى .وعزاه فى الإصابة ١/١٥٧ للبغوى وابن السكن وابن منده .

مسائل تتعلق بالهجرة

أنواع الهجرة وأحكامها :-

والهجرة أنواع :

١- هجرة الوطن فراراً من الفتنة في الدين .

٢- هجرة الوطن للجهاد .

٣- هجرة الوطن لغرض شرعى .

وهذه الأنواع جميعها باقية محثوث عليها يختلف حكمها باختلاف درجة الحاجة إليها ، فمن خاف الفتنة فى دينه وجبت عليه الهجرة من بلاد الشرك الى بلاد الإسلام . فإذا لم يخف الفتنة لكنه لايستطيع الدعوة إلى الله في مكانه هذا فتستحب الهجرة ، فإذا لم يخف وأمكنه الدعوة فقد صارت البلد به دار إسلام فالإقامة فيها أفضل من الرحلة منها لما يترجى من دخول غيره فى الإسلام .

ومن هذا النوع - هجرة الوطن فراراً بالدين من الفتنة - هجرة الصحابة إليه صلي الله عليه وسلم ، وهذه قبل الفتح كانت واجبة دل على وجوبها الكتاب والسنة، أما الكتاب فقول الله تعالى " إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً"(١).

وهذه الآية تدل علي أن عدم الهجرة كبيرة إذ ورد الوعيد عليه ، ولقد عرف العلماء الكبيرة - في أحد تعريفاتها - بأنها ماورد عليه وعيد في القرآن الكريم فإذا كان عدم الهجرة كبيرة فالهجرة واجبة .

بل إن الله سبحانه قطع الموالاة بين من هاجر ومن لم يهاجر فقال سبحانه «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا »(٢).

---

(١) سورة النساء آية (٩٧).

(٢) سورة الأنفال آية (٧٢)

وأما السنة فمنها ماروي عن بهز بن حكيم بن معاوية بن مُرة عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يُقْبَلُ عن مشرك بعدما أسلم عمل ، أويفارق المشركين إلى المسلمين "(١).

وما روى عن جرير بن عبد الله أنه صلى الله عليه وسلم قال « أنا برىء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين، قالوا: يارسول الله لم؟قال: لا تراءى ناراهما"(٢).

ومعنى «لا تراءى ناراهما» أى لا يقتربان حتى يري أحدهما نار الآخر، أو لا يتفقان أبدا فحالهما مختلف هذا من حزب الله، وذاك من حزب الشيطان، فلا يقتربان .

وما روى عن سمرة بن جندب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله "(٣).

وفي روايةٍ "لا تساكنوا المشركين ولا تجامعوهم، فمن ساكنهم أو جامعهم فهو منهم"(٤).

وهذا النوع من الهجرة - هجرة الوطن فراراً بالدين من الفتن - مستمر إلى يوم القيامة بدليل قوله صلي الله عليه وسلم « لن تنقطع الهجرة ماقوتل الكفار »(٥).

---

(١) أخرجه النسائى فى الزكاة وراجع جامع الأصول ١/ ٢٣٣ ، ٢٣٤.
(٢) أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى جامع ٤/ ٤٤٥.
(٣) أخرجه الترمذى جامع ٦/ ٦٧٧.
(٤) أخرجه الترمذى جامع ٦/ ٦٧٧.
(٥) أخرجه النسائى جامع ١١ / ٦٠٦.

وقوله صلى الله عليه وسلم « لا تنقطع الهجرة حتي تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها »(١).

فكل مسلم يعيش في بلد غلب عليه الشرك ، حتي يخاف الفتنة فى دينه ، أولا يستطيع أن يدعو إلى الله سبحانه فعليه أن يهاجر إلى بلاد الإسلام ، كما سبق أن بينت تفاصيل ذلك .

وليس من حق أهل بلاد الإسلام أن يمنعوه الإقامة في بلادهم فبلاد الإسلام لكل مسلم ولو كان من أهل بلد آخر .

وهذا لا يتنافى مع قوله صلى الله عليه وسلم « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا »(٢).

إذ أن معناه : لا هجرة من مكة بعد فتحها فقد صارت دار إسلام ، ولا يهاجر من دار الإسلام إلى دار الإسلام . أو لا هجرة إلى المدينة ، إذ كانت الحكمة من الهجرة إليها بادىء الأمر تجميع المسلمين لمواجهة العدو القوى مشركى مكة ، أما وقد دخلوا الإسلام فلا يهاجر إلى المدينة ، وإنما يظل كل مسلم مكانه ، ومن كان في بلد شرك جاز له الهجرة إلى أي بلد إسلامى ، وليس شرطا الي المدينة كما كان الحال عليه أول الأمر .

أما النوع الثانى من الهجرة - هجرة الوطن للجهاد - فإذا كان الجهاد واجبا كانت الهجرة واجبة من باب مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

أما النوع الثالث - هجرة الوطن لغرض شرعى - فإذا كان الغرض واجباً كتحصيل علم اندرس في بلده ، وتعينت الهجرة طريقاً إليه فالهجرة واجبة .

وعد بالعودة :-

وبينما رسول الله صلي الله عليه وسلم مهاجراً من مكة إلى المدينة ، نزل عليه

(١) أخرجه أبو داود جامع ٦٠٦/١١.
(٢) أخرجه البخارى جامع ٦٠٧/١١ .

الوحى يبشره بأن الله سبحانه سيفتح عليك مكة ، وعما قريب ستصبح دار إسلام، أنزل سبحانه وتعالى عليه صلى الله عليه وسلم وهو بالجحفة « إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ » [١] أى الى مكة

فعن ابن عباس - رضى الله عنهما - « لرادك إلى معاد » قال : إلى مكة[٢].

وهذه الآية هى الوحيدة التى نزلت أثناء الهجرة ، نزلت تطميناً له صلى الله عليه وسلم وتسلية حينما اشتاق الى مكة .

فعن الضحاك - رضى الله عنه - قال : لما خرج النبى صلى الله عليه وسلم من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة فأنزل الله « إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » إلى مكة[٣].

وعن على بن الحسين بن واقد - رضى الله عنه - قال : كل القرآن مكى أومدنى غير قوله « إن الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد » فإنها أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجحفة حين خرج مهاجراً إلى المدينة فلا هى مكية ولا مدنية ، وكل آية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة فهى مكية نزلت بمكة أو بغيرها من البلدان ، وكل آية نزلت بالمدينة بعد الهجرة فإنها مدنية نزلت بالمدينة أو بغيرها من البلدان[٤].

تاريخ الهجرة :-

خرج صلى الله عليه وسلم من مكة ليلة آخر اثنين من شهر صفر - وهو يعادل من الشهر السابع والعشرين أو الثامن والعشرين وذلك من السنة الأولى من التاريخ الهجرى وهى سنة أربع عشرة من النبوة وأربع وخمسين من المولد ومكث

(١) سورة القصص آية ٨٥

(٢) أخرجه البخارى في التفسير ٥٠٩/٨.

(٣) ذكره فى الدر ١٣٩/٥ وعزاه لابن ابى حاتم .

(٤) ذكره فى الدر ١٣٩/٣ ، ١٤٠ وعزاه لابن مردويه .

صلى الله عليه وسلم بقية شهر صفر فى الغار فمكث فيه جزءاً من ليلة الاثنين وليلة الثلاثاء وليلة الأربعاء ، وفى ليلة الخميس غرة شهر ربيع الأول جاء الدليل بالراحلتين وابتدأوا رحلة الهجرة فى منتصف الليل .

واستمر صلى الله عليه وسلم سائراً فى الطريق أحد عشر يوماً وفى اليوم الثانى عشر وصل صلى الله عليه وسلم قباء من المدينة المنورة وذلك يوم الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول .

عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : « ولد النبى صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين ، واستنبىء يوم الاثنين ، وقدم المدينة يوم الاثنين ، ورفع الحجر الأسود يوم الاثنين »(١) .

وقوله « وخرج مهاجراً من مكة الى المدينة يوم الاثنين » هو الذى يجعلنى أجزم بأنه صلى الله عليه وسلم خرج من بيت أبى بكر ليلة الاثنين ، وقوله - فى حديث عائشة الذى تقدم فى أول الهجرة - « وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليل براحلتيهما صبح ثلاث » هو الذى يجعلنى أجزم بأنه صلى الله عليه وسلم خرج من الغار متجهاً الى المدينة أثناء ليلة الخميس غرة شهر ربيع الأول .

وهذا الذى أجزم به لا يتفق مع ماذكره الحافظ فى الفتح ٧/٢٣٦ إذ قال : وقال الحاكم : تواترت الأخبار أن خروجه كان يوم الاثنين ودخوله المدينة كان يوم الاثنين، إلا أن محمد بن موسى الخوارزمى قال : إنه خرج من مكة يوم الخميس . قلت - الحافظ بن حجر - يجمع بينهما بأن خروجه من مكة كان يوم الخميس

---

(١) أخرجه أحمد . الفتح الربانى ٢٠/١٨٩ ونقل فى الشرح عن الهيثمى أنه أخرجه أحمد والطبرانى فى الكبير وزاد فيه » وفتح بدراً يوم الاثنين ، ونزلت سورة المائدة يوم الاثنين «اليوم أكملت لكم دينكم » وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف (أى لأنه عنعن) وبقية رجاله ثقات من أهل الصحيح .

وخروجه من الغار كان ليلة الاثنين لأنه أقام فيه ثلاث ليال ، فهى ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد وخرج فى أثناء ليلة الإثنين أ هـ

وما حكاه الحاكم من التواتر يؤيد ماقلت به وما قاله محمد بن موسى الخوارزمى يتفق أيضاً لكن على أساس أنه خرج يوم الخميس من الغار وترك مكة متجهاً إلى المدينة . وهذا وإن كان لا يتفق مع ما قاله الحافظ فإنه يبدو لى أن العبارة قلبت فى النسخة وصوابها ماقلته - من أنه خرج من مكة ليلة الاثنين ومن الغار ليلة الخميس - وهذا مايؤيده النص الذى فى رواية أحمد . ولو كان كماقال الحافظ لكانت مدة الإقامة فى الغار أربع ليال لا ثلاث وهو مايتعارض مع ماثبت فى الصحيح .

هذا وتمت الهجرة فى وقت كان الجو صائفاً يدل على هذا ما سيأتى من أن الأنصار كانوا يخرجون لانتظاره صلى الله عليه وسلم حتى يردهم حر الظهيرة [١] » وفى رواية فإذا أحرقتهم الشمس رجعوا الى منازلهم »[٢]

سنُّ الصحابة فى الهجرة :-

وكان المهاجرون اليه صلى الله عليه وسلم فى فترة قوة من عمرهم ، شعرهم مازال أسودً ، وفى الأبدان قوة الشباب أو بقيتها فأكبرهم وهو أبو بكر الصديق فى الحادية والخمسين من عمره ، وهم جميعا أصغر من رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان فى الثالثة والخمسين .

- فعن أنس خادم النبى صلى الله عليه وسلم قال : قدم النبى صلى الله عليه وسلم وليس فى أصحابه أشمط غير أبى بكر ، فغلفها بالحناء والكتم ..

وعنه أيضاً « قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة فكان أسن أصحابه أبوبكر

(١) رواية البخارى ٢٣٩/٧(

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد

فغلفهابالحناء والكتم حتى قنأ لونها »[1].

وواضح من قوله « فكان أسن أصحابه أبو بكر » أن أبا بكر كان أكبر المهاجرين الذى وصلوا المدينة مطلقا سواء قبله صلى الله عليه وسلم أو معه . أما من جاء بعد ذلك فغير داخل فى الحكم .

التأريخ بالهجرة :-

الأمم - خاصة العريقة منها - لابد لها من تاريخ ، وكلما كان التاريخ دقيقا كلما كان أشرف وأفضل ، ولقد كان للعرب تاريخ لكنه لم يك عاماً وانما كان بالنسبة لأمر بارز فكانوا يعرفون الشهور أما الأعوام فالنسبة لأمر بارز فقالوا قبل حادثة الفيل بكذا سنة ، أو عام الفيل ، أو بعد الفيل وهكذا . وبدهى أن هذا ليس دقيقا كما أنه ليس قاسما مشتركا يعرفه الجميع .

فلما قامت دولة الاسلام وكثرت الأحداث شعر أئمتها بحاجتهم للتاريخ ، من ذلك :

أ - ما حدث لعمر فلقد رفع له صك محله شعبان فقال : أى شعبان الماضى أوالذى نحن فيه ، أو الآتى ؟ ضعوا للناس شيئاً يعرفونه[2].

ب- ما حدث لعمر أيضاً حينما كتب له أبو موسى : إنه يأتينا منك كتب ليس لها تاريخ فجمع عمر الناس . فقال بعضهم : أرخ بالمبعث ، وبعضهم : أرخ بالهجرة ، فقال عمر : الهجرة فرقت بين الحق والباطل فأرخوا بها ، وذلك سنة سبع عشرة . فلما اتفقوا قال بعضهم ابدءوا برمضان ، فقال عمر : بل

---

(١) أخرجهما البخارى ٢٥٦/٧ ، ٢٥٧ وقوله « فغلفها » أى لحيته وان لم يتقدم لها ذكر فإنها تفهم من سياق الحديث ومعنى « قنأ لونها » اشتدت حمرتها .

(٢) ذكره فى فتح البارى ٢٦٨/٧ وعزاه لأحمد وأبى عروبة فى الأوائل والبخارى فى الأدب والحاكم .

بالمحرم فإنه منصرف الناس من حجهم فاتفقوا عليه(١).

فلما شعروا بحاجتهم للتاريخ كان أمامهم أربع قضايا يمكن التأريخ بأى واحدة منها وهى : مولده صلى الله عليه وسلم ومبعثه وهجرته ووفاته فرجح عندهم جعلها من الهجرة لأن المولد والمبعث لا يخلو واحد منها من النزاع فى تعيين السنة وأما وقت الوفاة فأعرضوا عنه لأنه يذكر بوفاته صلى الله عليه وسلم وهذا يورث حسرة عليه . فانحصر فى الهجرة ، وإنما أخروه من ربيع الأول الى المحرم لأن ابتداء العزم على الهجرة كان فى المحرم ، إذ البيعة أثناء ذى الحجة وهى مقدمة الهجرة ، فكان أول هلال استهل بعد البيعة والعزم على الهجرة هلال المحرم فناسب أن يجعل مبتدأ ، كما أنه - أى المحرم - شهر حرام وهو منصرف الناس من الحج(٢).

عن سهل بن سعد قال : « ما عدّوا من مبعث النبى صلى الله عليه وسلم ولامن وفاته ، ما عدوا إلا من مقدمه المدينة(٣)(٤).

وعنه - أى سهل - أيضاً قال : أخطأ الناس فى العدد ما عدوا من بعثته ولامن وفاته ، إنما عدوا من مقدمه المدينة(٥).

قال الحافظ : والمراد بقوله : « أخطأ الناس العدد » أى أغفلوه وتركوه . ثم استدركوه . ولم يرد أن الصواب خلاف ما عملوا . ويحتمل أن يريده وكان يرى أن

---

(١) ذكره فى الفتح ٢٦٨/٧ وعزاه لأبى نعيم الفضل ابن دكين والحاكم من طريقه .
(٢) اهـ من فتح البارى، ٢٦٨/٧ ، ٢٦٩ بتصرف .
(٣) أى زمن قدومه .
(٤) أخرجه البخارى ٢٦٧/٧ .
(٥) أخرجه الحاكم ١٣/٣ وصححه وأقره الذهبى .

البداءة من المبعث أو الوفاة أولى ، وله اتجاه لكن الراجح خلافه أهـ[1].

- وعن سعيد بن المسيب قال : جمع عمر الناس فسألهم من أى يوم يكتب التاريخ ؟ فقال على بن أبى طالب : من يوم هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك أرض الشرك ففعله عمر رضى الله عنه[2].

الدروس المستفاده من الهجرة :-

وبعد دراسة أسباب الهجرة وأحداثها ، يحسن أن أقف وقفة أبين فيها بعض الدروس التى تستفاد من الهجرة ، على أن القارىء يمكنه أن يستفيد دروسا أخرى وحسبى أن أكون قد فتحت الباب للتفكير فيما يستفاد من الهجرة ، هذا الحدث العظيم ، فأقول وبالله التوفيق :-

١- شدة عداوة الكفر للمؤمنين :

فمن أحداث الهجرة ، وعداوة المشركين للإسلام ، وقسوتهم الرهيبة على المسلمين ، وجرأتهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى أيده الله بالمعجزات الدالة على أنه رسول الله إليهم ، من كل ذلك يتضح جليا أن الكفار يبغضون المسلمين ، ويكرهونهم ، كراهية تجعلهم يحرصون على إبادتهم والقضاء عليهم !! وتجد هذا واضحاً فى آيات القرآن الكريم .

يقول ربنا سبحانه وتعالى « كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ⑦ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ

---

(١) فتح ٢٦٨/٧ .

(٢) أخرجه الحاكم ١٤/٣ وصححه وأقره الذهبى .

وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (١) »

إنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد عند الله وعند رسوله ، لأنهم مشركون بالله ، مكذبون برسالة رسول الله ، ولو قووا على المسلمين فإنهم لن يبقوا ، ولن يذروا ، إنهم سيقتلونهم شر قِتلة ، لا يراعون « إلاً » أى قرابة ، « ولاذمة » أى عهداً (٢) .

إنهم أناس لادين يمنعهم ، ولا خلق يردعهم ، وإنما يعيشون وفق شهواتهم وأطماعهم .

ويقول سبحانه وتعالى « قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٣) »

وهذا إخبار من الله عن قوم من الكفار عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله عز وجل فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم فأبوا عليهم فحفروا لهم فى الأرض أخدوداً ، وأجّجوا فيه نارا ، وأعدوا لها وقودا يسعرونها به ، ثم أرادوهم فلم يقبلوا منهم ، فقذفوهم فيها ، وما كان لهم عندهم من ذنب إلا إيمانهم بالله «العزيز» الذى لا يضام من لاذ بجانبه المنيع ، « الحميد » فى جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره .

وإن كان قدّر على عباده هؤلاء (المؤمنين) هذا الذى دفع بهم بأيدى الكافرين به ، فهو العزيز الحميد ، أى الذى لا يُغلب أولياؤه ، المحمود فى كل قضائه ، وما حدث للمؤمنين فإنما لحكمة عالية ، يدركها البعض وتخفى على الكثيرين .

---

(١) سورة التوبة آية ٧، ٨ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير ٢/٣٣٨ .

(٣) سورة البروج آية ٤-٨ .

إنها طبيعة الكفر قديما وحديثاً ، يطغى ويتجبر ، ويقتل ويتكبر !! ولقد سجل القرآن الكريم هذا المعنى فى غير ما موضع ، وشهد به واقع العالم ، فعلى المسلمين أن يَعُوا ذلك ، وأن يصححوا خطأهم القائم على أنهم والكفرة فى وئام .

إن الله سبحانه وتعالى قد قال « وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا [1] »

وقال سبحانه « وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ [2] »

وقال سبحانه « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ [3] »

إن الذى أخبر به القرآن عن الأمم السابقة والذى سجله فى حق المؤمنين الأوائل وما تعرضوا له من أذى المشركين هو الذى يعيشه المسلمون الآن من اضطهاد دينى، لا سبب له إلا إيمانهم !!

إن تاريخ الكفر بطوله أسود !! ، لا يقوم إلا على التكبر والعصيان ، والاستبداد والطغيان . وسبق أن ذكرت حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم «لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد مادون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه . ويوضع الميشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه . . . » [4]

أى قسوة عند الكفر هذه التى ينتزع فيها عظام الإنسان من جسمه وهو حى !!

---

(١) سورة البقرة آية ٢١٧ .

(٢) سورة البقرة آية ١٠٩ .

(٣) سورة آل عمران آية ١٠٠ .

(٤) تقدم الحديث بتمامه فى أول هذا الجزء ، وهو فى صحيح البخارى ١٦٤/٧ .

أى قسوة عند الكفر هذه التى يشق بها جسم الإنسان شقين وهو حى !! وأى قسوة هذه التى نراها فى هذا الزمان من تكسير رؤوس المسلمين بالآلاف ، ودفنهم أحياء!!

وأى قسوة عند الكفر هذه التى يُقتل بها المسلمون وهم يصلون فى بيوت الله ، ولا ذنب لهم ولا جريرة؟ !!

إنه الكفر الذى لا يعرف الرحمة ، الكفر الذى لا يعرف الإنسانية ، الكفر الذى لم يذق طعم الحياء .

٢- الله ناصر المؤمنين :

وإذا كان الكفر طبعه الطغيان والاعتداء ، فإن ذلك لا يخيف المسلمين ولا يرهبهم .

إنهم يؤمنون أن عليهم أن ينصروا دين الله ، وأن يكونوا جنوداً لله ويؤمنون أن النصر من عند الله ، لا تخيفهم قوى الكفر ولا تآمره ، وإنما يحرصون على أن تخلو جماعتهم من المعاصى ، فإن استقاموا على دين الله وأعدوا للقاء العدو ما استطاعوا من قوة ، فإن الله يؤيدهم وينصرهم وإن قل عددهم وضعفت عدتهم .

وهذا واضح من سور القرآن الكريم ، فلقد نصر الله سبحانه حزبه وفى كثير من المواقع أيد بالملائكة جنده « كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ [١] »

« إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ[٢] »

---

(١) سورة البقرة آية ٢٤٩ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٢٤ - ١٢٧ .

« إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ[١] »

وتأمل قوله سبحانه « إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ[٢] » يقول جابر بن عبد الله : فينا نزلت « إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا » الآية قال : نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة وما نحب أو ما يسرنى أنها لم تنزل لقوله تعالى « والله وليهما [٣] »

وهكذا كما فى هذه الآيات وفى غيرها يؤيد الله المؤمنين ، ويثبت أقدامهم ويلهمهم رشدهم ، ويلقى الرعب فى قلوب أعدائهم .

وفى موضوع الهجرة واضح تأييد الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين جميعاً ، فلقد عصمه الله وسلمه ، وكانت هجرته صلى الله عليه وسلم آية ، تقرأ نصوصها فى القرآن والسنة فتزداد يقينا بعناية الله برسوله ، وتمتلىء إيمانا بقدرة الله المقتدرة ، وأنه سبحانه يؤيد أولياءه ، وينصر حزبه ، « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ [٤] » .

إن الله الذى حفظ رسوله من محاولات المشركين قتله ، وحفظه فى الغار حينما

---

(١) سورة الأنفال آية ٩ - ١٣ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٢٢ .

(٣) حديث جابر هذا أخرجه البخارى ومسلم كذا فى ابن كثير ١/ ٤٠٠ .

(٤) سورة الروم آية ٤٧ .

وصل المشركون - بقائفهم - إليه ، وحفظه حينما وصل إليه سراقه ، وسلم سبحانه وتعالى قافلة الهجرة من سراقة وأمثاله . ورزق قافلة الهجرة بلبن من شاة لا تحلب بل لا تستطيع السير من شدة هزالها ، إن الله الذى مَنّ بهذا ، هو الذى مَنّ على المؤمنين بإتمام هجرتهم ، وأيدهم وسلمهم . هو سبحانه الذى حفظ بلالا وسلمه .

وهو سبحانه الذى حفظ أم سلمة فى هجرتها بابنها ، وقيض لها الشيبى الذى قاد بها بعيرها بكل أمانة ، فائتمنه الله على بيته الحرام ، وجعل فيهم الحجابة .

وهو سبحانه الذى حفظ أم أيمن حاضنته صلى الله عليه وسلم فى هجرتها وحدها ، ولما عطشت نزل لها دلو من السماء فشربت منه شربة لم تعرف الظمأ بعدها (١)

إنه سبحانه الذى حفظ كتيبة الإيمان . ويحفظها وبفضله كثرت وعمت البلاد ، والحمدد لله رب العالمين .

وقد يقول قائل : وماذا نفهم من الشدائد التى نزلت ببعض المؤمنين فى الهجرة والجهاد وعموم الحياة ؟

وأقول : إن الله فتح للمؤمنين باب الأجر والمثوبة على مصراعيه وبين لهم ذلك فى كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فلا يصيب المسلم مكروه إلا وهو مثاب عليه ، يكفر الله عنه بذلك سيئات أو يرفعه بذلك درجات سواء كان ذلك فى الحياة العامة ، أو فى جانب الدين والدعوة .

قال سبحانه « وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (٢) »

---

(١) راجع الاصابة ٨ / ١٧٠ .

(٢) سورة البقرة آية ١٥٥ - ١٥٧ .

وقال سبحانه « لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ [١] »

لقد أثبتت الآيتان الابتلاء ، وأنه يصيب المسلم لكنهما أثبتتا عظيم الأجر له على الصبر .

وقال سبحانه « إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ [٢] »

فبين سبحانه الحكمة فى الابتلاء ، وأنه ابتلاء عظيم الفائدة للمسلمين فبدل أن يموت المسلم على فراشه يموت فى سبيل الله ، يحظى بالأجر العظيم والثواب الجزيل « ويتخذ منكم شهداء »

وبالابتلاء أيضاً يمحص الله الذين آمنوا » أى يكفر عنهم من ذنوبهم ، إن كانت لهم ذنوب ، وإلا رفع لهم درجاتهم بحسب ما أصيبوا به .

وبالابتلاء أيضاً « يمحق الكافرين » فإنهم إذا ظفروا بغوا وبطروا فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ، ومحقهم وفنائهم .

ويقول سبحانه « مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا

---

(١) سورة آل عمران آية ١٨٦ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٤٠ - ١٤٢ .

كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[١] »

أرأيت كيف أن الابتلاء مصدر خير على المسلمين ، يدمر الله به أعداءهم « يمحق الكافرين » ويعلى به درجاتهم « وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ[٢] »

سبحان الله ماتوا لكنهم « أحياء عند ربهم يرزقون » !!

ماتوا لكنهم « فرحين بما آتاهم الله من فضله » !!

ماتوا لكنهم « ويستبشرون . . . » و « يستبشرون » !!

وهكذا يتضح أن ما أصاب المؤمنين من شدائد فإنما هو إكرام من الله لهم يكفر السيئات ، ويزيد الحسنات ، ويعلى الدرجات ، ويجعل الحياة أطيب ما تكون بعد الممات ، يقول صلى الله عليه وسلم « لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله عز وجل أرواحهم فى أجواف طير خضر ، ترد أنهار الجنة ، تأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم ، وحسن منقلبهم قالوا : ياليت إخواننا يعلمون بما صنع الله لنا ، لئلا يزهدوا فى الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب [٣] قال الله عز وجل أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات على رسوله « وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ[٤] »

---

(١) سورة التوبة آية ١٢٠ ، ١٢١ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٦٩ - ١٧١ .

(٣) نَكَل عن الأمر : امتنع عنه : والمعنى : ولايمتنعوا عن الحرب . ونكل من باب ضرب نَكَل يَنْكل ، ومن باب نصر ، وعلم .

(٤) أخرجه أحمد ١/ ٢٦٥ ، ٢٦٦ وأبو داود فى الجهاد باب فى فضل الشهادة ٧/ ١٩٤ .

٣- المسلم يأخذ بالأسباب مؤمنا أن النتيجة من الله :-

ففى هجرته صلى الله عليه وسلم أخذ بالأسباب ، واجتهد فى ذلك ، فاختبأ فى الغار حتى يهدأ الطلب ، وركب الراحلة ، وطلب من سراقة أن يصرف الناس عن طريقهم ، وطلب القوت من مظانه ما استطاع .

لكنه بعد أن بذل السبب ، واختبأ فى الغار لم يَخَف المشركين حينما وصلوا إليه ، وقال لأبى بكر « إن الله معنا » يقينا بالله سبحانه ، وتوكلا عليه . وطلب الزاد من مظانه ، فلما لم يجده حلب شاة أعجزها الهزال عن الخروج مع الغنم ، أصحابها متأكدون من أنه لا حلب فيها ، لكنه صلى الله عليه وسلم يقينا بالله مسح ضرعها ودعا ، فمنّ الله الكريم ، وامتلأ ضرعها ، وحلب منها الكثير .

إنه صلى الله عليه وسلم بذل السبب فطلب اللبن من شاة ، لكنه لما كان السبب غير كاف دعا فاستجاب الله الرزاق ، سبحانه ، سبحانه .

٤- الإسلام دين الفطرة :-

إن الذين وقفوا فى وجه الدعوة وعاندوا ، والذين كادوا للدعوة خفية ونافقوا إنما دعاهم لذلك العصبية أو المنافع :

فتعصب أناس لقبائلهم ، وكيف تكون النبوة فى غير قبيلتهم .

وتعصب أناس لأمتهم ، فاغتاظ اليهود أن لا تكون النبوة الخاتمة فيهم .

ووقف فى وجهها أناس من أجل منافعهم ، إذ كانوا يرجون صدارة ، أو زعامة ، فجاءت النبوة غير مبقية على صدارة أو زعامة ، وإنما هى إمامة فى الخير .

أما صحاب الفطر السليمة ، والرأى الرشيد ، الذين لم تؤثر فيها أطماع أو أدواء فإنهم اتبعوا الإسلام مختارين ، وكانوا عليه حرصين ، وبه جد متمسكين . ذلك أن الإسلام دين الفطرة تسعد به وتحرص عليه ، إنه الدين الذى يوافق الطباع السليمة ، ويسعد العقول المستقيمة ، ولا يمكن لعقل منصف إلا أن يعترف بسمو الإسلام وعظمته .

إن المسلمين الأوائل هم أناس لم تؤثر أطماع على فكرهم ، ولم تطغ عصبيات على رشدهم فاختاروا الإسلام وتمسكو به ، فلما طغى أهل العصبيات والمصالح عليهم يسومونهم سوء العذاب ما أثر ذلك فى اختيارهم ومازادوهم إلا إيمانا !!

٥- قيمة الشىء باستقامته :-

إن مكة على الرغم من تاريخها الدينى البعيد كانت الهجرة منها ، وفى هذا دليل على أن عظمة الشىء ليست بتاريخه أو بما كان ، وإنما قيمة الشىء باعتداله واستقامته على دين الله .

فمهما كان الأب لا تكون قيمة الابن إلا بالصلاح .

ومهما كان المسلم صالحاً فقدره بدوام الاستقامة على دين الله ، وحسن الخاتمة . نسأل الله الهدى والصلاح دائماً أبداً وحتى نلقاه .

٦- لابد للإسلام من دولة :-

الاسلام دين له حدوده ومعالمه ، وهذا الدين لابد له من دولة توفر للناس حقهم الدينى ، وتعمل على نشر الإسلام بالحكمة .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يرض بمكة بعد أن أصبحت الدعوة الاسلامية فيها غير ممكنة لم يرض بها دولة ، واختار أن يهاجر إلى المدينة ، وهو يعرف ما بها من يهود ، وظهر بها بعد ذلك النفاق ، إلا أن مجموع أهلها معه مما أتاح للدعوة أن تنطلق فى بحبوحة ، وأتاح للمجاهدين أن ينشروا دين الله .

وهكذا لابد للإسلام من دولة تنطلق منها الدعوة ، على أنه لا يشترط أن تكون هذه الدولة كلها للإسلام ، بل يكفى معظمها ، وطريق الدعوة قد تكون فيه شدائد يثاب بها المخلصون .

وبعد

فهذه بعض الدروس المستفادة من الهجرة ، ذكرتهالتقيس عليها ، وتستبين بها غيرها من الدروس ، مثل : الله يسوق الأرزاق وإن لم تتوافر لها كل الأسباب . ومثل : الله قادر على كل شىء ، فلقد أعمى المشركين عن قافلة الهجرة فلم يروا من بداخل الغار . وصرع سراقة من على فرسه ، وغارت قوائمها فى الأرض . ومثل : ذكر الله طريق بلوغ الأمانى ، فلقد كان صلى الله عليه وسلم يكثر ذكر الله طول رحلة الهجرة فسلمه الله وبلغه غايته .

دروس كثيرة يمكنك أن تستفيدها عقب قراءة كل نقطة ، ونسأل الله أن يشرح صدورنا .

الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة
الأيام الأولى من العهد المدنى

٩- وصولهما قباء :

وكتب الله لهم السلامة ، ووصلوا الى ما يريدون ، وصلوا إلى علو المدينة إلى قباء فبينما كان الجو حارا ، وكان الأنصار قد سمعوا بخروجه صلى الله عليه وسلم من مكة المكرمة ، كانوا يخرجون كل يوم فى الصباح إلى الحرة ينتظرون وصول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا انتصف النهار ، وأصبح لا ظل للأشياء ، رجعوا إلى بيوتهم من شدة الحر ، ظلوا على ذلك أياماً ، وفى يوم اثنين من شهر ربيع الأول خرجوا لانتظاره صلى الله عليه وسلم حتى ردهم الحر إلى بيوتهم ، وفى أثناء ذلك طلع رجل من اليهود إلى مكان مرتفع ، وأشرف منه لغرض فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فلم يتمالك نفسه ونادى بأعلى صوته : يا معاشر العرب ، هذا جدكم - أى حظكم وصاحب دولتكم - الذى تنتظرون . وسمع المسلمون ذلك فحملوا سلاحهم ، وقابلوا رسول الله عليه وسلم وأصحابه خارج المدينة ، فأخذ بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم جهة اليمين إلى قباء وسأل صلى الله عليه وسلم أين أبو أمامة أسعد بن زرارة ؟ وإنما سأل عنه لأنه من السابقين إلى الإسلام من الأنصار . وأجاب سعد بن خيثمة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن أسعد ذهب فى الجهة القبلية . وسار صلى الله عليه وسلم حتى اذا طلع على النخل وجد الحياض المحيطة بالنخيل مملوءة بالمياه ، فالتفت الى أبى بكر وأخبره أن المنزل هنا ، فإن هذا المكان هو الذى رأيت فى رؤيتى أنه إليه هجرتى .

ونزل صلى الله عليه وسلم فى بنى عمرو بن عوف ، وجلس فى الظل وقام أبوبكر يتلقى الناس ويسلم عليهم ، ومن كان لا يعرف رسول الله صلى الله عليه

وسلم - وهم الأكثر - يظنون أبا بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولقد كانوا كثرة فظل وقتا يحييهم ويحيونه حتى ذهب الظل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذهب أبو بكر يظلل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بردائه ، فعرف الناس حينئذ رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأقبلوا يحيونه ، وهذا شأن الكبار من القوم .

أما الغلمان والخدام والنساء فعمتهم الفرحة ، وأخذوا يرددون هذا النبأ السعيد " الله أكبر جاء رسول الله ، الله أكبر جاء محمد ، الله أكبر جاء محمد ، الله أكبر جاء رسول الله " وأقام صلى الله عليه وسلم فى بنى عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة على أظهر الأقوال - فى خلالها أسس مسجد قباء الذى أسس على التقوى ، وصلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عن فائد مولى عبادل قال خرجت مع إبراهيم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبى ربيعة فأرسل إبراهيم بن عبد الرحمن إلى ابن سعد حتى إذا كنا بالعرج أتانا ابن سعد وسعد : الذى دل رسول الله صلى الله عليه وسلم على طريق ركوبة فقال إبراهيم أخبرنى ما حدثك أبوك ؟ قال ابن سعد حدثنى أبى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاهم ومعه أبو بكر وكان لأبى بكر عندنا بنت مسترضعة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد الاختصار فى الطريق إلى المدينة فقال له سعد هذا الغائر من ركوبه وبه لصان من أسلم يقال لهما المهانان فإن شئت أخذنا عليهما ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خذ بنا عليهما قال سعد فخرجنا حتى أشرفنا إذا أحدهما يقول لصاحبه هذا اليمانى فدعاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرض عليهما الاسلام فأسلما ثم سألهما عن اسمائهما فقالا نحن المهانان فقال بل أنتما المكرمان وأمرهما أن يقدما عليه المدينة فخرجنا حتى أتينا ظاهر قباء فتلقاه بنو عمرو بن عوف فقال النبى صلى الله عليه وسلم أين أبو أمامة أسعد بن

زرارة فقال سعد بن خيثمة : إنه أصاب قبلى يا رسول الله أفلا أخبره بذلك ؟ ثم مضى حتى إذا طلع على النخل فإذا الشرب مملوء فالتفت النبى صلى الله عليه وسلم إلى أبى بكر رضى الله عنه فقال يا أبا بكر هذا المنزل رأيتنى أنزل على حياض كحياض بنى مدلج »[1].

« عن عروة بن الزبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقى الزبير فى ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام ، فكسا الزبير رسول الله صلى الله عليه وسلم و أبا بكر ثياب بياض وسمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة ، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه ، حتى يردهم حر الظهيرة ، فانقلبوا يوماً بعد ما أطالوا انتظارهم ، فلما أوَوْا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه ، فبصر برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب ، فلم يملك اليهودى أن قال بأعلى صوته : يا معاشر العرب ، هذا جدكم الذى تنتظرون ، فثار المسلمون إلى السلاح ، فتلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر الحرة ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو بنى عوف وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول ، فقام أبوبكر للناس وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم صامتاً ، فظن من جاء من الأنصار . - ممن لم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم - يحى أبا بكر ، حتى أصابت الشمس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه ، فعرف الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك . فلبث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة وأسس المسجد الذى

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد . الفتح الربانى ٢٨٨/٢٠ رقم ١٥٠ وذكره فى المجمع ٥٨/٦ وقال : رواه عبد الله بن أحمد ، وابن سعد اسمه عبد الله ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات .

أسس على التقوى وصلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ركب راحلته فسار يمشي معه الناس ، حتى بركت عند مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهو يصلى فيه يومئذ رجال من المسلمين وكان مربداً للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين فى حجر أسعد بن زُرارة ، فقال رسول الله صلى عليه وسلم حين بركت به راحلته : هذا إن شاء الله المنزل . ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً فقالا : لا ، بل نهبه لك يا رسول الله فأبى رسول الله صلى عليه وسلم أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ، ثم بناه مسجداً ، وطفق رسول الله عليه وسلم ينقل معهم اللبن فى بنيانه ويقول - وهو ينقل اللبن :-

هذا الحمال لاحمال خيبر   هذا أبر ربنا وأطهر

ويقول : اللهم إن الأجر أجر الآخرة   فارحم الأنصار والمهاجرة

فتمثل بشعر رجل من المسلمين لم يُسم لى[1].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، نزل فى علو المدينة ، فى حى يقال لهم بنو عمرو بن عوف ، قال : فأقام فيهم أربع عشرة ليلة »[2].

« عن ابى بكر الصديق رضى الله عنه قال : ومضى رسول الله صلي الله عليه وسلم حتي قدم المدينة وخرج الناس حين دخلنا فى الطريق وصاح النساء والخدام والغلمان : جاء محمد ، جاء رسول الله ، الله أكبر جاء محمد ، جاء رسول الله .

---

(١) أخرجه البخارى . فتح ٢٣٩/٧ وصورته مرسل لكنه جاء متصلا عن عروة عن الزبير .

(٢) أخرجه البخارى . ٢٦٥/٧، وسيأتى بأطول من هذا إن شاء الله تعالى، وأخرجه أحمدأيضاً . الربانى ٢٨٩/٢٠. رقم ١٥١.

فلما أصبح انطلق فنزل حيث أمر »[١].

١٠- نزولهما فى قباء :-

وواضح من حديث سعد الدليل أنه صلى الله عليه وسلم سأل عن أسعد بن زرارة، وأنه كان معه سعد بن خيثمة . ولم يبين الحديث علي من نزل صلي الله عليه وسلم ، وإن كان يشير إلى نزوله على سعد بن خيثمة ، فإن الحديث يفيد أنه كان أقرب الناس اليه ، ومن الحريصين على أوامره صلى الله عليه وسلم .

والروايات تفيد أنه صلي الله عليه وسلم نزل على كلثوم بن الهدم [٢] وقول بعضهم إنه نزل على سعد بن خيثمة [٣] لا يعارض هذا إذ الجمع بينهما ممكن ، فلربما كان صلي الله عليه وسلم نازلاً على كلثوم بن الهدم ويجلس للناس في بيت سعد بن خيثمة، وذلك لأنه كان عز با لا أهل له وكان يقال لبيته : بيت الأعزاب .

عن ابن إسحق قال : نزل رسول الله صلي الله عليه وسلم بقباء على كلثوم بن هدم أخي بنى عمرو بن عوف ويقال بل نزل علي سعد بن خيثمة فأقام فى بنى عمرو بن عوف وأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف فصلى الجمعة الكبرى في المسجد ببطن الوادى قال ابن اسحق ثم نزل رسول الله صلي الله عليه وسلم علي أبى أيوب وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببناء مسجده فى تلك السنة[٤].

وفي فترة إقامته صلى الله عليه وسلم في قباء كان من أعماله تأسيس مسجد

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ١٢/٣، ١٣ وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٢) كلثوم بن الهدم - بكسر الهاء - وسكون الدال - ابن امرىء القيس بن الحارث بن زيد بن عبيد بن زيد بن مالك ابن عوف بن مالك بن الأوس الأنصارى الأوسى . اصابة ٦١٧/٥ رقم ٧٤٤٩.

(٣) سعد بن خيثمة بن الحارث بن مالك الإنصارى الأوسى أبو خيثمة . كان نقيب بنى عمرو بن عوف بالعقبة ، استشهد يوم بدر . إصابة ٥٥/٣ رقم ٣١٥٠ .

(٤) ذكره في المجمع ٦٢/٦ وعزاه للطبرانى ورجاله ثقات.

قباء الذى سيأتى الحديث عنه إن شاء الله تعالى .

١١- مسجد قباء :-

لبث صلي الله عليه وسلم فى بنى عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة -كما تقدم - فى خلال هذه الفترة أسس مسجد قباء .

وفي حديث عروة - الذي تقدم فى « وصولهما قباء » - « فلبث رسول الله صلي الله عليه وسلم فى بنى عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة ، وأسس المسجد الذي أسس على التقوى وصلى فيه رسول الله صلي الله عليه وسلم ، وهذا يفيد أن قول الله تعالى « لمسجد أسس علي التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه » إنما هذا وصف لمسجد قباء .

وفى رواية أخري عن عروة عند عبد الرزاق قال : الذين بنى فيهم المسجد الذي أسس على التقوى هم بنو عمرو بن عوف .

وعلي هاتين الروايتين وغيرهما فمسجد قباء هو الذى أسس على التقوي من أول يوم. لكن جاءت أحاديث مرفوعة مصرحة بأن هذه الصفة لمسجد رسول الله صلي الله عليه وسلم .

فعن أبى سعيد الخدرى قال: اختلف رجلان رجل من بني خُدْرة، وفى لفظ تماريت أنا ورجل من بني عمرو بن عوف في المسجد الذى أسس على التقوى فقال الخدرى: هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال العَمْرِى :هو مسجد قباء فأتيا رسول الله صلي الله عليه وسلم فسألاه عن ذلك فقال : هو هذا المسجد . لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال فى ذلك خيركثير يعنى مسجد قباء»[١] .

---

(١) ذكره في الدر ٣/٢٧٧ وعزاه لابن ابي شيبة وأحمد ومسلم والترمذي والنسائى وأبى يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم وابن خزيمة وابن حبان وابي الشيخ والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل .

« عن سهل بن سعد الساعدى قال اختلف رجلان علي عهد رسول الله صلي الله عليه وسلم في المسجد الذى أسس علي التقوى فقال أحدهما هو مسجد الرسول الله صلي الله عليه وسلم وقال الآخر هو مسجد قباء فأتيا النبى صلي الله عليه وسلم فسألاه فقال هو مسجدى هذا »(١).

« عن أبى بن كعب قال سألت النبى صلي الله عليه وسلم عن المسجد الذى أسس على التقوى فقال هو مسجدى هذا »(٢).

عن زيد بن ثابت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن المسجد الذى أسس على التقوى فقال هو مسجدى هذا(٣).

قال الحافظ : وقد اختلف في المراد بقوله تعالى « لمسجد أسس علي التقوى من أول يوم » فالجمهور علي أن المراد به مسجد قباء وهذا هو ظاهر الآية . ثم ساق بعض الأحاديث السابقة المفيدة أن المراد بالمسجد الذى فى الأية مسجد الرسول صلي الله عليه وسلم ، ثم وفق توفيقاً طيباً فقال : والحق أن كلاً منهما أسس على التقوى ، وقوله تعالى في بقية الآية « فيه رجال يحبون أن يتطهروا » يؤيد كون المراد مسجد قباء ، وعند أبى داود بإسناد صحيح عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : نزلت « فيه رجال يحبون أن يتطهروا » في أهل قباء ، وعلى هذا فالسر في جوابه صلي الله عليه وسلم بأن المسجد الذى أسس على التقوى مسجده رفع توهم أن ذلك خاص بمسجد قباء . والله أعلم .

---

(١) ذكره في الدر٣/٢٧٧ وعزاه لابن أبى شيبة واحمد وعبد ابن حميد والزبير بن بكار في أخبار المدينة وأبي يعلى وابن حبان والطبراني والحاكم في الكنى وابن مردويه .

(٢) ذكره في الدر ٣/٢٧٧ وعزاه لابن أبى شيبة وأحمد وابن المنذر وأبى الشيخ وابن مردويه والخطيب والضياء في المختارة .

(٣) ذكره فى الدر٣/٢٧٧ وعزاه للطبرانى والضياء المقدس فى المختارة .

ثم نقل عن الداودى وغيره قولهم : ليس هذا اختلافا . لان كلا منهما أسس على التقوى أ هـ[١].

قلت :- ماذكر عن أبي هريرة عند أبي داود من أن وصف « فيه رجال يحبون أن يتطهروا » وارد فى أهل قباء ، ليس عند أبى داود وحده ، ولا عن أبى هريرة وحده . وإنما عند الترمذى وابن ماجه وابي الشيخ وابن مردويه مع ابي داود عن ابي هريرة .

وعند أحمد وابن خزيمة والطبرانى والحاكم وابن مردويه عن عويم بن ساعدة .

وعند ابن ماجه وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الجارود في المنتقى والدار قطنى والحاكم وابن مردويه وابن عساكر عن طلحة بن نافع قال : حدثنى أبو أيوب وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك رضي الله عنهم[٢].

وقلت :- مانقله عن الداودى وغيره فهو عند ابن كثير وبأسلوب أوضح[٣].

بل أخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن سيرين أنه كان يرى كل مسجد بني بالمدينة أسس علي التقوى .

ومسجد قباء هذا هو أول مسجد صلي فيه رسول الله صلي الله عليه وسلم بأصحابه جماعة ظاهراً ، وهو أول مسجد بني لجماعة المسلمين عامة ، وإن كان قد تقدم بناء غيره من المساجد لكن لخصوص الذي بناها كما تقدم في حديث عائشة في بناء أبى بكر مسجده . وروى ابن أبى شيبة عن جابر قال : لقد لبثنا بالمدينة قبل أن يقدم علينا رسول الله صلي الله عليه وسلم بسنين نعمر المساجد ونقيم الصلاة . . أ هـ[٤].

---

(١) فتح ٢٤٥/٧ .

(٢) راجع الدر المنثور ٢٧٨/٣ ففيه خير كثير.

(٣) راجع تفسير ابن كثير في تفسير الآية وهى آية ١٠٨ من سورة التوبة.

(٤) فتح ٢٤٥/٧.

وقد ورد أن لعمار بن ياسر يدً طولى في بناء هذا المسجد فروي يونس بن بكير في « زيادات المغازى » عن المسعودي عن الحكم بن عتيبة قال « لما قدم النبى صلى الله عليه وسلم فنزل بقباء قال عمار بن ياسر : مالرسول الله صلي الله عليه وسلم بد من أن نجعل له مكاناً يستظل به إذا استيقظ ويصلى فيه فجمع حجارة فبني مسجد قباء ، فهو أول مسجد بنى ، يعنى بالمدينة »[1].

وقد جاءت أحاديث كثيرة في فضائل مسجد قباء هذا

« فعن أسيد بن ظهيرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال صلاة فى مسجد قباء كعمرة »[2].

وعن سهل « بن حنيف قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من خرج حتى يأتى هذا المسجد مسجد قباء فيصلي فيه كان كعدل عمرة »[3].

« عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « كان النبى صلي الله عليه وسلم يأتى مسجد قباء كل سبت ماشياً وكان عبد الله رضى الله عنه يفعله » .

وعن ابن عمر رضى عنهما قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم يأتى قباء راكبا وماشياً وزاد فى رواية فيصلي فيه ركعتين »[4].

وعن ظهير بن رافع الحارثى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من صلى فى مسجد قباء يوم الآثنين والخميس انقلب بأجر عمرة »[5].

« عن ابن عمر رضى الله عنها قال : كان النبى صلي الله عليه وسلم يكثر

---

(١) ذكره فى الفتح ٧/٢٤٥ ، وأخرجه الحاكم فى المستدرك ٣/٣٨٥ .

(٢) ذكره في الدر ٣/٢٧٧ وعزاه لابن ابى شيبة والترمذى والحاكم وصححاه وابن ماجه، وقال . قال الترمذى: لا نعرف لأسيد بن ظهيرة شيئاً يصح غير هذا الحديث

(٣) ذكره فى الدر ٣/٢٧٨ وعزاه لابن أبى شيبة وأحمد والنسائى وابن ماجه .

(٤) أخرجهما البخارى . فتح ٣/٦٩ رقم ١١٩٣، ١١٩٤.

(٥) ذكره فى الدر ٣/٢٧٨ وعزاه لابن سعد

الاختلاف إلى قباء راكباً وماشياً»[1].

عن سعد بن أبى وقاص قال : لأن أصلى في مسجد قباء ركعتين أحب إلى من أن آتى بيت المقدس مرتين ، لو يعلمون مافى قباء لضربوا إليه أكباد الإبل»[2].

١٢- دخولهما المدينة :-

وأمضي صلي الله عليه وسلم ماشاء الله له في قباء ، وشاء الله له أن يدخل المدينة ، فأرسل رجلاً إلى الأنصار يؤذنهم بمجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء الأنصار خاصة بنو النجار جاءوا متقلدين سيوفهم ، وذاع الخبر فى المدينة بانتقاله صلى الله عليه وسلم من بني عمرو بن عوف إلى مكان آخر ، فاجتمع كثيرون حوله صلى الله عليه وسلم .وركب صلى الله عليه وسلم راحلته ، وأبو بكر كذلك ، والأنصار حولهما بالسلاح قائلين « انطلقا آمنين مطاعين » وسبحان الله العظيم ، لقد أصبح الجمع الكثير لهم لاعليهم كما كان فى مكة ، وأصبح الجميع يحرص على أمنهما ، والجميع مؤمن مطيع !! وصدق الله العظيم « حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ »[3].

وبدأ صلي الله عليه وسلم رحلته الي المدينة ، ورغم قصر المسافة - إذ إن مابين مسجد قباء والمسجد النبوى مسافة فرسخ - إلا أن كثرة من يقابلونه ، ويودون نزوله صلي الله عليه وسلم فيهم جعل المسافة القصيرة تأخذ وقتاً طويلاً ، فما مر على دار من ديار المدينة الا استوقفه أهلها يرجون نزوله فيهم ، وكان في المدينة يومئذ دور كثيرة تبلغ تسعاً ، كل دار محلة مستقلة بمساكنها ونخيلها وزروعها ،

---

(١) ذكره في الدر (٢٧٨/٣)، وعزاه لابن أبي شيبة والحاكم وصححه.

(٢) ذكره فى الفتح ٦٩/٣ عن عمر بن شبه فى أخبار المدينه ، وصحح الحافظ اسناده .

(٣) سورة يوسف آية ١١٠.

وأهلها ، كل قبيلة من قبائلهم قد اجتمعوا في محلتهم وهي كالقرى المتلاصقة [1] تجد هذا واضحاً في قوله صلي الله عليه وسلم « خير دور الأنصار بنو النجار ، ثم بنو عبد الأشهل ، ثم بنو الحارث بن الخزرج ، ثم بنو ساعدة ، وفي كل دور الأنصار خير »[2].

وما مر صلى الله عليه وسلم علي أهل دار إلا وحاولوا أن ينزلوه عليهم ، وخرج فى الصباح فأدركته الجمعة في الطريق فنزل في بنى سالم بن عوف وصلاها في المسجد الذي فى بطن الوادى ، وادي رانوناء - بوزن عاشوراء - وحاول عتبان بن مالك مع رجال من بنى سالم أن يحظوا بموافقته صلي الله عليه وسلم على الإقامة فيهم ، لكنه صلي الله عليه وسلم تابع رحلته ، وهو عازم علي النزول في بني النجار ، أخوال جده عبد المطلب ، إكراماً لهم ، وما مر علي قوم الا أخذوا بزمام ناقته ، وهو يردد : « دعوها فإنها مأمورة »

فمر صلي الله عليه وسلم على بنى سالم ، وعلى بنى بياضة ، وعلي بنى ساعدة ، وعلي بنى عدى . واستمر حتى نزل في دار بني مالك بن النجار ، حيث بركت ناقته ، وكان ذلك أمام دار أبى أيوب الأنصارى ، فاستضاف رسول الله صلي الله عليه وسلم ، وكان صاحب الحظوة بذلك .

وكان بروك الناقة في مكان يصلي فيه المسلمون يومئذ ، وكان مِرْبداً للتمر لسهل وسهيل يتيمين في حَجْر أسعد بن زرارة ، فاتخذه صلي الله عليه وسلم مسجداً - كما سيأتى الحديث عنه تفصيلاً إن شاء الله تعالى -

وفى أثناء رحلته صلي الله عليه وسلم هذه كان الجميع يحب أن يراه ، فالعواتق فوق البيوت . والغلمان ، والإماء ، فى الطرقات ، والرجال يحيطون به صلى الله

---

(١) راجع سيرة ابن كثير ٢ / ٢٨٠.

(٢) أخرجه البخارى . فتح ٧/ ١١٥ رقم ٣٧٨٩.

عليه وسلم ، وربما صعد بعض الرجال فوق البيوت حرصاً علي مشاهدته صلي الله عليه وسلم ، والكل ينادي : يامحمد ! يارسول الله ! يامحمد ! يارسول الله ! تعبيراً عن الفرحة والسرور ، وأشرقت المدينة بحلوله صلي الله عليه وسلم بها ، فأضاء كل شيء فيها ، وبدا كل شيء فيها جميلاً ، كيف لا وقد أصبح رسول الله صلي الله عليه وسلم فيها ؟

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :إنى لأسعي في الغلمان يقولون جاء محمد فأسعى فلا أرى شيئاً ثم يقولون جاء محمد فأسعى فلا أرى شيئاً قال حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر فكنا في بعض حرار المدينة ثم بَعَثا رجلاً من أهل المدينة ليؤذن بهما الأنصار فاستقبلهما زهاء خمسمائة من الأنصار حتي انتهوا اليهم فقالت الأنصار انطلقا آمنين مطاعين ، فأقبل رسول الله صلي الله عليه وسلم وصاحبه بين أظهرهم فخرج أهل المدينة حتي إن العواتق لفوق البيوت يتراءينه يقلن أيهم هو؟ أيهم هو؟ قال فما رأينا منظراً مشبهاً به يومئذ »[١].

عن انس بن مالك رضي الله عنه أن رسول لله صلي الله عليه وسلم قدم المدينة، فنزل في علو المدينة ، في حي يقال لهم بنو عمرو بن عوف ، فأقام فيهم أربع عشرة ليلة . ثم انه أرسل الي ملاء بني النجار فجاءوا متقلدين بسيوفهم . قال فكأنى أنظر الي رسول الله صلي الله عليه وسلم علي راحلته وأبو بكر ردفه ، وملأ بنى النجار حوله . حتى ألقى بفناء أبى آيوب »[٢].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : فنزل رسول الله صلي الله عليه

---

(١) أخرجه أحمد الفتح الربانى ٢٠/٢٩١ رقم ١٥٥.

(٢) أخرج مسلم في المساجد باب ابتناء مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ١/٣٧٣ مطولاً وأخرجه البخارى . فتح ٧/٢٦٥

وسلم جانب الحرة ، ثم بعث إلى الأنصار فجاءوا الى نبي الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر فسلموا عليهما وقالوا : اركبا آمنين مطاعين . فركب نبي الله صلي الله عليه وسلم وأبو بكر وحفوا دونهما بالسلاح فقيل فى المدينة ، جاء نبى الله صلي الله عليه وسلم فأشرقوا ينظرون ويقولون : جاء نبى الله فأقبل يسير حتى نزل جانب دار أبى أيوب فانه ليحدث أهله اذ سمع به عبدالله بن سلام وهو في نخل لأهله يخترف لهم ، فعجل أن يضع الذى يخترف لهم فيها ، فجاء وهي معه ، فسمع من نبى الله صلي الله عليه وسلم ثم رجع إلي أهله ، فقال نبي الله صلي الله عليه وسلم : أى بيوت أهلنا أقرب ؟ فقال أبو أيوب : أنا يانبى الله ، هذه داري وهذا بابى . قال : فانطلق فهيء لنا مقيلاً . قال : قوما علي بركة الله[١].

قال الحافظ « وقع عند ابن إسحاق وابن عائذ أنه ركب من قباء يوم الجمعة فأدركته الجمعة فى بنى سالم بن عوف فقالوا : يا رسول الله هلم الى العدد والعُدد والقوة انزل بين أظهرنا . وعند أبى الأسود عن عروة نحوه وزاد : وصاروا يتنازعون زمام ناقته . وسمى ممن سأله النزول عندهم عتبان بن مالك فى بنى سالم، وفروة بن عمرو فى بنى بياضة ، وسعد بن عبادة والمنذرين بن عمرو وغيرهما فى بنى ساعدة ، وأبا سليط وغيره فى بنى عدى ، يقول لكل منهم «دعوها فإنها مأمورة»[٢].

« عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : شهدت يوم دخل النبى صلى الله عليه وسلم المدينة فلم أر يوماً أحسن ولا أضوأ منه »[٣].

« عن أنس بن مالك قال : لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله صلى الله

(١) أخرجه البخارى ٢٤٩/٧ ، ٢٥٠ جزء من حديث .
(٢) فتح البارى ٢٤٥/٧ .
(٣) أخرجه فى المستدرك ١٢/٣ وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

عليه وسلم المدينة أضاء منها كل شيء»[1].

عن أبي بكر - في حديث الهجرة - قال : فقدمنا الهجرة ليلاً ، فتنازعوا أيهم ينزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « أنزل على بنى النجار ، أخوال عبد المطلب ، أكرمهم بذلك » فصعد الرجال والنساء فوق البيوت ، وتفرق الغلمان والخدم فى الطرق . يُنادون : يا محمد ! يا رسول الله! يا محمد! يا رسول الله[2].

١٣- نزوله صلى الله عليه و سلم بدار أبي أيوب :-

وعندما بركت ناقته صلى الله عليه وسلم تساءل أى بيوت أهلنا أقرب ؟ وأطلق عليهم أهله لما بينه وبين بنى النجار من قرابة فوالدة جده عبد المطلب هى سلمى بنت عوف وهى من بنى مالك بن النجار ، وكان أبو أيوب حاضراً ، وهو من بنى النجار ، فأجاب والسعادة تملأ بدنه أنا يا نبى الله ، ولفرط السعادة لم يكتف بهذا الجواب وانما زاد « هذه دارى ، وهذا بابى » فقال له صلى الله عليه وسلم « فانطلق فهيىء لنا مكانا نقضى فيه وقت القيلولة ، وانطلق أبو أيوب سريعا فأعد المكان ثم جاء قائلاً : قوما على بركة الله ، فقام صلى الله عليه وسلم وصديقه أبو بكر فنزلا دار أبى أيوب ، ونزل صلى الله عليه وسلم فى الطابق الأول من بيت أبي أيوب ، وأصبح أبو أيوب وأهله فى الطابق الثانى ، الا أن أبا أيوب كره أن يكون فى الطابق الثانى ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الطابق الأول ، فطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون فى الدور الثانى ، وأن ينزل أبو أيوب وأهله في الدور الأول ، وبين له صلى الله عليه وسلم أن الدور الأول أرفق به وبزائريه ، إلا أن أبا أيوب لم يزل يسأله صلى الله عليه وسلم

---

(١) ذكره فى الخصائص ٤٧١/١ وعزاه لابن سعد وأخرجه ابن حبان . موارد صـ ٥٣٠ رقم ٢١٦٢ بأطول من هذا .

(٢) أخرجه مسلم فى الزهد باب فى حديث الهجرة ٢٣١١/٤ .

الصعود حتى تحول صلى الله عليه وسلم الى العلو ويظهر للباحث مدى تقدير أبى أيوب لرسول الله صلى الله عليه وسلم من بعض تصرفاته التى سجلتها السنة وسأسوق بعض النصوص المتضمنة لها - وهى :-

١- رفض أبو أيوب إلا أن يكون رسول الله صلي الله عليه وسلم فى العلو ، وهو وأهله فى السفل .

٢- قبل موافقة رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصعود ، رفض أبو أيوب المشى فوق الجزء الذى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من البيت وكانوا فى الجانب الآخر .

٣- قبل موافقة رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصعود ، وبينما كان أبوأيوب فى العلو انكسرت جرة وأهريق ماؤها ، فقام أبو أيوب وزوجته أم أيوب بقطيفة عندها هى غطاؤهم يجففان الماء خشية أن يصل منه شيء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيؤذيه .

٤- كان أبو أيوب بعد أن يعود بالطعام من أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل عن موضع أصابعه صلى الله عليه وسلم فيتتبع أثر أصابعه صلى الله عليه وسلم ؛ تبركا بآثار رسول الله صلى الله عليه و سلم .

« عن أبى أيوب أن النبى صلى الله عليه وسلم نزل عليه ، فنزل النبى صلى الله عليه وسلم فى السفل وأبو أيوب فى العلو . قال فانتبه أبو أيوب ليلة فقال : نمشى فوق رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنحوا . فباتوا فى جانب . ثم قال للنبى صلى الله عليه وسلم . فقال النبى صلى الله عليه وسلم السفل أرفق فقال : لا أعلوا سقيفة أنت تحتها . فتحول النبى صلى الله عليه وسلم في العلو،

وأبو أيوب فى السفل . فكان يصنع للنبى صلى الله عليه وسلم طعاماً . فإذا جىء به إليه سأل عن موضع أصابعه ، فيتتبع موضع أصابعه . فصنع له طعاماً فيه ثوم . فلما رُدَّ إليه سأل عن موضع أصابع النبى صلى الله عليه وسلم فقيل له : لم يأكل . ففزع وصعد إليه . فقال : أحرام هو ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا ولكنى أكرهه . قال : فإنى أكره ما تكره أو ما كرهت . قال : وكان النبى صلى الله عليه وسلم يؤتى »[1].

« عن أبى أيوب قال لما نزل علىَّ رسول الله صلي الله عليه وسلم قلت بأبى أنت وأمى أكره أن أكون فوقك وتكون أسفل منى فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إنه أرفق بى أن أكون فى السفلى لما يغشانا من الناس قال فلقد رأيت جرة لنا انكسرت فأهريق ماؤها فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء فرقاً أن يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شىء يؤذيه »[2].

« عن عبد الله بن الزبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة ، فاستناخت به راحلته بين دار جعفر بن محمد بن على وبين دار الحسن بن زيد ، فأتاه الناس ، فقالوا : يا رسول الله المنزل . فانبعثت به راحلته فقال « دعوها فإنها مأمورة » ثم خرجت به حتى جاءت موضع المنبر ، فاستناخت ثم تحللت ، وثمَّ عريش كانوا يعرشونه ويعمرونه ويتبردون فيه ، فنزل رسول الله صلي الله عليه وسلم عن راحلته فيه فآوى إلى الظل فأتاه أبو أيوب فقال : يا رسول الله إن منزلى أقرب المنازل إليك فأنقل رحلك إلىَّ ! قال : نعم . فذهب برحله إلى المنزل ، ثم أتاه رجل فقال يا رسول الله أين تحل ؟ قال : « إن الرجل مع رحله حيث كان » وثبت

---

(١) أخرجه مسلم ١٦٢٣/٣ رقم ١٧١ .

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك ٣ / ٤٦٠ وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وأقره الذهبى

رسـول الله صلى الله عليـه وسلم فى العـريش اثنتى عـشـرة ليلة حـتى بنى المسجد[١].

وذكر الحافظ نقلا عن ابن سعد أن مدة إقامته صلى الله عليه وسلم فى دار أبى أيوب كانت سبعة أشهر ، ولم يناقش الحافظ هذا القول لابن سعد، وكأنه أقره[٢].

وكذا ابن كثير لم يذكر سوي هذا القول ولم يناقشة[٣].

لكن أخرج الحـاكم عن أبي أيوب أن رسـول الله صلي الله عليـه وسلم أقـام في بيته شهراً واحداً .

وهذا الذى عند الحاكم يقويه مـا تقدم عند البيهـقى ، فـإذا كـان صلى الله عليـه وسلم قد بنى المسجد فى اثنى عشر يوماً ، فإن بناء بيته صلى الله عليـه وسلم ما كان ليزيد على ما بقى من الشهر .

« عن أبى أيوب الأنصارى قال نزل عليّ رسول الله صلى الله عليـه وآله وسلم شهراً فنقبت فى عـمله كله فرأيتـه إذا زالت أو زاغت الشـمس أو كـمـا قـال ان كـان في يده عمل الدنيـا رفضه وإن كـان نائماً فكأنما يوقظ له فـيقوم فيغسل أو يتوضأ فيصلى ثم يركع أربع ركعات يتمهن ويحسنهن ويتمكن فيـهن فلما أراد أن ينطلق قلت يا رسول الله مكثت عندى شـهراً ووددت أنك مكثت أكثر من ذلك ، فنقبت فى عـملك كله فرأيتك إذا زالت الشـمس أو زاغت فـان كان فى يدك عـمل الدنيـا رفضتـه وأخذت فـى الصـلاة فـقـال رسول الله صلى الله عليـه وآله وسلم إن أبواب السماء يفتحن فى تلك الساعة فلا يرتجن أبواب السماء و أبواب الجنة حتى

(١) ذكره ابن كثير عن البيهقى بإسناده . السيرة ٢٧٩/٢، ٢٨٠ .

(٢) راجع الفتح ٢٤٦/٧ .

(٣) راجع السيرة ٢٧٩/٢.

تصلى هذه الصلاة فأحببت أن يصعد إلى ربى فى تلك الساعات خير وأن يرفع عملى فى أول عمل العابدين »[1].

والقول بإقامته صلى الله عليه وسلم فى دار أبي أيوب شهراً هو ما في التهذيب [2] .

ولقد كان جل الصحابة يعرف هذا الفضل لأبى أيوب ، فهو الذى سكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته ، وتنازل هو عن بيته لرسول الله ، وقام على خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه المدة .

وكان دقيق الملاحظة لكل ما يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليأخذ الدين من رسول الله نفسه ، يبدو هذا جليا فيما سقته من حديث أبى أيوب عند الحاكم وفيه « فنقبت فى عمله كله . . . »

وكما كان دقيق الملاحظة كان سريع الامتثال يظهر هذا من حديث مسلم عن أبى أيوب الذى سقته ، فإنه ترك الطعام لترك رسول الله صلى الله عليه وسلم إياه .

ومن معرفة الصحابة حق أبى أيوب ما فعله ابن عباس رضى الله عنهما حينما كان عاملا لعلى على البصرة وأتاه أبو أيوب ، فإنه أراد أن يرد اليه شيئاً مما فعله برسول الله صلى الله عليه وسلم فترك له بيته يقيم فيه ،وأعطاه أكثرمن حاجته .

« فعن ابن عباس أن أبا أيوب أتاه بالبصرة وقد أمّره على - رضوان الله عليه - عليها فقال : يا أبا أيوب إنى أريد أن أخرج لك من مسكنى كما خرجت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر أهله فخرجوا وأعطاه كل شىء كان فى الدار ،

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك ٣/٤٦١ .
(٢) تهذيب التهذيب لابن حجر ٣/٩٠ .

فلما كان وقت انطلاقه قال : حاجتك ؟ قال حاجتى عطائى وثمانية أعبد يعملون فى أراضى - وكان عطاؤه أربعة آلاف - فأضعفها له خمس مرار وأعطاه عشرين ألفاً وأربعين عبداً »[1].

وأبو أيوب اسمه خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة . من بنى النجار ، وبنو النجار من الخزرج بن حارثة .

شهد العقبة وبدراً والمشاهد كلها وعمّر طويلا حتى اشترك فى جيش فتح القسطنطينية ومات بها ودفن فى أصل سور القسطنطينية سنة اثنتين وخمسين[2].

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك ٣/٤٦١ ، ٤٦٢ وقال : قد تقدم هذا الحديث بإسناد متصل صحيح ، وأعدته للزيادات فيه بهذا الاسناد . وكان هذا الحديث قد تقدم عنده ٣/٤٥٩ وفى٣/ ٤٦٠

(٢) ذكر الحاكم مناقبه فى المستدرك ٣/٤٥٧ - ٤٦٢ وترجمته فى التهذيب ٣/ ٩٠ .

من أوائل أعماله صلى الله عليه وسلم فى المدينة :-

١- بناء المسجد النبوى :-

وفى المكان الذى بركت فيه ناقته صلى الله عليه وسلم ، والذى كان يصلى يومئذ فيه رجال من المسلمين ، فى هذا المكان أُمر صلى الله عليه وسلم ببناء المسجد ، فأرسل الى بنى النجار فجاءوا فطلب منهم أن يقرروا معه ثمن المِرْبَد - الموضع الذى يجفف فيه التمر- وكان المربد آنذاك ليس مقصوراً على تجفيف التمر فيه ، بل كان فيه قبور المشركين وفيه نخيل ، و فيه خرب ، وكان ملكا ليتيمين من بنى النجار هما سهل وسهيل ابنى عمرو ،كان هذان اليتيمان فى حجر أسعد بن زرارة .

وأبى بنو النجار أن يأخذوا لهذا المكان ثمنا ، فسأل صلى الله عليه وسلم عن المالك لهذا المكان ، وعلم أنه سهل وسهيل فساومهما فى ثمنه واشتراه منهما كما جاء فى رواية عروة بن الزبير عند البخارى « ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً ، فقالا : بل نهبه لك يارسول الله فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ثم بناه مسجداً »(١).

وبعد أن اشترى صلى الله عليه وسلم المكان منهما ابتدأ هوومن معه فى تأهيل المكان لبناء المسجد ، فنبشوا قبور المشركين ، وسووا الخرب ، وقطعوا النخل .

ثم بدءوا في بناء المسجد يشاركهم صلى الله عليه وسلم فى ذلك ، بل إنه كان الأسبق حتى قال قائلهم - فيما ذكره الزبير .

لئن قعدنا والرسول يعمل ∴ ذاك إذا العمل المضلل

فكان صلى الله عليه وسلم ينقل معهم اللبن - الطوب المعمول من الطين ولم

---

(١) فتح ٧/٢٣٩، ٢٤٠.

يحرق - والصخر ، وهم جميعاً يرددون بيتين من الشعر ينمان عن حب القوم لدينهم ، وحسن ظنهم بالله ، وأنه سبحانه سيثيبهم على هذا الذى يعملونه ، يرددون: هذا الحمال لاحمال خيبر ∴ هذا أبر ربنا وأطهر

ومعناه : هذا المحمول من اللبن مواد بناء المسجد هو الجدير بأن يحرص علي حمله، أما المحمول من خيبر من تمر وزبيب فليس جديراً بأن يحرص عليه ، هذا المحمول أبر ياربنا وأطهر من كل ما عداه ، فبه يبنى بيت تعبد فيه سبحانك .

ويرددون أيضًا:

اللهم إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

كما فى رواية عروة عند البخارى . وفى رواية أنس عند البخارى أيضا

اللهم إنه لاخير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة

وفى إنشادهم هذا دليل على مدى ما كانوا يتمتعون به أثناء عملهم ، من قوة الهمم ، وإقبال على العمل .

وكل كان يبذل غاية وسعه فى العمل ، فمن استطاع حمل لبنة حمل ، ومن استطاع حمل لبنتين فعل .

« عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة نزل فى علو المدينة ، فى حى يقال لهم بنو عمرو بن عوف ، قال فأقام فيهم أربع عشرة ليلة ، ثم أرسل إلى ملأ بنى النجار ، قال فجاءوا متقلدى سيوفهم . قال وكأنى أنظر إلى رسول الله صلي الله عليه وسلم على راحلته وأبوبكر ردفه وملأ بنى النجار حوله حتى ألقى بفناء أبى أيوب ، قال : فكان يصلى حيث أدركته الصلاة ويصلى فى مرابض الغنم . قال : ثم إنه أمر ببناء المسجد ، فأرسل إلى ملأ بنى النجار فجاءوا . فقال : يا بنى النجار ثامنونى بحائطكم هذا، فقالوا : لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله . قال فكان فيه ما أقول لكم : كانت فيه قبور المشركين وكانت فيه خرب وكان فيه نخل . فأمر

رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبور المشركين فنشبت وبالخرب فسويت وبالنخل فقطع ، قال فصفوا النخل قبلة المسجد ، قال وجعلوا عِضَادَتَيْه حجارة . قال جعلوا ينقلون ذاك الصخر وهم يرتجزون ورسول الله صلى الله عليه وسلم معهم يقولون :

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة[(١)]

وفى حديث عروة الذى تقدم « فسار يمشى معه الناس حتى بركت عند مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وهو يصلى فيه يومئذ رجال من المسلمين ، وكان مِربْداً للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بركت به راحلته : هذا إن شاء الله المنزل ، ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً . فقالا : لا ، بل نهبه لك يا رسول الله ، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ، ثم بناه مسجداً ، وطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل معهم اللبن فى بنيانه ويقول - وهو ينقل اللبن .

هذا الحِمَال لاحمال خيبر ∴ هذا أبر ربنا وأطهر

ويقول اللهم إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

فتمثل بشعر رجل من المسلمين لم يسم لى[(٢)].

« عن أبى سعيد قال : كنا نحمل لبنة لبنة وعمار لبنتين لبنتين[(٣)]!

وكان يقرب كل شخص فيما هو ماهر فيه ، فكل صاحب صنعة تسند إليه صنعته ، فمن كان يجيد صناعة الطوب قدم في ذلك ، ومن كان نجاراً قدم في النجارة .

---

(١) أخرجة البخارى . فتح ٢٦٥/٧ رقم ٣٩٣٢ .

(٢) أخرجه البخارى . فتح ٢٣٨/٧ - ٢٤٠ وصورته وان كانت صورة المرسل لكنه عن عروة عن الزبير كما وصله الحاكم .

(٣) أخرجه البخارى ، فتح ٥٤١/١ .

ومما يوضح ذلك حديث طلق بن على [١] قال : بنيت المسجد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يقول ! قربوا اليمامى من الطين ، فإنه أحسنكم له مساً ، وأشدكم له سبكاً وفى رواية « فأخذت المسواة فخلطت الطين فكأنه أعجبه فقال : دعوا الحنفى والطين فإنه أضبطكم للطين »[٢].

ورواه ابن حبان ولفظه « فقلت يا رسول الله أأنقل كما ينقلون ؟ فقال : لا ولكن اخلط لهم الطين فأنت أعلم به »[٣].

وصف بناء المسجد :-

كان بناء مسجده صلى الله عليه وسلم كما جاء عن ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ما أمرت بتشييد المساجد » وقال ابن عباس : لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى[٤].

والتشييد : رفع البناء وتطويله . كما نقله الحافظ عن البغوى[٥].

فكان مسجده صلى الله عليه وسلم أساس بنائه القصد ، وترك الغلو . وهذا هو السنة .

فبنى المسجد باللَّبِن - بفتح اللام وكسر الباء الموحدة وهو الطوب المعمول من الطين ولم يحرق - وكان سقفه الجريد ، وعمده خشب النخل . وعضادتى الباب من الصخر . يوضح ذلك حديث أنس الذى سبق فى هذا الموضوع - بناء المسجد

(١) هو طلق بن على بن طلق بن عمرو - ويقال فى نسبه غير ذلك - الحنفى السحيمى أبو على . اصابة ٥٣٨/٣ رقم ٤٢٨٧ .
(٢) رواه أحمد . كذا فى الفتح ٥٤٣/١ .
(٣) ذكره فى الفتح ٥٤٣/١ وراجع زوائد ابن حبان صـ ٩٨ رقم ٣٠٣ .
(٤) أخرجه أبو داوود . جامع الأصول ٢٠٩/١١ .
(٥) الفتح ٥٤٠/١ .

النبوى - وحديث عبد الله بن عمر الآتى :-

عن عبد الله بن عمر أن المسجد كان علي عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مبنياً باللبن وسقفه الجريد وعُمُده خشب النخل ، فلم يزد فيه أبو بكر شيئاً ، وزاد فيه عمر وبناه على بنيانه فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم باللَّبِن والجريد وأعاد عُمُده خشباً ، ثم غيره عثمان فزاد فيه زيادة كثيرة ، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقصَّة وجعل عَمَده من حجاره منقوشة وسَقَفَه بالساج »

والقَصّة : الجص أو الجبس . والساج : نوع من الخشب يؤتى به من الهند[1].

وفى حديث أنس المشار اليه « فصفوا النخل قبلة المسجد » قال الحافظ فى الفتح (٢٦٦/٧) « فصفوا النخل » أى موضع النخل . ومعنى كلامه هذا أنهم وضعوا قبلة المسجد مكان النخل ويبدو لى والله أعلم أن المعنى أنهم جعلوا الجدار الذى جهة القبلة جميعه أو جزءاً منه من النخيل .

ويدهى أن السقف إذا كان من جريد النخل فإن المطر ينزل منه ، وهذا ما يوضحه حديث أبى سعيد الخدرى قال : جاءت سحابة فمطرت حتى سال السقف وكان من جريد النخل فأقيمت الصلاة فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد فى الماء والطين حتى رأيت أثر الطين فى جبهته»[2].

ولقد كانت السماء تمطر ، وتبتل الأرض ، والقوم يحرصون على الصلاة فى مسجده صلى الله عليه وسلم فيحمل الرجل منهم الحصا فى ثوبه فيبسطه تحته ليصلى عليه ، ورسول الله عليه وسلم يستحسن ذلك منهم .

فعن أبى الوليد - رحمه الله - قال : سألت ابن عمر عن الحصا الذى كان فى المسجد ، فقال : إنا مطرنا ذات ليلة ، فأصبحت الأرض مبتلة ، فجعل الرجل

---

(١) أخرجه البخارى . فتح ٥٤٠/١ .

(٢) أخرجه البخارى . فتح ١٥٧/٢ رقم ٦٦٩

يجيء بالحصا في ثوبه ، فيبسطه تحته ، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته قال : ما أحسن هذا »[1].

المنبر:-

وحينما بنى المسجد لم يكن منبر ، وانما كان صلى الله عليه وسلم إذا خطب وطال القيام عليه استند الى جذع نخلة فاتكأ عليه ، وظل الأمر على هذا يخطب صلى الله عليه وسلم واقفا على الأرض بجوار هذا الجذع ، ويستند ويتكىء إذا طال القيام حتى منتصف الفترة المدنية تقريباً صنع له صلى الله عليه وسلم منبر له ثلاث درجات ، صنعه نجار يقال له ميمون - على أصح الأقوال [2]- من طرفاء الغابة، أو من أثل الغابة ، والطرفاء والأثل متشابهان . والثانى أعظم من الأول . فانتقل صلى الله عليه وسلم من الجذع الى المنبر فجزع الجذع وبكى لفراقه صلى الله عليه وسلم وما كان يتلى بجانبه ، وسمع الحاضرون بكاء الجذع ، يشبهه بعضهم بحنين الناقة ، وبعضهم بأنين الصبى الذى يُسَكَّت ، وبعضهم يقول «سمعنا للجذع مثل أصوات العشار » وبعضهم يقول « فصاحت النخلة صياح الصبى » وبعضهم يقول : « فصاحت النخلة التى كان يخطب عندها حتى كادت تنشق » فنزل صلى الله عليه وسلم من على المنبر واحتضن الجذع ومسح بيده عليه فسكن ، ثم عاد إلى المنبر .

الهدف من المنبر:-

وكان الهدف من المنبر أن يكون صلى الله عليه وسلم ظاهراً يراه الناس مهما كثروا. وأن يصل صوته صلى الله عليه وسلم الجميع ، وراحة له صلى الله عليه

---

(١) أخرجه أبو داود . جامع ١٨٧/١١ .

(٢) كما فى الفتح ٣٩٨/٢ ، ٣٩٩ .

وسلم، ويسراً لطالب العلم فى أخذه عنه صلى الله عليه وسلم. والنصوص تفيد ذلك .

وابن سعد يجزم بأن عمل المنبر كان فى السنة السابعة ، وابن النجار يجزم بأنه عمل سنة ثمان . وتعقب الحافظ القولين بما مفاده أن أحاديث المنبر تفيد أن تميما الدارى ، والعباس بن عبد المطلب عرضا عليه صلي الله عليه وسلم عمل المنبر ، والعباس قدم بعد الفتح فى آخر سنة ثمان ، وقدم تميم سنة تسع ، وهذا يفيد أن المنبر عمل سنة تسع أو بعدها . وهناك مايفيد أن المنبر قد صنع قبل ذلك .

وذلك فيما أخرجه الشيخان من حديث عائشة في أمر محنتها إذ فيه « فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو علي المنبر : من يعذرني من رجل بلغنى أذاه فى أهلى » وفيه « فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتي هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر » وفي رواية عند الترمذى عنها قالت : لما أنزل عذرى قام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر وذكر ذلك وتلا القرآن . . . الحديث[1].

قال الحافظ بعد أن أشار لحديث عائشة هذا : فإن حمل على التجوز فى ذكر المنبر والا فهو أصح مما مضى[2].

والذي أميل اليه - والله أعلم - أن ما فى حديث عائشة إنما هو تجوز ، وأن المنبر عمل فى السنة التاسعة ومما يؤيد هذا أن فى إحدى روايات البخارى « أن النبى صلى الله عليه وسلم لما أسن وكبر قيل له : ألا نتخذ لك منبراً . . . الحديث

« عن سهل سعد الساعدى قال : أرسل رسول الله صلي الله عليه وسلم الي فلانة - امرأة قد سماها سهل - مُري غلامك النجار أن يعمل لي أعواداً أجلس عليهن إذا كلمت الناس ، فأمرته فعملها من طرفاء الغابة ، ثم جاء بها فأرسلت

(١) راجع جامع الأصول ٢/ ٢٥٠ - ٢٧٩ من رقم ٧٢٩ - ٧٣١
(٢) فتح ٢/٣٩٩.

الي رسول الله صلي الله عليه وسلم فأمر بها فوضعت هاهنا . ثم رأيت رسول الله صلي الله عليه وسلم صلي عليها وكبر وهو عليها ثم ركع وهو عليها ثم نزل القهقرى فسجد في أصل المنبر ثم عاد ، فلما فرغ أقبل على الناس فقال : ياأيها الناس ، إنما صنعت هذا لتأتموا ولتعلموا صلاتي »(١).

« عن جابر بن عبد الله قال : « كان جذع يقوم اليه النبى صلي الله عليه وسلم فلما وضع له المنبر سمعنا للجذع مثل أصوات العشار حتي نزل النبى صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليه »(٢).

« عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : كان المسجد مسقوفاً علي جذوع من نخل ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا خطب يقوم الى جذع منها ، فلما صنع له المنبر فكان عليه فسمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار حتى جاء النبى صلي الله عليه وسلم فوضع يده عليها فسكنت »(٣).

« عن أبى بن كعب قال : كان رسول الله صلي الله عليه وسلم يصلى الي جذع ويخطب إليه إذ كان المسجد عريشاً ،فقال له رجل من أصحابه الا نجعل لك عريشاً تقوم عليه يراك الناس يوم الجمعة وتسمع من خطبتك ؟ قال نعم : فصنع له الثلاث درجات هن اللواتى على المنبر ، فلما صنع المنبر ووضع في موضعه الذي وضعه فيه رسول الله صلي الله عليه وسلم قال فلما جاء رسو ل الله صلى الله عليه وسلم يريد المنبر مر عليه فلما جاوزه خار الجذع حتي تصدع وانشق فرجع إليه رسول الله صلي الله عليه وسلم فمسحه بيده حتي سكن ثم رجع إلي المنبر قال فكان إذا صلى صلي إليه فلما هدم المسجد أخذ ذلك الجذع أبىّ ابن كعب فلم يزل عنده حتى بلي فأكلته الأرضة وعاد رفاتاً »(٤).

---

(١) أخرجه البخارى . فتح ٣٩٧/٢ رقم ٩١٧ وراجع رقم ٣٧٧.

(٢) أخرجه البخارى . فتح ٣٩٧/٢ رقم ٩١٨.

(٣) أخرجه البخارى . فتح ٦٠٢/٦ رقم ٣٥٨٥.

(٤) أخرجه الدارمى ١٧/١.

« عن أم سلمة رضى الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن قوائم منبري هذا رواتب في الجنة »

رواتب : جمع راتب ، وهى الشىء الثابت المقيم[١].

« عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : مابين بيتي ومنبرى روضة من رياض الجنة ، ومنبري على حوضى »[٢].

فضل المسجد النبوى :-

وأسس مسجده صلي الله عليه وسلم ليكون مدرسة الدعوة ، ومصدر كل توجيه وتعليم ، فيبلغهم صلي الله عليه وسلم مانزل من وحي الله ، ويعلمهم أمور دينهم، ويستقبل الوفود ويعلمهم الإسلام ، والقضاء في هذا المسجد ، وقسمة الأموال فيه ، وتَحَرُّك الجيوش منه ، حتي ليستطيع القارىء أن يقول : إن هذا المسجد كان بيت الدعوة، يدبر فيه رسول الله صلي الله عليه وسلم كل ما يتعلق بشأنها .

ومن باب إتمام فائدة هذا المسجد الشريف ، طلب صلي الله عليه وسلم أن يصنع منبر له ، وذلك كي يراه الجميع ، أما هو صلي الله عليه وسلم فكان يري الجميع ، فقد كان يري من وراء ظهره كما يري من أمامه ، وكان يرى فى الظلمة كما يري فى الضوء .

فعن أبى هريرة أنه صلي الله عليه وسلم قال : " إنى والله لأبصر من ورائى كما أبصر من بين يدى "

وعن أنس أنه صلي الله عليه وسلم قال : " فوالله إني لأراكم من بعد ظهرى إذا ماركعتم وإذا ماسجدتم "[٣].

---

(١) أخرجه النسائى . جامع الأصول ٩/ ٣٣٠ رقم ٦٩٥٤ .

(٢) أخرجه البخارى . فتح ٣/ ٧٠ رقم ١١٩٦.

(٣) أخرجهما مسلم ٣١٩/١ ، ٣٢٠.

قال الحافظ : " وحكى بقيُّ بن مخلد أنه صلي الله عليه وسلم كان يبصر في الظلمة كما يبصر في الضوء "(١).

فإذا علمت كثرة الوفود ، وكثرة تحرك جيوش الإسلام علمت ماكان يموج المسجد به من حركات تخدم الدعوة ، من دخل فيها ، ومن لم يدخل .

ومن ثم أوتي هذاالمسجد الشريف من البركات الكثير فجاءت الأحاديث تفيد أن هذا المسجد من ثلاثة مساجد جديرة بأن تشد الرحال اليها . وأن الصلاة فيه خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد الا المسجد الحرام . وأن جزءاً منه تنزل فيه من الرحمات ما يجعله كالجنة .

« عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبي صلي الله عليه وسلم قال : لا تشد الرحال إلا إلي ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجد الرسول صلي الله عليه وسلم ومسجد الأقصى »(٢).

« عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال : صلاة في مسجدى هذا : خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام »(٣).

« عن عبد الله بن زيد رضى الله عنه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم مابين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة »(٤).

٢- المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار :-

قدم صلي الله عليه وسلم المدينة ، وقد وصلها عدد من المهاجرين ، وأحوال المهاجرين مختلفة في المال والقوة والعشيرة ، كما أن أحوال الأنصار مختلفة في

(١) فتح ٥١٥/١ .
(٢) أخرجه البخارى . فتح ٦٣/٣ - رقم ١١٨٩.
(٣) أخرجه البخارى ٦٣/٣ رقم ١١٩٠.
(٤) أخرجه البخارى ٧٠/٣ رقم ١١٩٥. وراجع جامع الأصول ٣٢٩/٩

ذلك أيضاً ، فمن ثم آخى صلى الله عليه وسلم بين فقير وغنى ، وبين ضعيف وقوى ، وبين صاحب عشيرة ومن ليس بصاحب عشيرة .

ولم تكن المؤاخاة بين مهاجرى وأنصارى فقط ، وإنما كانت كذلك فى الكثير الغالب ، وربما وقعت بين مهاجري ومهاجرى .

أخرج الحاكم فى المستدرك والضياء في المختارة عن ابن عباس قال «آخى النبى صلى الله عليه وسلم بين الزبير وابن مسعود » والزبير وابن مسعود مهاجران . أفاده الحافظ فتح ٧/ ٢٧١ وحسن إسناده .

ولسوف تدرك الهدف من المؤاخاه - حتى ولو كانت بين مهاجرى ومهاجرى - إذا علمت أنه صلي الله عليه وسلم آخى بين حمزة وزيد بن حارثة ، وهما من المهاجرين ، وزيد مولاهم ، فبرغم أنهما من المهاجرين إلا أن الحكمة ستتحقق فسيرتفق الأدنى بالأعلى ، ويستعين الأعلى بالأدنى .

وابتدأت المؤاخاة فى مسجده صلى الله عليه وسلم (١) في أوائل قدومه صلى الله عليه وسلم المدينة (٢) وكانت تتجدد بحسب من يدخل في الإسلام أو يحضر الي المدينة وربما تغيرت فيؤاخى بين رجلين ثم يغير : ولسوف أذكر بعض من آخى صلي الله عليه وسلم بينهم ، معتمداً علي ماوقفت عليه في كتب الحديث ، وعلي ماذكره علماء السير وأقره أحد علماء الحديث أو بعضهم ،

* آخى صلى الله عليه وسلم بينه وبين على بن أبي طالب

« فعن ابن عمر رضى عنهما قال : لما ورد رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم المدينة آخي بين أصحابه فجاء علي رضى الله عنه تدمع عيناه فقال يارسول الله

---

(١) نقله الحافظ فى الفتح ٧/ ٢٧١ عن أبى سعيد النيسابورى فى « شرف المصطفى » وفي مسند أحمد عن أنس قال « حالف رسول الله صلي الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار فى دارنا » ويبدو لى - والله أعلم- أن لاتنافى فإن المؤاخاة كانت أكثر من مرة بحسب من يدخل الإسلام ومن يحضر الى المدينة.

(٢) اختلف فى ابتدائها . راجع الفتح ٧/ ٢٧٠

آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد فقال رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم ياعلى أنت أخى في الدنيا والآخرة »[١].

* وآخى صلي الله عليه وسلم بين الزبير وابن مسعود

تقدم دليله عن ابن عباس عند الحاكم والضياء بإسناد حسن . وقال بهذا بعض علماء السير كابن هشام وذكر رأياً آخر أنه صلي الله عليه وسلم آخى بين الزبير وسلامة بن سلامة بن وقش ، وسيأتى .

* واخى صلي الله عليه وسلم بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع

« فعن عبد الرحمن بن عوف قال : لما قدمنا المدينة آخى رسول الله صلي الله عليه وسلم بيني وبين سعد بن الربيع »[٢].

* وآخي صلي الله عليه وسلم بين سلمان وأبى الدرداء

« فعن عون بن أبى جحيفة عن أبيه قال : آخى النبى صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبى الدرداء »[٣].

* وآخى صلى الله عليه وسلم بين أبى عبيدة بن الجراح وأبى طلحة .

« فعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم آخى بين أبى عبيدة بن الجراح وبين أبى طلحة »[٤].

* وآخى صلى الله عليه وسلم بين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك

تقدم فى أوائل الصلاة قول عمر كان لى أخ من الأنصار ، وفسر بعتبان[٥].

---

(١) أخرجه الحاكم ١٤/٣. والترمذى . تحفه ٢٢٢/١٠، وقال حسن غريب .

(٢) أخرجه البخارى . فتح ٢٨٨/٤ رقم ٢٠٤٨ وسيأتى بتمامه إن شاء الله.

(٣) أخرجه البخارى . فتح ٢٠٩/٤ رقم ١٩٦٨.

(٤) أخرجه مسلم ١٩٦٠/٤ رقم ٢٠٣

(٥) فتح ٢٧١/٧ .

* وفي سيرة ابن هشام ذكر عدد كثير ممن آخى صلى الله عليه وسلم بينهم . وقد ذكر الحافظ في الفتح ماقاله ابن اسحاق بتصرف وأجاب على مايشكل فيه ، لكنه أسقط سبعة أسطر ، يظهر من الكلام أن هذا السقط من طباعة الفتح [1] وأسوق كلام الحافظ لعظيم فائدته ، وعند الساقط سأذكره منبهاً . قال الحافظ - رحمه الله - وذكر محمد بن إسحاق المؤاخاة فقال ، قال رسول الله صلي الله عليه وسلم لأصحابه ، بعد أن هاجر : تآخوا أخوين أخوين فكان هو وعلى أخوين ، وحمزه وزيد بن حارثة اخوين ، وجعفر بن أبى طالب ومعاذ بن جبل أخوين - «وتعقبه ابن هشام بأن جعفراً كان يومئذ بالحبشة " وفي هذا نظر وقد تقدم ووجهها العمادبن كثير بأنه أرصده لأخوته حتى يقدم ، وفى تفسير سنيد : آخى بين معاذ وابن مسعود - وأبو بكر وخارجة بن زيد أخوين ، وعمر وعتبان بن مالك أخوين ، وقد تقدم فى أوائل الصلاة قول عمر وكان لي أخ من الأنصار ، وفسر بعتبان ويمكن أن يكون أخوته له تراخت كما في أبى الدرداء وسلمان (وأبو عبيدة ابن عبدالله بن الجراح واسمه عامر بن عبدالله وسعد بن معاذ بن النعمان ، أخو بنى عبد الأشهل ، أخوين ، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع ، أخو بلحارث بن الخزرج ، أخوين ، والزبير بن العوام ، وسلامة بن سلامة بن وقش ، أخو بني عبد الأشهل ، أخوين ويقال : بل الزبير وعبد الله بن مسعود ، حليف بني زهرة ، أخوين ، وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت بن المنذر، أخو بني النجار ، أخوين ، وطلحة بن عبيد الله ، وكعب بن مالك ، أخو بني سلمة ، أخوين ، وسعيد بن زيد ابن عمرو بن نفيل ، وأبى بن كعب ، أخو بني النجار : أخوين [2]) ومصعب

---

(١)بدليل أن الحافظ ابن كثير ذكر كلام بن اسحاق وفيه ماسقط من الفتح راجع سيرة ابن كثير ، ٣٢٤ - ٣٢٨ ثم ان فى تعلبق الحافظ ابن حجر علي المؤاخاه بين عبد الرحمن بن عوف وسعد مايفيد هذا الساقط . وراجع أصول الفتح الخطية أو الطبعة الأميرية فعسى أن تقف على هذا الساقط فيها .

(٢) مابين القوسين سقط من الفتح ، وهو فى سيرة ابن هشام ، ونقله أيضاً ابن كثير .

ابن عـمـيـر ، وأبو أيوب أخوين ، وأبو حذيفة بـن عـتـبـة وعـبـاد بن بشر أخـوين ، وعـمـار بن ياسر وحذيفة بـن اليـمـان أخـوين ويقـال بـل عـمـار وثابت بن قـيس لأن حذيفة إنما أسلم زمان أحد ، وأبو ذر والمنذر بن عـمـرو أخـوين ، وتعقب بأن أباذر تأخرت هجرته ، والجواب كما في جعفر ، وحاطب بن أبى بلتعة وعويم بن ساعدة أخوين ، وسلمان وأبو الدرداء أخـوين وتعقب بأن سلمان تأخر إسلامه وكذا أبو الدرداء والجواب ماتقدم في جعفر (وبلال مولى أبى بكر ومؤذن الرسول صلي الله عليه وسلم ، وأبو رويحة عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمى أخوين) [١].

إيثار الأنصار:-

وعندما نزل المهاجرون علي إخوانهم الأنصار وجدوا من يمسح عنه كل أثر للعناء وجدوه ، وجدوا أهلا وإخوة ، وجدوا أحبة بررة ، ومـهـمـا قـال البـيـان فأعلى منه ما وصفهم الله به فماذا بعد قوله سبحانه فى شأن الأنصار .

« وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »[٢].

والمعنى :-

إنه سبحانه وتعالى يمدح الأنصار ، ويبين فضلهم وشرفهم وكرمهم وعدم حسدهم وإيثارهم مع الحاجة .

وقوله سبحانه « والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم » يريد بهم الأنصار فهم سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم ، واستدل البخارى على أن المراد بهم الأنصار بما أخرجه عن عـمـر بـن الخطاب رضى الله عنه قـال :

---

(١) مابين القوسين زيادة من سيرة ابن هشام ٢/١٠٤ والبداية ٣/٢٤٨ .
(٢) سورة الحشر آية ٩ .

أوصى الخليفة (بعدى) بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم كرامتهم ، وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوؤا الدار والإيمان من قبل ، أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم »[1].

وقوله سبحانه وتعالى « يحبون من هاجر إليهم » أي من كرمهم وشرف أنفسهم يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم .

وقوله سبحانه « ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا » أى ولا يجدون فى أنفسهم حسداً للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم فى الذكر والرتبة .

وقوله سبحانه « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » أى يقدمون غيرهم من المحاويج على حاجة أنفسهم ، ويبدأون بالناس قبلهم مع احتياجهم إلى ذلك .

وقوله سبحانه « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » أى من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح[2].

وهذه الصفات التى مدح الله سبحانه وتعالى بها الأنصار من حرص على الإيمان وحب له ، وكرم وشرف نفس ، وصفاء فطرة ونقاء نفس ، وايثار فى وقت الحاجة ، هذه الصفات تتضح فى ضوء ما ورد فى السنة من أخبار تبين موقف الأنصار من إخوانهم المهاجرين - وسوف أقتصر على الأحاديث التى تبين كرمهم وايثارهم ، أما حرصهم على الإيمان فهذا قد سبق خاصة عند الكلام على بيعتى العقبة ، وأما دفاعهم عن الاسلام وعظيم مواقفهم فى الجهاد فستظهر فى حديثى عن غزوة بدر إن شاء الله تعالى .

ولسوف يتضح من هذه الأحاديث أن الأنصار أعطوا بإخلاص ، إخلاص وصل لدرجة أنهم يرفضون أن يأخذوا شيئا كعوض عما قدموا للمهاجرين ، فيرفضون أن

---

(١) أخرجه البخارى . فتح ٦٣١/٨ .

(٢) من مختصر تفسير ابن كثير ٤٧٣/٣ .

يقطع لهم صلى الله عليه وسلم البحرين دون المهاجرين ، إخلاص نم عنه تقدير المهاجرين ، وخوفهم أن يصبح الثواب كله للأنصار جزاء صنيعهم هذا .

« عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قالت الأنصار للنبى صلى الله عليه وسلم : اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل . قال : لا . فقالوا : تكفونا المؤونة ونشرككم فى الثمرة . قالوا : سمعنا وأطعنا »[١].

« قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار « إن أخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم » فقالوا : أموالنا بيننا قطائع . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أو غير ذلك ؟ ، قالوا وماذاك يا رسول الله ؟ قال : هم قوم لا يعرفون العمل . فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر » قالوا نعم [٢].

« عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : دعا النبى صلى الله عليه وسلم الأنصار إلى أن يُقطع لهم البحرين ، فقالوا : لا ، إلا أن تُقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها. قال: إما لا فاصبروا حتى تلقونى. فانه سيصيبكم بعدى أثرة[٣] ».

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال المهاجرون يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة فى قليل ، ولا أحسن بذلاً من كثير ، لقد كفونا المؤونة وأشركونا فى المهنأ ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله . قال : لا ، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم[٤].

---

(١) أخرجه البخارى . فتح ٨/٥ رقم ٢٣٢٥ .

(٢) ذكره ابن كثير ٣٢٨/٢

(٣) أخرجه البخارى . فتح ١١٧/٧ رقم ٣٧٩٤ .

(٤) أخرجه أحمد . الفتح الربانى ١٠/٢١ وذكره ابن كثير فى السيرة ٣٢٨/٢ وقال : هذا حديث ثلاثى الاسناد على شرط الصحيحين ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه ، وهو ثابت فى الصحيح من غيره .

إيثار ما بعده إيثار :-

وقد سجلت السنة موقف أنصارى ، بلغ فى الإيثار مبلغاً يستجلب تام رضى الله سبحانه وتعالى لقد بات الرجل طاويا وزوجته كذلك ، وفوق ذلك نوما صبيانهما دون عشاء ، وآثرا ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم بما كان عندهم من طعام .

والعظيم فى الأمر أن الأنصارى يطلب هذا وتوافقه زوجته ، والأم على أطفالها جد حانية ، ولا تؤثر بطعامها عليهم أحداً ، إلا أن صنيع الإيمان فى قلوب الأنصار غيّر الطبائع إلى أسمى ما يتصور متصور ، وما يخطر ببال مفكر « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » سبحان الله !! والله لا يحدث هذا إلا بصريح الإيمان، ومحال أن يتم إلا لله سبحانه وتعالى .

« عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلاً أتى النبى صلى الله عليه وسلم فبعث إلى نسائه فقلن : ما معنا إلا الماء . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يضم - أو يضيف هذا ؟ فقال رجل من الأنصار : أنا . فانطلق به إلى امرأته فقال : أكرمى ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالت : ما عندنا إلا قوت صبيانى . فقال : هيئى طعامك وأصبحى سراجك ، ونومى صبيانك إذا أرادوا عشاء . فهيأت طعامها ، وأصبحت سراجها ونومت صبيانها ، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته ، فجعلا يريانه أنهما يأكلان فباتا طاويين . فلما أصبح غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ضحك الله الليلة - أو عجب - من فعالكما . فأنزل الله (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »[1].

---

(١) أخرجه البخارى . فتح ١١٩/٧ .

من آثار المؤاخاة :-

وكان من أثر المؤاخاة أن أصبح الأخ يرث أخاه ، فالمهاجر يرث الأنصاريَّ إذا مات ، دون ذوى رحمه ، وظل الأمر على هذا حتى نزل قول الله تعالى « وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ[1] » أى ورثة يرثونه من قرابته ، فأصبح الشخص يرثه قرابتُه وبقى بين المهاجرين والأنصار النصرة والإعانة بالعطية والنصيحة والوصية .

عن ابن عباس رضى الله عنهما (ولكل جعلنا موالى) قال : ورثة . (والذين عاقدت أيمانكم) كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجر الأنصارى دون ذوى رحمه للأخوة التى آخى النبى صلى الله عليه وسلم بينهم فلما نزلت (ولكل جعلنا موالى) نُسخت . ثم قال (والذين عاقدت أيمانكم) من النصر والرفادة والنصيحة وقد ذهب الميراث ويوصى له[2].

موقف المهاجرين من المؤاخاة :-

واضح من النصوص السابقة خاصة من حديث أنس عند أحمد أن المهاجرين كانوا يشعرون بجميل صنيع الأنصار ، فلقد قدموا لهم الكثير ، وتحملوا الكثير ، كان المهاجرون لا يجيدون العمل فى الزراعة فكان الأنصار يقومون بالعمل ، ويقسمون الثمرة .، وربما أعطى الأنصارى المهاجر النخلات أو الشىء له ثمرته ، وخدمته على الأنصارى ، بل ان الأنصار طلبوا أن تقسم أموالهم بينهم وبين اخوانهم المهاجرين - كما فى حديث أبى هريرة السابق - ورفض رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلمه بقرب الفتوح فأراد صلى الله عليه وسلم أن تظل أموال الأنصار معهم ، وليساعدوا المهاجرين ببعض الثمرة ، فإذا فتحت الفتوح فسيصبح الجميع صاحب عقار ومال .

(١) سورة النساء آية ٣٣ .
(٢) أخرجه البخارى . فتح ٢٤٧/٨ .

ومعرفة المهاجرين لجميل الأنصار هذا جعلهم يتمنون أن تسنح لهم الفرصة برد جميل الأنصار ، وفعلا جاءتهم الفرصة بعد فتح خيبر ، والتى تقدمها غيرها مما كان سببا فى ثراء المسلمين ، فأعاد المهاجرون ما كان عندهم من منائح الأنصار ، ومن لم يرد حثه رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرد .

« عن أنس بن مالك قال : لما قدم المهاجرون من مكة المدينة قدموا وليس بأيديهم شيء وكان الأنصار أهل الأرض و العقار . فقاسمهم الأنصار على أن أعطوهم أنصاف ثمار أموالهم كل عام ويكفونهم العمل والمؤونة . وكانت أم أنس بن مالك وهى تدعى أم سليم وكانت أم عبدالله بن أبى طلحة ، كان أخا لأنس لأمه ، وكانت أعطت أم أنس رسول الله صلى الله عليه وسلم عذاقاً لها فأعطاها رسول الله صلى الله عليه وسلم أم أيمن ، مولاته أم أسامة بن زيد . قال ابن شهاب فأخبرنى أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فرغ من قتال أهل خيبر وانصرف إلى المدينة رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التى كانوا منحوهم من ثمارهم . قال فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أمى عذاقها وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أم أيمن مكانهن من حائطه »[1].

وعن أنس أيضاً أن الرجل كان يجعل للنبى صلى الله عليه وسلم النخلات من أرضه حتى فُتحت عليه قريظة والنضير ، فجعل بعد ذلك ، يرد عليه ما كان أعطاه . قال أنس : وإن أهلى أمرونى أن آتى النبى صلى الله عليه وسلم فأسأله ما كان أهله أعطوه أو بعضه . وكان نبى الله صلى الله عليه وسلم قد أعطاه أم أيمن . فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فأعطانيهن . فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب فى عنقى وقالت : والله لا نعطيكهن ، وقد أعطانيهن . فقال نبى الله

(١) أخرجه مسلم ٣/١٣٩١ رقم ٧٠ ، وأخرجه البخارى . فتح ٥/٢٤٢ . رقم ٢٦٣٠ .

صلى الله عليه وسلم : يا أم أيمن ! اتركيه ولك كذا وكذا « وتقول كلا والذى لا إله إلا هو ، فجعل يقول كذا حتى أعطاها عشرة أمثاله أو قريباً من عشرة أمثاله »[1].

بل إن بعض المهاجرين ما قَبِل أن يكون عبئاً على أخيه الأنصارى ، نعم هو لا يجيد الزراعة ، ولكن يمكن أن يعمل فى التجارة وفعلا ذهب إلى السوق وتاجر ، واذا كانت الأيام الأولى أيام تعلم وتعليم واستعداد وجهاد فإن في الوقت سعة بجانب ذلك للذهاب فى تجارة يكسب منها ولو ضرورياته بدلا من الاعتماد على أخيه مهما كان سخيا غنيا .

قال عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه « لما قدمنا المدينة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينى وبين سعد بن الربيع ، فقال سعد ابن الربيع : إنى أكثر الأنصار مالاً ، فأقسم لك نصف مالى ، وانظر أى زوجتى هويت نزلت لك عنها ، فاذا حلت تزوجتها . قال فقال له عبد الرحمن لا حاجة لى فى ذلك ، هل من سوق فيه تجارة ؟ قال سوق قينقاع . قال فغدا اليه عبد الرحمن فأتى بأقط وسمن . قال ثم تابع الغُدُوَّ ، فما لبث أن جاء عبد الرحمن عليه أثر صفرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تزوجت ؟ قال : نعم . قال : ومن ؟ قال : امرأة من الأنصار . قال : كم سُقْتَ ؟ قال : زنة نواة من ذهب - أو نواة من ذهب - فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : أوْلِم ولو بشاة [2].

---

(١) أخرجه مسلم ١٣٩٢/٣ رقم ٧١ .

(٢) أخرجه البخارى . فتح ٢٨٨/٤ رقم ٢٠٤٨ .

فضائل المهاجرين والأنصار

أثنى الله سبحانه على المهاجرين والأنصار فى غير ما آية من كتابه الكريم

فقال سبحانه

« وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »(١).

وقال سبحانه

« لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ »(٢).

وقال سبحانه :

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ »(٣).

وقال سبحانه :

« الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ »(٤).

---

(١) التوبة آية ١٠٠.

(٢) التوبة آية ١١٧ .

(٣) الأنفال آية ٧٢ .

(٤) التوبة آيات ٢٠ - ٢٢.

وقال سبحانه :

« لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »[1].

وواضح من هذه الآيات الكريمة فضل المهاجرين وفضل الأنصار ، وواضح منها تقدم المهاجرين على الأنصار فى الفضل . وهذا أمر تثبته الآيات الكريمة ، وأجمع عليه العلماء [2] .

فالمهاجرون تركوا ديارهم وأموالهم وخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حرصاً على طاعة الله وتعلم دينه ، خرجوا ينصرون الله ورسوله ولم تشغلهم أموالهم عن ذلك ، خرجوا من كل مالهم ، وهذا دليل صدق وبرهان يقين «والصدقة برهان [3]» فإذا كانت الصدقة برهاناً علي صدق مخرجها ، فما بالك بمن ترك داره وكل ماله ، وتحمل المشقة فى الغربة ، كل ذلك حرصاً على دينه ، ومساهمة في نصرة دين الله ورسوله ؟ إنه لا يفعل ذ لك إلا من كمل صدقهم . ومن ثم قال الله « وأولئك هم الصادقون »

وبينما تثبت الآيات تقدم المهاجرين علي الأنصار في الفضل ، تثبت للأنصار مزية أخرى . هي أنهم لم يحسدوا المهاجرين على هذا التقدم « ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا » وإنما سلموا لهم به ، وقدموا كل ما استطاعوا لهم من عون ، يقدمونه ولو كانوا في حاجة اليه ، « ويؤثرون علي أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »

---

(١) الحشر آيات ٨ ، ٩ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير في تفسير آية الأنفال رقم ٧٢ والتى تقدم ذكرها .

(٣) جزء من حديث أخرجه مسلم .

وإذا كانت الآيات مما ذكرت هنا وغيرها - قد بينت عظم فضل المهاجرين وما تحملوه ، وركزت على ذكر هدفهم والباعث لهم ، فإن الأحاديث قد وردت تبين سبق المهاجرين وعظيم منزلتهم ، كما تبين صوراً من صفات وأفعال الأنصار والوصية بهم كل ذلك من باب التوضيح لما أثبته القرآن الكريم . وأذكر شيئاً من ذلك [1].

عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم « للمهاجرين منابر من ذهب يجلسون عليها يوم القيامة ، قد أمنوا من الفزع »[2].

وعن مسلمة بن مخلد أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال :سبق المهاجرون الناس بسبعين خريفاً يتنعمون فيها ، والناس محبوسون للحساب ، ثم تكون الزمرة الثانية مائة خريف »[3].

وعن عبد الرحمن بن عوف قال : لما حضرت النبى صلي الله عليه وسلم الوفاة قالوا : يارسول الله أوصنا ، قال : أوصيكم بالسابقين الأولين من المهاجرين ، وبأبنائهم من بعدهم ، إلا تفعلوه لا يقبل منكم صرف ولا عدل»[4].

وعن عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول : إن أول ثلة يدخلون الجنة لفقراء المهاجرين الذين تتقي بهم المكاره ، إذا أمروا سمعوا وأطاعوا ، وإن كانت لرجل منهم حاجة إلى السلطان لم تقض حتى يموت وهى فى صدره ، وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة فتأتى بزخرفها وزينتها فيقول أين عبادي

(١) بعد الذى سقته قبل ذلك فى « إيثار الأنصار » ومابعده.

(٢) أخرجه ابن حبان موارد ص ٣٨١ رقم ١٥٨٢.

(٣) ذكره في المجمع ١٠/١٥ وقال رواه الطبرانى وفيه عبد الرحمن بن مالك السبائى ، ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات .

(٤) ذكره فى المجمع ١٠/١٧ وعزاه للطبرانى في الأوسط ورجاله ثقات ، وهو عند البزار بنحو هذا اللفظ، كذا أفاد كلامه .

الذين قاتلوا في سبيلى وقتلوا ، وأوذوا فى سبيلى ، وجاهدوا فى سبيلى ، ادخلوا الجنة ، فيدخلونها بغير عذاب ولا حساب ، ويأتي الملائكة فيسجدون ويقولون ربنا نحن نسبح لك الليل والنهار ونقدس لك ، من هؤلاء الذين آثرتهم علينا ؟ فيقول : هؤلاء عبادي الذين قاتلوا فى سبيلى ، وأوذوا فى سبيلى ، فتدخل الملائكة عليهم من كل باب « سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار »(١).

وعن عبدالله بن عمرو قال : قال لى رسول الله صلي الله عليه وسلم : تعلم أول زمرة تدخل الجنة من أمتى ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : المهاجرون يأتون يوم القيامة إلى باب الجنة ويستفتحون فتقول لهم الخزنة : أوقد حوسبتم ؟ قالوا بأى شيء نحاسب وإنما كانت أسيافنا على عواتقنا فى سبيل الله حتي متنا على ذلك ؟! قال : فيفتح لهم ، فيقيلون فيه أربعين عاماً قبل أن يدخل الناس»(٢).

وعن أبى أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : دخلت الجنة فسمعت فيها خشفة بين يديّ ، فقلت : ماهذا ؟ قال : بلال . فمضيت . فإذا أكثر أهل الجنة فقراء المهاجرين وذرارى المسلمين ، ولم أر أحداً أقل من الأغنياء والنساء ، قيل لي : أما الأغنياء فهم ههنا بالباب يحاسبون ويمحصون ، وأما النساء فألهاهن الأحمران الذهب والحرير . . . الحديث(٣).

---

(١) ذكره في الدر ٢/١١٢ وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقي فى الشعب .

(٢) ذكره فى الدر ٢ / ١١٢وعزاه للحاكم وصححه .

(٣) أخرجه أحمد ٥/٢٥٩، (وفي فضائل المهاجرين راجع المستدرك ٤/٧٦).

وفى الأنصار :-

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أو قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم : لو أن الأنصار سلكوا وادياً أو شعباً لسلكت في وادى الأنصار ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار . فقال أبو هريرة : ماظلم - بأبي وأمي - آووه ونصروه . أو كلمة أخرى[(١)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : مر أبو بكر والعباس رضي الله عنهما بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون ، فقال : مايبكيكم ؟ قالوا «ذكرنا مجلس النبى صلى الله عليه وسلم منا ، فدخل علي النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك ، قال فخرج النبى صلى الله عليه وسلم وقد عصب رأسه حاشية برد ، قال فصعد المنبر ولم يصعده بعد ذلك اليوم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أوصيكم بالأنصار ، فإنهم كرشى [(٢)] وعيبتى [(٣)] ، وقد قضوا الذى عليهم وبقي الذى لهم ، فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا على مسيئهم »[(٤)].

وماكان الأنصار يسمون قبل الإسلام بهذا الاسم الدال على عظيم المزية ، ولا سمّاهم به مخلوق ، وإنما سماهم الله به ، فإنهم الذين نصروا دين الله ، وناصروا رسول الله صلي الله عليه وسلم ، فسماهم الله سبحانه « الأنصار » فى غير ماآية من كتابه ، ووصفهم بأنهم « آووا ونصروا »[(١)].

---

(١) أخرجه البخارى . فتح ١١٢/٧ رقم ٣٧٧٩.

(٢) « كرشى » بطانتى ، يقال لفلان كرش منثورة أى عيال كثيرة .

(٣) « عيبتي » - بفتح العين المهملة وسكون المثناه بعدها باء موحدة - خاصتى . والعيبة ما يحرز فيه الرجل نفيس ما عنده ، يريد أنهم موضع سره وأمانته .

(٤) أخرجه البخارى . فتح ١٢٠/٧.

(٥) كما فى سورة الأنفال ٧٢.

وامتثالا لتعبير القرآن الكريم سماهم المسلمون بذلك ، فكان صلى الله عليه وسلم يسميهم « الأنصار » وكذا كان المسلمون جميعاً .

« عن غيلان بن جرير قال : قلت لأنس : أرأيت اسم الأنصار كنتم تسمّوْن به ، أم سماكم الله ؟ قال : بل سمانا الله . كنا ندخل علي أنس فيحدثنا بمناقب الأنصار ومشاهدهم ويقبل عليّ أو على رجل من الأزد فيقول : فعل قومك يوم كذا وكذا كذا وكذا »[1].

عن أنس بن مالك قال : خرجت مع جرير بن عبد الله البجلى فى سفر. فكان يخدمنى . فقلت له : لا تفعل . فقال : إنى قد رأيت الأنصار تصنع برسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ، آليت أن لا أصحب أحداً منهم إلا خدمته »

قلت : وإنما قال أنس لجرير لا تفعل لأن جريراً كان أسن من أنس . كما فى رواية البخارى « وهو أكبر من أنس ، قالها أنس على سبيل الإلتفات والأصل " وهو أكبر منى » وفى رواية مسلم عن اثنين من شيوخه ممن رووا الحديث « وكان جرير أكبر من أنس »[2].

وقلت : وانما كان جرير يحرص على خدمة الأنصار ليستعيض بذلك عما فاته فإنه أسلم فى رمضان فى السنة العاشرة ولذا لم يصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً [3].

وعن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم اغفر للأنصار . ولأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار »[4].

وعن أنس « أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى صبياناً ونساءً مقبلين من

---

(١) أخرجه البخارى . فتح ٧/ ١١٠ رقم ٣٧٧٦.

(٢) أخرجه مسلم - واللفظ له - ١٩٥١/٤ رقم ١٨١، وأخرجه البخارى ٨٣/٦ رقم (٢٨٨٨) .

(٣) راجع التهذيب ٧٣/٢ وراجع الإصابة .

(٤) أخرجه مسلم ١٩٤٨/٤ رقم ١٧٢.

عرس فقام نبي الله صلي الله عليه وسلم مُمْثِلا [١] فقال : اللهم أنتم من أحب الناس إليّ. اللهم أنتم من أحب الناس إليّ . يعنى الأنصار[٢].

---

(١) بفتح الثاء المثلثة وكسرها ، والجمهور بالفتح ومعناه قائماً منتصباً.

(٢) أخرجه مسلم ١٩٤٨/٤ رقم ١٧٤

« مدينته صلى الله عليه وسلم »

مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم

أولاً :- صفاتها وأهلها :-

قدم رسول الله صلي الله عليه وسلم المدينة وهى علي الوصف التالى :

١- اسمها يثرب

٢- بها حمى تضعف من سكنها ، تسمى حمي يثرب .

٣- ماؤها لا يندفع ، وانما ينز نزاً ، مما يجعله متغيراً ، يورث الوباء .

٤- أهلها متطاحنون ، متحاربون فيما بينهم .

٥- أهلها لا يقبلون أن يغير عليهم أحد ، أو يعتدي على بلدهم .

٦- كثيرة الثمر .

وواضح أن الصفات الأربع الأولى صفات سلبية ، تحتاج الي تغيير تأهيلاً للمدينة لتكون نواة الدولة الإسلامية الناشئة .

*١- أما اسمها « يثرب » فهو اسم أرض هي بها ، مأخوذ من التشريب وهو المبالغة في اللوم والتعنيف والتعيير . فرفض صلي الله عليه وسلم أن يظل اسمها هكذا ، وجعل اسمها طابة وطَيْبة ، وهما - أي هذين الاسمين - بمعنى ، واشتقاقهما من الشىء الطيب الطاهر. وسماها المدينة من مَدَن بمعني أقام .

ولها أسماء غير هذه ، فتسمى أيضاً : المسكينة ، والدار ، وجابرة ، ومجبورة، ومنيرة ، والمطيبة ، والمدرى ، والمحببة ، والمحبوبة ، والقاصمة.

« عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت بقرية تأكل القرى ، يقولون يثرب وهى المدينة ، تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد »[٢].

---

(١) راجع الفتح ٨٩/٤ شرح ١٨٧٢

(٢) أخرجه البخارى . فتح ٨٧/٤

وفهم بعض العلماء من هذا الحديث كراهة تسمية المدينة يثرب . ويدل على هذا أيضاً ما أخرجه أحمد وغيره عن البراء رفعه « من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله . هي طابة ، هى طابة »[1].

« عن أبى حميد رضى الله عنه قال : أقبلنا مع النبى صلي الله عليه وسلم من تبوك حتي أشرفنا على المدينة فقال : هذه طابة[2].

وعن زيد بن ثابت عن النبي صلي الله عليه وسلم قال : إنها طيبة (يعني المدينة ومن قال يثرب فليستغفر الله ثلاث مرات ، هي طيبة ، هي طيبة ، هى طيبة »[3].

وسماها القران الكريم المدينة في غير ما موضع « وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ »[4].

« لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ »[5].

« يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ . . . »[6].

وأطلق عليها سبحانه « يثرب » حكاية عن المنافقين وهم يسمونها باسمها الذى كان قبل الإسلام تمسكاً بما كان ، وكراهية لما جاء به الإسلام .

" وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ . . . »[7].

---

(١) فتح ٨٧/٤ ، در ١٨٨/٥.
(٢) أخرجه البخارى . فتح ٨٨/٤.
(٣) ذكره في الدر ١٨٨/٥ وعزاه لابن مردويه .
(٤) التوبة ١٠١.
(٥) الأحزاب آية ٦٠.
(٦) المنافقون آية ٨.
(٧) الأحزاب آية ١٣.

* ٢ - أما كونها كان بها حُمىً فكان هذا مشهوراً عنها ، حتي قال مشركوا مكة حينما جاء المسلمون للعمرة «إنه يقدم عليكم وفد وهّنتهم [١]حُمّى يثرب »، وحينما أصابت حُمّاها بلالا كان مما قاله « اللهم العن شيبة بن ربيعة ، وعتبة بن ربيعة ، وأمية بن خلف كما أخرجونا من أرضنا الي أرض الوباء »

وما كان لبلد هذا شأنه أن يكون مصدر إشعاع ودعوة ، فإن حاله هذا جدير أن يجعل الناس يخافون نزوله .

من ثم دعا صلي الله عليه وسلم لمدينته ، وسأل الله سبحانه أن يذهب عنها هذه الحمى ، وأن يجعلها بلداً طيباً ، واستجاب الله سبحانه دعاء نبيه ، وأصبحت المدينة أطيب بلاد الله سبحانه ، كما سماها بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ سماها « طابة » و « طيبة »

قال الحافظ : والطاب والطيب لغتان بمعنى ، واشتقاقها من الشىء الطيب ، وقيل لطهارة تربتها ، وقيل لطيبها لساكنها ، وقيل من طيب العيش بها . وقال بعض أهل العلم : وفى طيب ترابها وهوائها دليل شاهد علي صحة هذه التسمية لأن من أقام بها يجد من تربتها وحيطانها رائحة طيبة لا تكاد توجد في غيرها . قال الحافظ : وقرأت بخط أبى على الصدفى في هامش نسخته من صحيح البخارى بخطه : قال الحافظ :أمر المدينة فى طيب ترابها وهوائها يجده من أقام بها ، ويجد لطيبها أقوي رائحة ، ويتضاعف طيبها فيها عن غيرها من البلاد ، وكذلك العود وسائر أنواع الطيب[٢].

وهكذا صارت المدينة بدعائه صلي الله عليه وسلم أطيب بلاد الله ، وسبحان الله القادر علي كل شىء ، وصلى وسلم علي رسوله الذى استجاب الله دعاءه فحوّل أرض الوباء إلي أطيب البلاد .

---

(١) بتخفيف الهاء وتشديدها أى أضعفتهم .

(٢) فتح ٨٩/٤.

عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : قدم رسول الله صلي الله عليه وسلم وأصحابه فقال المشركون : إنه يقدم عليكم وفد وهنتهم حمى يثرب فأمرهم النبى صلي الله عليه وسلم أن يرملوا الأشواط الثلاثة وأن يمشوا مابين الركنين ، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها الا الإبقاء عليهم » وفي رواية « لما قدم النبي صلي الله عليه وسلم لعامه الذي استأمن قال : ارملوا ليري المشركون قوتكم ، والمشركون من قِبَل قُعَيْقِعَان »

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إنما سعي النبي صلي الله عليه وسلم بالبيت وبين الصفا والمروة ليُرى المشركين قوته »[1].

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : لما قدم رسول الله صلي الله عليه وسلم المدينة وعك [2] أبو بكر وبلال ، فكان أبو بكر إذا أخذته الحمي يقول .

كل امرىء مُصَبَّحٌ فــى أهلـه ∴ والموت أدنـــي مـن شراك نعلـه

وكان بلال إذا أُقلع عن الحمى يرفع عقيرته[3] يقول

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ∴ بواد[4] وحولى إذخِرٌ، وجَليلُ[5]

وهل أرِدَنْ يوما مياه مجنّـه [6] ∴ وهل يَبْدُوَنْ لي شامة وَطفيلُ [7]

وقال :اللهم العن شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وأمية بن خلف كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء .

---

(١) أخرجهما البخارى . فتح ٥٠٨/٧ ، ٥٠٩، رقم ٤٢٥٦ ، ٤٢٥٧ وراجع رقم ١٦٠٢، وراجع جامع الأصول /١٦٢

(٢) بضم اوله أي أصابه الوعك وهو الحمى ، وقيل مغث الحمى .

(٣) أى يرفع صوته ببكاء أو غناء .

(٤) أى بوادى مكة .

(٥) نبت ضعيف يحشى به خصاص البيوت وغيرها .

(٦) موضع علي أميال من مكة.

(٧) شامة وطفيل جبلان بقرب مكة ، وقيل عينان .

ثم قال رسول الله صلي الله عليه وسلم : اللهم حبب الينا المدينة كحبنا مكة أو أشد . اللهم بارك لنا فى صاعنا ومدنا وصححها لنا ، وانقل حماها الي الجحفة . قالت : وقدمنا المدينة وهي أوبأ أرض الله . قالت : فكان بُطْحان يجري نَجلا . تعنى ماء آجنا (١)(٢).

*٣- وأما كونها لا يندفع ماؤها وإنما ينز نَزاً مما يجعله متغيراً يورث الوباء فهذا ظاهر من حديث عائشة السابق والذى فيه « وقدمنا المدينة وهى أوبأ أرض الله ، فكان بطحان يجري نجلا » وبطحان وادى المدينة ، ويجري نجلا فسره الراوى عنها بأن معناه « ماء آجنا » أي متغيراً ، وأرادت أم المؤمنين بذلك بيان السر في كون المدينة وبيئة ، وهو أن وادي المدينة كان ماؤه ينز نزاً فيتغير الماء وهذا مما يحدث الوباء في العادة .

*٤- وأما كون أهلها متطاحنين متحاربين فيما بينهم ، فلقد كان الأوس في ناحية والخزرج في ناحية ، أما اليهود فينحازون إلي الأوس للعهود التى كانت بينهم على المؤازرة والتناصر ضد الخزرج ، وكانت الحروب تشتعل بين الفريقين لأبسط الأسباب ، ومن أشهر هذه الحروب يوم بعاث » وبعاث مكان ويقال حصن ويقال مزرعة عند بني قريظة علي ميلين من المدينة ، كانت به وقعة بين الأوس والخزرج سببها أنه كان من قاعدتهم أن الأصيل لايقتل بالحليف ، فَقَتَل رجلٌ من الأوس حليفاً للخزرج فأرادوا أن يقيدوه فامتنعوا ، فوقعت الحرب من أجل ذلك ، وقتل فيها كثير من أكابرهم ، وكان رئيس الأوس حضير والد أسيد بن حضير ، ورئيس الخزرج عمرو بن النعمان البياضى ، وفى أول هذه الحرب كان النصر

---

(١) أى متغير فتح ١٠١/٤

(٢) أخرجه البخارى . فتح ٩٩/٤ رقم ١٨٨٩ ، و٢٦٢/٧ رقم ٣٩٢٦ وغير ذلك .

للخزرج ، ثم إن الأوس جمعوا أشتاتهم وإستعانوا بغيرهم من اليهود ، وجددوا العهود علي المؤازرة والتناصر فانتصر الأوس ، وفي هذه المعركة قتل رئيسا الفريقين ، فقتل حضير رئيس الأوس بجراحه ، وقتل عمرو البياضى رئيس الخزرج

ومن يوم بعاث هذا استفاد الأوس والخزرج كثيراً . فإن أكابرهم قتلواوهم الذين كانوا سيقفون في وجه الدعوة الإسلامية لو جاءت وهم أحياء ، يبدوا هذا جلياً من موقف أحد هؤلاء الأكابر وقد بقي حياً وهو عبدالله بن أبىً فإنه - كما هو معلوم - وقف في وجه الدعوة ، وكاد لها ، وتزعم المنافقين ضدها مما يجعل الدارس يدرك مدى نعمة الله علي الأوس والخزرج بموت الكثيرين من أمثال هذا .

ومن آثار هذه الموقعة أيضاً أن الأوس والخزرج أدركوا مدي الدمار الذي يلحقهم من الحروب وتمنوا لو أن شيئاً يوحدهم ويجمعهم ، فرأوا في الإسلام ذلك فأسرعوا إليه ولذا يبين الله نعمته عليهم ويذكرهم بها في قوله سبحانه :

« وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا »(١).

عن الربيع في قوله « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء » يقتل بعضكم بعضاً ، ويأكل شديدكم ضعيفكم حتي جاء الله بالإسلام فألف به بينكم وجمع جمعكم عليه وجعلكم عليه إخواناً »(٢).

وعن عكرمة قال : لقى النبي صلي الله عليه وسلم نفراً من الأنصار فآمنوا به وصدقوا وأراد أن يذهب معهم فقالوا يارسول الله إن بين قومنا حرباً وإنا نخاف إن جئت علي حالك هذه أن لا يتهيأ الذي تريد فواعدوه العام المقبل ، فقالوا نذهب برسول الله صلي الله عليه وسلم فلعل الله أن يصلح تلك الحرب ، وكانوا يرون

(١) آل عمران آية ١٠٣

(٢) ذكره فى الدر ٢/ ٦١ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم .

أنها لا تصلح وهي يوم بعاث فلقوه من العام المقبل سبعين رجلاً قد آمنوا به فأخذ منهم النقباء اثنى عشر رجلاً فذلك حين يقول « اذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم »[١].

وعن ابن إسحاق قال : كانت الحرب بين الأوس والخزرج عشرين ومائة سنة حتى قام الإسلام فأطفأ الله ذلك وألف بينهم[٢].

وعن أنس قال : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم : يا معشر الأنصار بم تمنون عليّ !! أليس جئتكم ضلالا فهداكم الله بى ؟ ، وجئتكم أعداء فألف الله بين قلوبكم بى ؟ قالوا بلى يارسول الله[٣].

ولسوف تدرك طبيعة القوم ، وأثر يوم بعاث فيهم من حديث جابر عند البخارى. ففيه تصوير ماكان عليه القوم من عصبية ، ليس بين الأوس والخزرج فحسب ، وإنما كانت العصبية في دم الجميع حتى فى دم المهاجرين ، وفيه أيضاً ماكان عليه عبد الله بن أبى الوحيد الذي بقى من أكابر الأوس والخزرج والذي كان يتمنى الزعامة .

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : كنا في غزاة فكسع رجلُ من المهاجرين رجلا من الأنصار ، فقال الأنصارى : يا للأنصار ، وقال المهاجرى : يا للمهاجرين . فسمّعها اللهُ رسولَه صلي الله عليه وسلم ، قال : ماهذا ؟ فقالوا كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار ، فقال الأنصارى : ياللأنصار وقال المهاجرى : ياللمهاجرين ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : دعوها فإنها منتنة . قال جابر : وكانت الأنصار حين قدم النبى صلي الله عليه وسلم أكثر ثم كثر

---

(١) ذكره في الدر ٢/٦١ وعزاه لابن جرير وابن المنذر .

(٢) ذكره في الدر ٢/٦١ وعزاه لابن جرير.

(٣) أخرجه ابن ابي حاتم . كذا في الدر ٢/٦١.

المهاجرون بعد ، فقال عبد الله بن أبيّ : أو قد فعلوا ؟ والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : دعني يارسول الله أضرب عنق هذا المنافق . قال النبى صلى الله عليه وسلم : دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه[1].

والغزوة التي حدث فيها هذا هي غزوة بنى المصطلق ، وقوله صلي الله عليه وسلم « دعوها فإنها منتنة » الضمير يعود علي دعوى الجاهلية ، أي أن دعوي الجاهلية كلمة خبيثة فاتركوها ، ولا ينصر الأخ أخاه مطلقاً ولا يتعصب له لمجرد ما بينهما من رابطة وإنما ينصره إذا كان مظلوماً بمساعدته ، وإذا كان ظالماً بمنعه من الظلم .

وإذا كان يوم بعاث بهذه الفائدة للأنصار فهذا مايفيده ويؤكده حديث عائشة عند البخارى ، والذي يفيد أن يوم بعاث كان سبباً في دخول الأنصار الإسلام ، وأزاح الفئة التي كان يمكن أن تحارب الإسلام ويستجاب لها لمنزلتهم ، وشوّق الأنصار لما يجمعهم ويمنع الحروب عنهم فالتمسوا ذلك في الإسلام .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان يوم بعاث يوما قدّمه الله لرسوله صلي الله عليه وسلم ، فقدم رسول الله صلي الله عليه وسلم وقد افترق ملؤهم ، وقتلت سـرواتهم [2] وجُرِّحوا فقدمه الله لرسوله صلي الله عليه وسلم في دخولهم في الإسلام[3].

قال الحافظ : فقتل فيها - أى فى حرب بعاث - من أكابرهم من كان لايؤمن ،

---

(١) أخرجه البخارى . فتح ٦٥٢/٨ رقم ٤٩٠٧ و٦٤٨/٨ رقم ٤٩٠٥.

(٢) سروات - بفتح المهملة والراء والواو - جمع سراة - بفتح المهملة وتخفيف الراء - والسراة : جمع سرى وهو الشريف.

(٣) أخرجه البخارى . فتح ١١٠/٧.

أى يتكبر ويأنف أن يدخل في الإسلام حتى لا يكون تحت حكم غيره ، وقد كان بقي منهم من هذا النحو عبد الله بن أُبيِّ بن سلول . وقصته فى ذلك مشهورة[1].

هذه هي الصفات السلبية التي كانت فى المدينة ، وهذا علاج رسول الله صلي الله عليه وسلم لها ، فلقد غيّر صلي الله عليه وسلم اسمها ، ودعا الله سبحانه وتعالي لها فأذهب حُمّاها وأذهب وباءها ، حتى أصبحت طابة .

أما أمر تطاحن الأنصار والذي كان من سمات كل العرب تقريباً فهذا تولى الله القدير علاجه « وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »[2].

« وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ »[3].

وبذا زالت - بحمد الله ومنّه - سلبياتها ، وأصبحت تعد من إيجابياتها ، وأصبحت المدينة خيراً محضا، وطيبا صرفا .

« وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا »[4]

أما إيجابياتها :-

فكان أهلها لا يقبلون أن يعتدى أحد عليهم ، وكانت كثيرة الشر :-

فبرغم الحروب التي كانت بين الأوس والخزرج كانوا لا يقبلون أن ينال أحد منهم

(١) فتح ١١١/٧.
(٢) الأنفال آية ٦٣.
(٣) آل عمران آية ١٠٣.
(٤) الإسراء آية ٨٠ .

شيئاً ، وكان العرب جميعاً يحسبون حسابهم ، ورغم أن المدينة كانت قبل الإسلام وبيئة فإن هذا لم يؤثر علي سكانها إذ أن الوباء كان يؤثر على من سكنها من غير أهلها ، أما أهلها فإن أجسامهم قد تحصنت ضد هذا الوباء ، شأن سكان أي منطقة بها وباء .

لقد كان العرب يخطبون ود الأنصار ليحظوا بشراء حاجياتهم منهم ، أو ليحظوا بقراهم . أو ليأمنوا عند المرور عليهم ، وما سجل التاريخ اعتداء لأحد علي المدينة - والتى كانت تسمى يثرب - وإنما سجل تمام حماية أهلها لها . وأثبتت ذلك النصوص ، كما أثبتت شجاعة أهلها وغيرتهم علي بلدهم .

عن سعد بن معاذ أنه كان صديقاً لأمية بن خلف ، وكان أمية إذا مر بالمدينة نزل علي سعد ، وكان سعد إذا مر بمكة نزل علي أمية . فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انطلق سعد معتمرا فنزل علي أمية بمكة ، فقال لأمية انظر لى ساعة خلوة لعلّى أن أطوف بالبيت . فخرج به قريبا من نصف النهار ، فلقيهما أبو جهل فقال : يا أبا صفوان من هذا معك ؟ فقال : هذا سعد . فقال له أبو جهل : ألا أراك تطوف بمكة آمنا ، وقد آويتم الصُبَاة وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم ؟ أما والله لولا انك مع أبى صفوان مارجعت إلى أهلك سالما . فقال له سعد - ورفع صوته عليه - : أما والله لو منعتني هذا لأمنعنك ماهو أشد عليك منه : طريقك علي المدينة ، فقال له أمية : لا ترفع صوتك يا سعد علي أبى الحكم سيد الوادى . فقال سعد : دعنا عنك ياأمية . . . الحديث وقد تقدم بتمامه فى أخلاقه صلي الله عليه وسلم قبل البعثة[1].

---

(١) أخرجه البخارى . فتح ٢٨٢/٧ رقم ٣٩٥٠، ٦٢٩/٦ رقم ٣٦٣٢.

وفى حديث كعب بن مالك فى ليلة بيعة العقبة الثانية قال صلى الله عليه وسلم : أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم . قال : فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم ، والذى بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أُزُرنا [١] ، فبايِعْنَا رسولَ الله فنحن أهل الحروب وأهل الحَلْقة [٢] ورثناها كابرا عن كابر . . . الحديث[٣].

وقد ظهرت شجاعتهم وجرأتهم على الحروب يوم بدر ، فلقد كانوا عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة على نصرته ممن يقصده ، فلما سار بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين فى بدر أراد أن يعرف مدى حرصهم على الاشتراك فى المعركة فوجد منهم ما أسعده وسره .

« عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب اليّ مما عدل به : أتى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يدعو على المشركين فقال : لا نقول كما قال قوم موسى « اذهب أنت وربك فقاتلا » ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك ، وبين يديك وخلفك . فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم أشرق وجهه وسره ، يعنى قوله »[٤].

« وعن علقة بن وقاص الليثى قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر حتى إذا كنا بالروحاء خطب الناس فقال : كيف ترون ؟ فقال أبو بكر : يارسول الله بلغنا أنهم كذا وكذا . ثم خطب الناس فقال : كيف ترون ؟ فقال عمر

---

(١) بضم الهمزة والزاى جمع إزار ، يذكر ويؤنث ، ويكنى بالإزار عن المرأة ، وعن النفس .

(٢) بفتح الحاء المهملة وسكون اللام اسم لجملة السلاح والدروع وما أشبهها .

(٣) أخرجه أحمد . الفتح الربانى ٢٧١/٢٠ - ٢٧٥، قال فى بلوغ الأمانى : رجاله ثقات .

(٤) أخرجه البخارى . فتح ٢٨٧/٧ رقم٣٩٥٢ و٢٧٣/٨ رقم ٤٦٠٩ .

مثل قول أبى بكر ، ثم خطب الناس فقال : كيف ترون ؟ فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله إيانا تريد ؟ فوالذى أكرمك وأنزل عليك الكتاب ما سلكتها قط ولا لى بها علم ، ولئن سرت حتى تأتى برك الغماد من ذى يمن لنسيرن معك ، ولا نكون كالذين قالوا لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم متبعون ، ولعلك أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله إليك غيره فانظر الذى أحدث الله إليك فامض له فصل حبال من شئت . واقطع حبال من شئت وعاد من شئت وسالم من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت فنزل القرآن على قول سعد (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) الى قوله (ويقطع دابر الكافرين) وإنما رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غنيمة مع أبى سفيان فأحدث الله إليه القتال »[1].

« وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سار إلى بدر استشار المسلمين فأشار عليه عمر ثم استشارهم فقالت الأنصار : يا معشر الأنصار إياكم يريد رسول الله صلي الله عليه وسلم . قالوا : لانقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ، والذى بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك»[2].

وفى غزوة الأحزاب تجلت شجاعة القوم ، وظهر حرصهم علي الأفضل ، وأنهم ليسوا ممن يفرطون فى وطنهم ، وأن هذا كان شأنهم قديما .

(١) أخرجه ابن أبى شيبة مرسلاً . ذكره فى الدر ١٦٣/٣ وعزاه له . وذكره فى الفتح ٢٨٧/٧ مختصراً وحكم بارساله . وهو بين . وراجع سورة الأنفال آية ٥ - ٧ .
(٢) أخرجه أحمد والنسائى وابن حبان . كذا فى الدر ٢٧١/٢.

فعندما اجتمع المشركون وأحاطوا بالمسلمين من كل ناحية ، وآزرهم اليهود ، وخذّل المنافقون ، استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم السعدين في أن يعطى غطفان ثلث ثمار المدينة علي أن ترجع فرفض السعدان ذلك ، وأصرا على الحرب مهما كان ، وبَيّنَا شأنهم وشأن العرب قبل الأسلام ، وأنهم ما ازدادوا بالأسلام الا عزاً .

عن الزهرى قال : فلما اشتد على الناس البلاء بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عيينة بن حصن والحارث بن عوف المرّ ى وهما قائدا غطفان وأعطاهما ثلث ثمار المدينة ، علي أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه ، فجري بينه وبينهم الصلح حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولاعزيمة الصلح إلا المراوضة . فلما أراد رسول الله صلي الله عليه وسلم أن يفعل ذلك بعث إلى السعدين فذكر لهما ذلك واستشارهما فيه ، فقالا : يا رسول الله أمرا تحبه فنصنعه ، أم شيئا أمرك الله به لابد لنا من العمل به ، أم شيئا تصنعه لنا ؟ فقال : بل شىء أصنعه لكم ، والله ماأصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما . فقال له سعد بن معاذ : يارسول الله قد كنا وهؤلاء علي الشرك بالله وعبادة الأوثان لانعبد الله ولانعرفه ، وهم لايطمعون أن يأكلوا منها ثمرة واحدة إلا قرى أو بيعاً ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟ مالنا بهذا من حاجة ، والله لانعطيهم إلا السيف ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم ! فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أنت وذاك . فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها

من الكتاب ثم قال : ليجهدوا علينا[1] .

وواضح من هذه النصوص ما كان يتمتع به الأنصار من شجاعة وجرأة ومعرفة بفنون الحروب .

- ولسوف يتضح هذا أكثر عند الكلام على المغازى - كما أنه واضح أن المدينة كانت ذات ثمر ، حتي يظهر هذا من رواية الزهرى السابقة ولفظها عند عبد الرزاق "أرسل النبي صلي الله عليه وسلم إلى عيينة بن حصن بن بدر الفزارى وهو يومئذ رأس المشركين من غطفان وهو مع أبى سفيان : أرأيت إن جعلت لك ثلث ثمر الأنصار أترجع بمن معك من غطفان وتخذل بين الأحزاب ؟ فأرسل اليه عيينة : إن جعلت لي الشطر فعلت " لقد كان ثمر المدينة جديراً بأن يغرى رؤساء الكفر بنقض ما عزموا عليه ، كما كان جديراً أن يمزق جمعهم ! أما الأنصار فإن الله سبحانه أراد لهم أن يكونوا حماة الدعوة وهم أهل لذلك ، ويبدو لى - والله أعلم - أن الحروب التي كانت بينهم قبل الإسلام أفادتهم بعد الأسلام كثيراً دربوا على المعارك ، وبها عرفوا طعم الإسلام .

وهكذا كانت دار الهجرة داراً ذات ثمر ، ولها أهل يحمون الثمر وبلده .

ب - فضائلها :-

أ - لايدخلها الطاعون ولا الدجّال :

من فضائل مدينته صلي الله عليه وسلم أن الله سبحانه وكل بها ملائكة يمنعون الشر المحض من دخولها فيمنعون الطاعون ويحفظ الله أهل المدينة من

---

(١) أخرجه ابن اسحاق ونقله عنه ابن كثير ٣ / ٢٠١ وهو عند عبدالرزاق فى المصنف راجع الجزء الذى طبع من المصنف تحت عنوان " المغازى النبوية " لابن شهاب الزهرى صـ ٧٩ وراجع المصنف نفسه حـ ٥ صـ وأخرجه ابن سعد فى الطبقات ٢ / ٧٣.

هذا الوباء، ويمنعون الدجال فلايدخلها ، ولايصيب أهلها رعبه .

« عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم : علي أنقاب المدينة ملائكة ، لايدخلها الطاعون ولا الدجال »[1].

وعن أبي هريرة أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال : يأتى المسيح من قبل المشرق همّتُه المدينة . حتي ينزل دبر أحد . ثم تصرف الملائكة وجهه قبل الشام . وهنالك يهلك[2].

« وعن أبى بكرة رضي الله عنه عن النبى صلي الله عليه وسلم قال : لايدخل المدينة رعب المسيح الدجال ، لها يومئذ سبعة أبواب على كل باب ملكان »[3].

أما المنافقون والكفار الذين سيكونون فيها عند خروج الدجال فإن المدينة يحصل لها زلزلة ، ثم زلزلة ثم زلزلة فيخرج منها كل منافق وكافر فيقابلهم الدجال عند سبخة الجُرُف [4] ويظهر أمامهم بعض أفاعيله فإذا رأوا ذلك صدقوه وأيقنوا أنه ربهم .

عن أبى سعيد الخدرى قال : حدثنا رسول الله صلي الله عليه وسلم يوما حديثاً طويلا عن الدجال ، فكان فيما يحدثنا به أنه قال : يأتي الدجال ، وهو محرم عليه أن يدخل نقاب المدينة ، فينزل بعض السباخ التي تلي المدينة فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس أو من خيار الناس فيقول أشهد أنك الدجّال الذى حدثنا

---

(١) أخرجه البخارى . فتح ٤ / ٩٥ رقم ١٨٨٠ ومسلم ٢ / ١٠٠٥ رقم ٤٨٥ .

(٢) أخرجه مسلم ٢ / ١٠٠٥ رقم ٤٨٦.

(٣) أخرجه البخارى . فتح ٤ / ٩٥ رقم ١٨٧٩.

(٤) السبخة - بفتحتين الأرض الرملة التى لاتنبت لملوحتها ، وهذه الصفة خارج المدينة من غير جهة الحرة .

رسول الله صلي الله عليه وسلم حديثه ، فيقول الدجال : أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته هل تشكون في الأمر ؟ فيقولون : لا ، فيقتله ثم يحييه ، فيقول : والله ماكنت فيك أشد بصيرة منى اليوم ، فيريد الدجال أن يقتله فلايسلط عليه[١].

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال « ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال ، إلا مكة والمدينة ، وليس نقبٌ من أنقابها إلا عليه الملائكة صافين ، يحرسونها فينزل السبخة ، ثم ترجُف المدينةُ بأهلها ثلاث رجفات ، فيخرج إليه كل كافر ومنافق »

وفى رواية نحوه وقال : " فيأتي سبخة الجرف " وقال « فيخرج اليه كل منافق ومنافقة »[٢].

ب - إثم كائدها : -

ومن فضائل المدينة أن الله سبحانه قد بين على لسان نبيه عظم جرم من أرادها بسوء وأنه سيضمحل أمره ولن يبقى ملكه وانما ستعجّل له عقوبته ويُلقى اللهُ الرعبَ في قلبه وفوق ذلك فقد حلت عليه لعنة الله . فليعتبر العقلاء ، والهلاك ينتظر الجهلاء .

« عن عائشة - هى بنت سعد بن أبى وقاص - قالت : سمعت سعداً رضى الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : لايكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح في الماء »[٣].

وفي رواية « ولايريد أحد أهل المدينة بسوء إلا أذابه الله في النار ذوب

---

(١) أخرجه البخارى . فتح ١٣ / ١٠١ رقم ٧١٣٢ ، و ٤ / ٩٥ رقم ١٨٨٢.

(٢) أخرجه البخارى ومسلم . جامع الأصول جـ٩ ص ٣٢٨ رقم ٦٩٤٩ راجع البخارى .فتح البارى ٤/٩٥ ومسلم ٢/١٠٠٥ وجامع الأصول ٩/ ٣٢٧ رقم ٦٩٤٧ - ٦٩٥٠

(٣) أخرجه البخارى . فتح ٤ / ٩٤رقم ١٨٧٧، ومسلم ٢ / ١٠٠٨ رقم ٤٩٤ .

الرصاص ، أو ذوب الملح في الماء»[1].

وفي رواية - عن سعد أيضاً - « من أرادأهل المدينة بدهم [2] أو بسوء»[3].

وقوله صلي الله عليه وسلم « إلا انماع » تغـيرها « إلا أذابه الله » يقال : انماع الشيء يعنى ذاب وتفرقت أجزاؤه .

وهذه العقوبة لمن كاد أهل المدينة مسلما كان أو كافراً ، ويجوز أن تكون في الآخرة ويرشح هذا رواية مسلم « إلا أذابه الله في النار ذوب الرصاص » . ويجوز أن تكون في الدنيا وأن من أرادها بسوء اضمحل أمره اضمحلال الرصاص في النار ، وعلي ذلك فقوله صلي الله عليه وسلم « إلا أذابه الله في النار ذوب الرصاص " فيه تقديم وتأخير والأصل « إلا أذابه الله ذوب الرصاص في النار » ومما يقوى هذا القول قوله صلي الله عليه وسلم بعد ذلك « أو ذوب الملح في الماء» فهذا يقوى القول بأن ما قبله فيه تقديم وتأخير ، وعلى القول بأن العقوبة في الدنيا يكون المعنى .

أ - من أرادها بسوء في حياته صلي الله عليه وسلم اضمحل أمره اضمحلال الرصاص فى النار . وهذا تخصيص بدون مخصص ، إلا إذا قلنا ومابعد وفاته ملحق بما قبله .

ب - من أرادها بسوء أهلكه الله وأزال سلطانه عن قرب كما وقع لمسلم بن عقبة وغيره فإنه عوجل عن قرب ، وكذلك من أرسله .

---

(١) مسلم ٢ / ٩٩٢ رقم ٤٦٠.

(٢) أى بغائلة وأمر عظيم .

(٣) مسلم ٢ / ١٠٠٨ رقم ٤٩٤.

وهذا القول يقويه حديث سعد [١] والذى فيه « إلا أذابه الله في النار ذوب الرصاص » وذلك أن صدره « إنى أحرم ما بين لابتى المدينة » وهذا مما يرجح القول بأن العقوبة في الدنيا .

ويقويه أيضاً حديث السائب بن خلاد رفعه « من أخاف أهل المدينة ظالما لهم أخافه الله ، وكانت عليه لعنة الله »[٢].

وأيضاً حديث جابر عند ابن حبان « من أخاف أهل المدينة أخافه الله »[٣].

جـ - دعاؤه صلى الله عليه وسلم لها :-

ومن فضائل المدينة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل الله لها كثيرا من الخيرات ، فدعا صلي الله عليه وسلم لها أن يذهب الله عنها حماها ، واستجاب الله سبحانه وذهبت عنها حماها وانتقلت إلي الجحفة ، فمن نزلها الآن حُمَّ ، ولسوف تدرك عظمة دعوته صلي الله عليه وسلم إذا علمت أن الجحفة قرية خربة كما يدل علي ذلك اسمها ، وكان اسمها مهيعة - بوزن علقمة ، أو بوزن عظيمة - وكان العماليق يسكنون يثرب فوقع بينهم وبين بنى عبيل - بفتح العين المهملة وكسر الباء الموحدة وهم أخوة عاد - حرب فأخرجوهم من يثرب فنزلوا مهيعة فجاء سيل فاجتحفهم فسميت الجحفة . وهي مازلت إلى الآن خربة ، ولذا فإن حجاج الشام ومصر يحرمون من رابغ الموازية لها نظراً لعدم معرفة الجحفة لعدم عمارتها .

فهو صلي الله عليه وسلم لم يطلب نقل الحمي الي مكان عامر،وانما إلي مكان إذا نزلت لا يضار بذلك أحد ،فصلي الله وسلم عليه وعلي آله وأصحابه أجمعين .

ودعا صلي الله عليه وسلم لها بالبركة ، وأن تكون الأشياء فيها مباركة كالبلد

---

(١) الذى استُدل به علي أن العقوبة أخروية ، فهو نفسه فيه ما يشير الي أنها دنيوية .

(٢) ذكره في الفتح ٤ / ٩٤ وعزاه للنسائى.

(٣) موارد الظمآن صـ٢٥٦ ، ٢٥٧ رقم ١٠٣٩.

الحرام مكة بل ضعفي ما فى مكة من البركة ، فالبركة في الثمار ، وفي الزروع ، وفي المد ، وفي الصاع ، وفي المدينة كلها ، بركة دينية ودنيوية ، فالصاع فيها يكفي مالا يكفيه الصاع في غيرها ، والصيام فيها أمره يسير وأجره عظيم تفوق في ذلك غيرها . يستثني من ذلك ماورد فيه نص ، فالصلاة في مكة أفضل منها في المدينة .

ودعا صلي الله عليه وسلم ربه أن يصححها ، فأصبح العيش فيها أطيب من غيرها ، وهواؤها وترابها أطيب منهما في غيرها ، حتي سماها الله سبحانه طابة، كما سماها صلي الله عليه وسلم طابة وطيبة .

« عن عائشة رضي الله عنها قالت : لما قدم رسول الله صلي الله عليه وسلم ......ثم قال اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد . اللهم بارك لنا في صاعنا وفي مدنا وصححها لنا ، وانقل حماها إلى الجحفة »[١].

وعن أبى هريرة قال : كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إلى النبي صلي الله عليه وسلم فإذا أخذه رسول الله صلي الله عليه وسلم قال : « اللهم بارك لنا في ثمرنا ، وبارك لنا في مدينتنا ، وبارك لنا في صاعنا ، وبارك لنا في مدنا ، اللهم إن ابراهيم عبدك وخليلك ونبيك ، وإني عبدك ونبيك وإنه دعاك لمكة وإني أدعوك للمدينة بمثل مادعاك لمكة ومثله معه » قال : ثم يدعو أصغر وليد له فيعطيه ذلك الثمر[٢].

« عن أنس رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : اللهم اجعل بالمدينة ضِعْفَى ما جعلت بمكة من البركة »[٣].

---

(١) أخرجه البخارى . فتح ٤ / ٩٩ رقم ٨٨٨، بأطول من هذا . ومسلم ٢ / ١٠٠٣ رقم ٤٨٠.
(٢) أخرجه مسلم ٢ / ١٠٠٠ رقم ٤٧٣.
(٣) أخرجه البخارى . فتح ٤ / ٩٧ رقم ١٨٨٥، ومسلم ٢ / ٩٩٤ رقم ١٣٦٩.

« عن أبي سعيد أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال : اللهم بارك لنا في صاعنا ومدنا ، واجعل مع البركة بركتين »[1].

د- تحريمها : -

وصارت المدينة بهجرته صلي الله عليه وسلم وإقامته فيها ، وبكونها أصبحت مركز الدعوة ومنطلق الجيوش الإسلامية ، صارت بهذا حرماً ، فلايقطع شجرها ، ولاينفر صيدها ، ولاتلتقط لقطتها إلا لمن يُعرفها ، ولايفعل فيها ماليس مشروعاً، ومن فعل ذلك فلايؤوى .

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبي صلي الله عليه وسلم قال :« حُرِّم مابين لابتى المدينة علي لسانى »[2].

وعنه أيضاً أن النبي صلي الله عليه وسلم قال : إن الله عز وجل حرم على لسانى مابين لابتي المدينة »[3].

وعن على بن أبى طالب قال : من زعم أن عندنا شيئا نقرؤه إلا كتاب الله وهذه الصحيفة - قال : وصحيفة معلقة في قراب سيفه - فقد كذب . فيها أسنان الإبل [4] ، وأشياء من الجراحات ، وفيها قال النبي صلى الله عليه وسلم : «المدينة حرام ، ما بين عَيْر إلى ثور [5] ، فمن أحدث فيها حدثاً [6] أو آوى

---

(١) أخرجه مسلم ٢ / ١٠٠٢ رقم ٤٧٦.

(٢) أخرجه البخارى . فتح ٤ / ٨١ رقم ١٨٦٩.

(٣) اخرجه أحمد قال الحافظ ٤ / ٨٤ ونحوه للاسماعيلى .

(٤) التى تعطى دية .

(٥) اسما جبلين من جبال المدينة ، أما عير - بفتح العين المهملة وسكون الياء المثناه - فعظيم شامخ يقع بجنوب المدينة علي مسافة ساعتين عنها تقريباً . وأما ثور - بفتح فسكون - فصغير بتدوير يميل الي الحمرة ، ويقع خلف أحد من جهة الشمال ، وهو في شمال المدينة ، فهما يحدان المدينة من الشمال والجنوب .

(٦) أى فعل ما ينكر شرعاً .

محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . لايقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولاعدلا [١]. . . الحديث[٢].

« عن عبد الله بن زيد المازني رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول : إن إبراهيم حرم مكة ودعالها - وفي رواية : ودعا لأهلها - وإني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة ، وإني دعوت في صاعها ومدها بمثلى ما دعا به إبراهيم لأهل مكة »[٣].

« عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلي الله عليه وسلم قال « المدينة حرم من كذا إلى كذا لايُقطع شجرها ولايُحدث فيها حدث . من أحدث حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين »[٤].

« عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : خرجت مع رسول الله صلي الله عليه وسلم إلى خيبر أخدمه ، فلما قدم النبي صلي الله عليه وسلم راجعاً وبدا له أحد قال : هذا جبل يحبنا ونحبه . ثم أشار بيده إلى المدينة قال : اللهم إنى أحرم مابين لا بتيها كتحريم إبراهيم مكة ، اللهم بارك لنا في صاعنا ومُدّنا »[٥].

« عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه كان يقول : لو رأيت الظباء بالمدينة ترتع ماذعرتها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مابين لابتيها حرام »[٦].

---

(١) أى لايقبل منه توبة ولافدية ، وقيل المعنى : لاتقبل منه فريضة ولانافلة .

(٢) أخرجه مسلم ٢ / ٩٩٤ رقم ٤٦٧ .

(٣) أخرجه البخارى ومسلم . جامع ٩ / ٣٠٨ رقم ٦٩١٦، فتح ٤ / ٣٤٦ ، مسلم ٢ / ٩٩١ رقم ١٣٦٠.

(٤) أخرجه البخارى . فتح ٤ / ٨١ رقم ١٨٦٧.

(٥) أخرجه البخارى . فتح ٦ / ٨٣ رقم ٢٨٨٩.

(٦) أخرجه البخارى . فتح ٤ / ٨٩ رقم ١٨٧٣.

هـ - فضل الإقامة بها :-

وبيّن صلي الله عليه وسلم أن البلاد ستفتح ، وفيها كثير من الرخاء ، مما يطمع بعض المقيمين في المدينة ، فيتركون المدينة ويذهبون إلى هذه البلاد حيث الزراعات والرعى ، وحيث العيش الرغيد ، وهذا ومثله همة الكثير من الناس ، أما المدينة فستظل بمسجدها الذى تفضل الصلاة فيه ألف صلاة في مساجد هذه البلاد التي ستفتح ، وستظل منزل البركات ، ومدرسة الإسلام الأساسية ، ،مع هذا فهى حرم رسول الله صلي الله عليه وسلم وجواره ومهبط الوحى ، وكل ذلك أدعى لتذكر تاريخ الاسلام ، وأماكن نزول الوحى والتشريع مما يبعث الجدة في فكر المسلم ، ويوطد العلاقة بينه وبين مدينة الإسلام بكل تراثها .

« عن سفيان بن أبى زهير رضى الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول : تفتح اليمن ، فيأتي قوم يبسون ، فيتحملون بأهلهم ومن أطاعهم ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون . وتفتح الشام فيأتى قوم يبسون فيتحملون بأهلهم ومن أطاعهم ، والمدينة خير لهم لوكانوا يعلمون ، وتفتح العراق فيأتي قوم يبسون ، فيتحملون بأهلهم ومن أطاعهم ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون »[1].

روى " يَبُسِون " بفتح أوله ، وضم الباء الموحدة أو كسرها من الثلاثى ، والمعنى : يسوقون دوابهم ويزجرونها للخروج من المدينة والوصول إلى المكان الذي يريدونه.

وروى " يُبِسون " بضم أوله من الرباعى وكسر ثانيه ، والمعنى يزينون لأهلهم البلد الذى يقصدونه . ويؤيد هذا ماجاء في رواية مسلم :

عن أبى هريرة أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال : يأتي علي الناس زمان

---

(١) أخرجه البخارى . فتح ٤ / ٩٠ رقم ١٨٧٥.

يدعوالرجل ابن عمه وقريبه : هلمّ إلى الرخاء ! هلمّ إلى الرخاء ! والمدينة خير لهم لوكانوا يعلمون ..... الحديث[1].

والمعنى أنه صلى الله عليه وسلم يخبر أن الرخاء سيجعل الناس يخرجون من المدينة مسرعين يزجرون دوابهم للحاق بالأرياف حيث الخصب والرخاء ، ينادي المرء أقاربه كي ينهضوا معه ، ويخبر صلى الله عليه وسلم أنه في ذلك ليس على صواب ، فالمدينة فيها كثير من النفع الدينى وهذا هو الجدير بالحرص عليه من العاقل .

وفي حديث آخر يبين صلي الله عليه وسلم أن الجري وراء الماديات مما يورث الذل ، والأمتثال لأوامر الدين مما يورث الأمة عزا .

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول : « إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد ، سلط الله عليم ذلا لاينزعه حتى ترجعوا إلي دينكم »[2].

وفي إخباره صلى الله عليه وسلم بهذه الفتوح علم من أعلام نبوته ، فقد وقع فتحها ، وعلي ترتيب ما قاله صلي الله عليه وسلم ففتح اليمن ، ثم الشام ، ثم العراق ، وأم الناس هذه البلدان لما فيها من الرخاء . وطبعى فإن الجزاء قد تحقق ، وعلي الأمة أن ترجع إلى دينها ، وأن تحرص علي الجهاد في سبيل الله .

فعن أبى أمامة صُدَىّ بن عجلان الباهلى قال : سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم - ورأى سكة أو شيئا من آلة الحرث - يقول « لايدخل هذا بيت قوم إلا أدخله الله الذل »[3].

(١) أخرجه مسلم ٢ / ١٠٠٥ رقم ٤٨٧.
(٢) أخرجه أبوداود في البيوع باب النهى عن العينة .
(٣) أخرجه البخارى . فتح ٥ / ٤ رقم ٢٣٢١.

و - فضل الصبر على شدتها :-

وإذا كانت البلدان ستفتح ، والرخاء والسعة ستشيع ، فبدهى أن الناس سيرغبون في الرخاء ويتركون المدينة ، وهو صلي الله عليه وسلم الذى أطلعه الله علي بعض ما يكون من أحوال أمته من بعده يعلم أن الحكم سيكون خارج المدينة - كما وقع وكان في الشام ثم العراق - فيرغب الناس عن سكناها ، ويقبلون علي مواطن الحكم ، وبلاد الرخاء ، أما المدينة فهي مركز الإسلام الأول ، فلايصح أن تهجر ، ولايصح أن يفضل غيرها عليها مهما كان فيها من شدة وجوع ، فالأولى بالمسلم أن يحرص علي القيام فيها ، فإن الجري وراد بلاد الحكم مدعاة الفتنة ، والسعي وراء بلاد الرخاء سبيل الاشتغال عن العبادة بغيرها .

فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال : من سكن البادية جفا ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى أبواب السلطان افتتن »[١].

وفي رواية أبى هريرة عند ابي داود « ومن لزم السلطان افتتن ، وما ازداد عبدٌ من السلطان دُنُواً إلا ازداد من الله بعداً »[٢].

وأهل المدينة محبون للدين ، محبون للمدينة ، وينشأ الناشيء فيهم على مافيهم ، لايختلطون بغيرهم من أصحاب الأهواء ، والمكائد ، فالأولى بالعاقل أن يحرص علي العيش في المدينة لكل هذا .

وفوق هذا فإنه صلى الله عليه وسلم يخبر أنه يكون شفيعاً أو شهيداً لمن حرص على القيام بها مهما كلفه ذلك .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

---

(١) أخرجه الترمذى والنسائى وأصله فى أبى داود ، جامع ١١ / ٧٨٧ رقم ٩٤٩٢.

(٢) جامع ١١ / ٧٨٨ رقم ٩٤٩٢.

"لا يصبر على لأواء المدينة وشدتها أحد من أمتى إلا كنت له شفيعاً يوم القيامة أو شهيداً "[1].

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم " من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها ، فإنى أشفع لمن يموت بها "[2].

ومن ثم كان عمر ابن الخطاب يسأل الله سبحانه أن يجعل موته فى بلد رسول الله صلى الله عليه وسلم فعن عمر رضى الله عنه قال : " اللهم ارزقنى شهادة فى سبيلك ، واجعل موتى فى بلد رسولك صلى الله عليه وسلم"[3].

ومن لم يصبر على شدتها وخرج منها فإن الله سبحانه يبدل فيها من هو خير منه .

فعن سعد بن أبى وقاص قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ... لايدعها أحد رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه ... "[4].

وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يأتى على الناس زمان يدعو الرجل ابن عمه وقريبه هلّم إلى الرخاء ! هلّم إلى الرخاء ! والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، والذى نفسى بيده ! لايخرج منهم أحد رغبة عنها إلا أخلف الله فيها خيراً منه ، ألا إن المدينة كالكير تخرج الخبيث . لاتقوم الساعة حتى تنفى المدينة شرارها ، كما ينفى الكير خبث الحديد[5].

---

(١) أخرجه مسلم ٢/١٠٠٤ رقم ٤٨٤ من عدة طرق ، واللأواء : الشدة والجوع . وأخرجه أيضاً عن غير أبى هريرة.

(٢) أخرجه الترمذى - ١٠/٤١٦ تحفة - وقال هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه وأخرجه ابن حبان . الموارد صـ ٢٥٥ رقم ١٠٣١

(٣) أخرجه البخارى . فتح ٤/١٠٠ رقم ١٨٩٠.

(٤) أخرجه مسلم ٢/٩٢٢ رقم ٤٥٩.

(٥) أخرجه مسلم ٢/١٠٠٥ رقم ٤٨٧.

ز - المدينة دار الإسلام الأولى :-

والمدينة مصدر الإسلام لكل الدنيا ، منها انتشر الإسلام ، وعاش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وجاهدوا واستشهدوا ، ومات صلى الله عليه وسلم وبعض أصحابه بها ، فهى دار الاسلام الأولى ، يلجأ المسلمون إليها فى كل خطب ، وينتظرون رأى علمائها فى كل ظرف .

" وكل مسلم له من نفسه سائق الى المدينة لمحبته فى النبى صلى الله عليه وسلم ، فيشمل ذلك جميع الأزمنة لأنه فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم للتعلم منه ، وفى زمن الصحابه والتابعين وتابعيهم للاقتداء بهديهم ، ومن بعد ذلك لزيارة قبره صلى الله عليه وسلم والصلاة فى مسجده ، والتبرك بمشاهدة آثاره وآثار أصحابه " (١) وتذكر تاريخ الاسلام ، ومواقف أهله الأولين ، والتعرف على ظروف الدعوة فى أيامها الأولى ، وأخذ العبرة من ذلك .

" عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الإيمان ليأرز الى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها "(٢).

ومعنى " يأرز " - بفتح الياء وسكون الهمزة وفى الراء ثلاثة أوجه أشهرها الكسر ثم الزاى - ينضم ويجتمع .

وعندما أكرمنى الله سبحانه بزيارة مدينته صلى الله عليه وسلم ، وزرت بعض الآثار النبوية كموضع الخندق ، وشهداء أحد ، وسرت على أحجار الحرة ، ورأيت حصن اليهودى كعب بن الأشرف ، استحضرت هذا الحديث الشريف وكنت وكأنى أعيش هذه الأيام المباركة يوم استشهاد " حمزة " وموقف المؤمنين ، وتتبعهم

---

(١) فتح البارى ٩٣/٤ .

(٢) أخرجه البخارى . فتح ٩٣/٤ . وأخرجه مسلم ١٣١/١ رقم ٢٣٣.

المشركين بعد أحد ، وأخذتنى الذاكرة من الدروس الى الواقع الملموس ، وتمنيت أن كنت هناك يومئذ وأن لو تنازلت عن الدنيا بأسرها ، فتذكرت قوله صلى الله عليه وسلم " وليأتين على أحدكم زمان لأن يرانى أحبُّ اليه من أن يكون له مثل أهله وماله"[1].

ح - المدينة آخر دار للإسلام :

وإذا كانت المدينة دار الإسلام الأولى ، فإنه جزاءً وفاقا ، ستظل داراً للإسلام إلى أن تنتهى الدنيا ، فتظل عامرة بالمؤمنين حتى لاتبقى دار سواها ، وبعد خرابها تكون الساعة .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : " قال النبى صلى الله عليه وسلم آخر قرية من قرى الإسلام خراباً المدينة "[2].

ط- حبه صلى الله عليه وسلم إياها :

ومن فضائل المدينة أنه صلى الله عليه وسلم كان يحبها ، كان يحبها حباً جعله إذا كان فى غيرها يسرع السير إليها ، وكيف لا ، وقد أظهر الله دينه منها ، ورزقه الأمن فيها ، وأصبحت مدينة الاسلام .

" عن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا قدم من سفر فنظر إلى جدران المدينة أوضع راحلته ، وإن كان على دابة حركها من حبها "

وفى رواية « فأبصر درجات المدينة " وروى " دوحات المدينة " وجدران : جمع جُدُر . جمع جدار ، والمعنى : رأي أبنيتها ، وهذه الرواية أرجح من تاليتيها ، ودرجات : جمع درجة ، والمراد طرقها المرتفعة .

---

(١) أخرجه البخارى ٦/٦٠٤ رقم ٣٥٨٩.

(٢) أخرجه الترمذى وقال : هذا حديث حسن غريب لانعرفه الا من حديث جنادة عن هشام . تحفة ١٠/٤١٨.

(٣) أخرجه البخارى . فتح ٤/٩٨ ، ٣/٦٢٠ رقم ١٨٠٢

حجرات رسول الله صلى الله عليه وسلم

هكذا سمى الله مساكن نبيه صلى الله عليه وسلم ، وذلك فى قوله سبحانه " إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لايعقلون "

والدارس للمنهج الاسلامى فى البنيان يدرك كيف ستكون مساكنه صلى الله عليه وسلم ، ويدرك كذلك السر فى هذا .

فعن أنس رضى الله عنه قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « النفقة كلها فى سبيل الله الا البناء فلا خير فيه »[١].

وعن أنس أيضا أنه صلى الله عليه وسلم قال : أما إنَّ كلّ بناء وبال على صاحبه إلا مالا ، إلا مالا "[٢].

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال " مر بى رسول الله صلى الله عليه وسلم - وأنا أطيّن حائطاً لى من خصٍّ - فقال : ما هذا يا عبد الله ؟ قلت : حائطا أصلحه يارسول الله قال : الأمر أيسر من ذلك » .

وفى رواية " ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك " .

وفى رواية " الأمر أسرع من ذلك "[٣].

وهكذا يتبين لنا أن الاسلام يريد من المسلم أن يبنى مايكنه من المطر ويظله من الشمس فقط ، أما المباهاة والإسراف فى المبانى ، والتطاول والتفاخر فهذه أمور ينكرها الإسلام ، لأن عمر المؤمن محسوب عليه فلينفقه فى طاعة الله ، ومايساعد على ذلك ، دون أن يقصد أمراً دنيوياً لذاته ، فطعام المؤمن ليس للذة

---

(١) أخرجه الترمذى . جامع ٦١٤/١ .

(٢) أخرجه أبو دواود . جامع ٦١٥/١.

(٣) أخرجه الترمذى وابو داود جامع ٦١٥/١ وراجع جامع الأصول ٦١٣/١ - ٦١٥ ففيه خير كثير .

ولا للشهوة وانما للتقوى على طاعة الله ، وثوبه ليس للشهرة ولا للخيلاء وانما لستر العورة ، وبيته ليس للتطاول والتباهى وانما للستر من الشمس والبرد وعيون الناظرين وقد كانت بيوته صلى الله عليه وسلم كذلك فلقد كانت من جريد النخل . قد طيّن هذا الجريد ، أوكُسى بمسوح من شعر ، وربما بنى بعضها بلبن وسقف جميعها من جريد .

أما مساحتها : فمنها بيوت كانت عبارة عن غرفة وفناء ، ومنها بيوت كانت عبارة عن غرفة فقط ، وكانت مساحة كل بيت تقريبا ستة عشر ذراعاً فى ثمانية أذرع ، ماكان مكونا من غرفة وفناء كانت الغرفة عشرة فى ثمانية أذرع ، والفناء ستة فى ثمانية أذرع ، أما ارتفاعها فكان الواقف يتناول سقفها بيده ، أما بابها فكان ثلاثة أذرع فى ذراع والعظم أو أدنى من العظم .

عن عطاء الخراسانى قال : أدركت حجر أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من جريد النخل ، على أبوابها المسوح من شعر أسود[١].

وعن داود بن شيبان قال : رأيت حجر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وعليها المسوح ، يعنى متاع الأعراب[٢].

وعن عبد الله بن زيد الهذلى قال : رأيت بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، حين هدمها عمر بن عبد العزيز ، كانت بيوتاً باللبن ولها حجر من جريد مطرورة بالطين ، عددت تسعة أبيات بحجرها وهى مابين بيت عائشة رضى الله عنها إلي الباب الذى يلى باب النبى صلى الله عليه وسلم إلى منزل أسماء بنت حسن بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس ورأيت بيت أم سلمة وحجرتها من لبن فسألت ابن ابنها فقال : لماغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة دومة بنت

(١) أخرجه ابن سعد ١/٤٩٩.

(٢) أخرجه ابن سعد ١/٥٠٠.

أم سلمة حجرتها ، بلبن فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم نظرا إلى اللبن فدخل عليها أول نسائه فقال : ماهذا البناء ؟ فقالت : أردت يارسول الله أن اكف أبصار الناس فقال : يا أم سلمة إن شر ماذهب فيه مال المسلمين البنيان(١).

وعن الحسن قال : كنت أدخل بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، فى خلافة عثمان بن عفان ، فأتناول سُقُفَها بيدى(٢).

وقد ذكر الحافظ ابن كثير قول الحسن هذا ثم قال : إلا أنه قد كان الحسن البصرى شكلا ضخماً طوالاً . قلت ، ماذكره ابن كثير لايفيد ارتفاع حجراته صلى الله عليه وسلم ، فإن الحسن كان يفعل ذلك فى خلافة عثمان ، وقد كان صغيراً آنذاك فإنه ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر ، وليس له عند المحدثين سماع من عثمان (٣) .

ثم إن هذا الأرتفاع لحجراته صلى الله عليه وسلم - وهو أن الواقف يتناول سقفها بيده - هو الذى تثبته النصوص ، ولقد سبق أنه صلى الله عليه وسلم جعل ارتفاع مسجده على هذه الوتيرة ، وما كان ليجعل حجراته أعلى من المسجد ، وقد قال صلى الله عليه وسلم فى شأن البنيان ماتقدم ذكره ، وعندما عاد من غزوة دومة فوجد أم مسلمة بنت حجرتها بلبن أنكر عليها قائلاً : ياأم سلمة إن شر ماذهب فيه مال المسلم البنيان(٤).

وعن داود بن قيس قال : رأيت الحجرات من جريد النخل مغشى من خارج

---

(١) أخرجه ابن سعد صـ ٤٩٩.

(٢) أخرجه ابن سعد ١/ ٥٠٠ . وذكره في الدر ٨٧/٦ وعزاه لابن سعد والبخارى فى الأدب المفرد ، وابن ابى الدنيا والبيهقى فى شعب الايمان .

(٣) راجع التهذيب ٢ / ٢٦٣ رقم ٤٨٨ .

(٤) أخرجه ابن سعد ٤٩٩/١.

بمسوح الشعر ، وأظن عرض البيت من باب الحجرة الى باب البيت نحواً من ستة أوسبعة أذرع .وأحرز البيت الداخل عشرة أذرع، وأظن سمكه بين الثمان والسبع[1].

وعن عمر بن أبى أنس : ذرعت الستر فوجدته ثلاث أذرع فى ذراع والعظم ، أو أدنى من العظم[2].

أثر القدوة :

وكم كان لزهده صلى الله عليه وسلم ذلك من عظيم الأثر ، فإن تواضعه صلى الله عليه وسلم فى مسكنه الى هذه الدرجة ، وهو الذى لو سأل الله عز وجل أن يجعل له الجبال ذهبا لجعلها له، وهو الذى كم جاءه من أموال منها ماهو من غنائم وما هو من زكاة ، ومع ذلك لم ينفق شيئاً فى بناء مماكان له عظيم الأثر فى نفوس أصحابه وتابعيهم ، وتمنوه لمن بعدهم .

فعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : رأيتنى مع النبى صلى الله عليه وسلم بنيت بيدى بيتا يكننى من المطر ويظلنى من الشمس ، ما أعاننى عليه أحد من خلق الله[3].

وكونه بنى بيده ولم يعنه أحد من خلق الله دليل على منتهى بساطة البناء .

وعن معاذ بن محمد الأنصارى قال : سمعت عطاء الخراسانى فى مجلس فيه عمر بن أبى أنس يقول وهو فيما بين القبر والمنبر : أدركت حجر أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من جريد النخل ، على أبوابها المسوح من شعر أسود ،

---

(١) ذكره فى الدر ٦/٨٧ وعزاه للبخارى فى الأدب وابن أبى الدنيا والبيهقى .

(٢) أخرجه ابن سعد وسيأتى تاما.

(٣) أخرجه البخارى ١١/٩٢ رقم ٦٣٠٢.

فحضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يقرأ يأمر بإدخال حجر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما رأيت أكثر باكيا من ذلك اليوم .

قال عطاء :فسمعت سعيد بن المسيب يقول يومئذ : والله لوددت أنهم تركوها على حالها ينشأ ناشىء من أهل المدينة ويقدم القادم من الأفق فيرى مااكتفى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته فيكون ذلك ممايزهد الناس فى التكاثر والتفاخر قال معاذ : فلما فرغ عطاء الخرسانى من حديثه قال عمر بن أبى أنس : كان منها أربعة أبيات بلبن لها حجر من جريد ، وكانت خمسة أبيات من جريد مطينة لا حجر لها على أبوابها مسوح الشعر ذرعت الستر فوجدته ثلاث أذرع فى ذراع والعظم أو أدنى من العظم فأما ماذكرت من البكاء يومئذ فلقد رأيتنى فى مجلس فيه نفر من أبناء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم أبو سلمة ابن عبد الرحمن بن عوف وأبو أمامة بن سهل بن حنيف وخارجة بن زيد بن ثابت وإنهم يبكون حتى أخضل لحاهم الدمع وقال يومئذ أبو امامة : ليتها تركت فلم تهدم حتى يقصر الناس عن البناء ، ويروا مارضى الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ومفاتيح خزائن الدنيا بيده[1].

والكلام عن حجراته صلى الله عليه وسلم يستلزم الكلام عن فراشه وأثاثه صلى الله عليه وسلم الذى كان فى حجراته هذه ، ولقد كان فراشه صلى الله عليه وسلم من منطلق الأعراض الكامل عن الدنيا والاقبال على الله ، كان من منطلق يصوره قوله صلى الله عليه وسلم " مالى وللدنيا ؟ ما أنا والدنيا الاكراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها " وكيف لايكون كذلك ، وهو الذى خُلُقه القرآن ، وفى القرآن

(١) أخرجه ابن سعد ١ / ٤٩٩ ، ٥٠٠.

« فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا [١] » ، وفيه « اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ [٢] ».

فكان فراشه صلى الله عليه وسلم حصيرا أو جلداً أو عباءة ، ووسادة من جلد حشوها ليف ، ولم يستعمل صلى الله عليه وسلم فراشا مزدوجاً قط ، وكان له سرير مرمول بشريط ، وقعب يشرب فيه الماء ، وجرة يجعل فيها الشيء ، وقطيفة للالتحاف بها ، وهو الذى لو سأل الله لأجرى معه جبال الذهب والفضة .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : " كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم من أدم ، وحشوه ليف "[٣].

وعن عمر رضى الله عنه " فدخلت فإذا النبى صلى الله عليه وسلم على حصير قد أثر فى جنبه ، وتحت رأسه مرفقة [٤] من أدم حشوها ليف "[٥].

وعن ابن مسعود قال : " دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد نام على رُمَال حصير ، وقد أثر فى جنبه ، فقلنا يارسول الله ، لو اتخذنا لك [وطاء تجعله بينك وبين الحصر ، يقيك منه] ؟ فقال : مالى وللدنيا ، ما أنا والدنيا الا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها"[٦].

---

(١) لقمان آيه ٣٣.

(٢) الحديد آيه ٢٠.

(٣) أخرجه البخارى . فتح ١١/٢٨٢ رقم ٦٤٥٦.

(٤) مرفقة – بكسر الميم وسكون الراء وفتح الفاء بعدها قاف – مايرتفق به ، وجاء فى رواية أخرى وسادة .

(٥) أخرجه البخارى . فتح ١٠/٣٠١

(٦) أخرجه الترمذى . جامع ٤/٥٠٦ وأنكر مابين القوسين وعزاه لرزين .

وروى مثله عن عمر أخرجه أحمد فى الزهد صـ ١٣ .

وعن عائشة رضى الله عنها " صنعت للنبى صلى الله عليه وسلم فراشين فأبى أن يضطجع إلا على واحد"(١).

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على سرير مضطجع مرمل بشريط ، وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف فدخل عليه غير واحد من أصحابه ودخل عمر رضى الله عنه فانحرف رسول الله صلى الله عليه وسلم انحرافة فلم ير عمر بين جنبه وبين الشريط ثوب قد أثر الشريط بجنب رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى عمر رضى الله عنه فقال له النبى صلى الله عليه وسلم مايبكيك ياعمر ؟ قال : والله ماأبكى إلا أكون أعلم أنك أكرم على الله من كسرى وقيصر وهما يغشيان فى الدنيا فيما يغشيان فيه وأنت رسول الله بالمكان الذى أرى قال النبى صلى الله عليه وسلم " أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الأخرة " فقال عمر بلى . قال كذلك(٢).

وعن عمرو بن مهاجر قال : كان لعمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه بيت يخلو فيه ، فى ذلك البيت ماترك رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا سرير مرمول بشريط وقعب يشرب فيه الماء وجرة مكسورة الرأس يجعل فيها الشىء ووسادة من أدم محشوة بليف وقطيفة غبراء كأنها من هذه القطف الجرمقانيه فيها من وسخ شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يقول ياقريش هذا تراث من أكرمكم الله عز وجل به وأعزكم يخرج من الدنيا على ماترون(٣).

---

(١) أخرجه أحمد فى الزهد صـ ١٤ .

(٢) أخرجه أحمد فى الزهد صـ ٣٩٩.

(٣) أخرجه أحمد فى الزهد صـ ٦ .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت " دخلت عليّ امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم عباءة مثنية فرجعت إلى منزلها فبعثت إلى بفراش حشوه الصوف فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ماهذا فقلت فلانة الانصارية دخلت على فرأت فراشك فبعثت الى بهذا فقال رديه فلم أرده وأعجبنى أن يكون فى بيتى حتى قال لى ذلك ثلاث مرات فقال ياعائشة رديه فوالله لو شئت لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة فرددته (١).

الدروس المستفادة :

وبعد دراسة أسس الدولة التى أرساها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة نستفيد دروساً منها :

١- الإسلام يركز على المعانى :

فلم يجتهد المسلمون فى إقامة المبانى ولا المراسيم والشكليات ، وإنما قامت دولتهم على المعانى العظيمة ، والمعالى الكريمة ، فبنى المسجد على هيئة متواضعة جداً ، من اللبن ، مسقوف بجريد النخل ، ينال الإنسان السقف بيده ، فى الوقت نفسه تقوم جماعة المسلمين على أقوى أخوة وأعظم ترابط " ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة " (٢) إن الإسلام لم يحرص على الشكليات لم يبن قصر ليقيم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا كان يقوم على بابه حراس أو بوابون ، وإنما بذل المسلمون جهودهم فى أمور أخرى هى أعظم وأسمى بذلوا جهودهم فى تعلم الإسلام ، فى الإجتهاد فى العبادة ، فى الجهاد لنصرة دين الله تبارك وتعالى .

---

(١) أخرجه أحمد فى الزهد صـ ١٤ . وابن سعد ١/٤٦٥ وراجعه فى هذه الموضوعات ففيه خير كثير .
(٢) الآية من سورة الحشر ، وقد سبق أن بينت ايثار الأنصار ، وعفة المهاجرين .

٢- الإسلام نظام كامل :

لم يحتج المسلمون للتدارس فى أمور دولتهم .

ولم يتباحثوا فى نظم وقوانين لها .

ولم يتساءلوا عما عند الدول المجاورة للأخذ به .

وإنما جاء الإسلام كافيا شافيا ، فأقام دولة الايمان على نظم إلاهية وتراتيب جاء بها الوحى .

* لقد أرسى العقيدة والشريعة والخلق والآداب .

* وأرسى كذلك المعاملات مشتملة على كل صنوف التصرفات المالية .

وأرسى كذلك الاجتماعيات وعلاقة الأمة ببعضها كعلاقة الزوج بزوجته ، وعلاقة الجار بجاره ، وماذا على من أخطأ في حق آخر كأن رماه بالزنا ، وماذا على من جرح آخر ، وماذا على من قتل آخر .

وأرسى علاقة الأمة بغيرها من الأمم .

أرسى قواعد كل شيء ، ورسم منهج الحياة كاملا . وتركنا صلى الله عليه وسلم على المحجة البيضاء .

٣- الأمة الإسلامية قائمة بنفسها :

واضح من دراسة الأيام الأولى من إقامة الدولة الإسلامية أن الإسلام لايقيم أمته إلا على نفسها ، تنتج قوتها ، وتصنع سلاحها ، ولا تعتمد على غيرها .

إن جماعة المهاجرين وصلت المدينة ، فلم تطلب المدينة معونة من أحد ، وإنما استقلت بنفسها .

- يسألون الله تبارك وتعالى « اللهم بارك لنا فى صاعنا ومدنا . [١] »
« واللهم اجعل بالمدينة ضعفى ماحصلت بمكة من البركة [٢] »
- ويواسى بعضهم بعضا « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » .
- ويجتهدون فى العمل .

وإذا كان هذا فى الطعام ، فإنه طبق فى كل نواحى الحياة ، وأنكر صلى الله عليه وسلم على رجل حمل السلاح الذى صنع بيد غير إسلامية ، ورفع السلاح الذى صنع بيد إسلامية قائلاً " إنما تنصرون بهذه " وأشار بالقوسة الإسلامية .

وأنكر على عمر بن الخطاب قراءته صفحات من التوراة ، مبينا أن الأمة قد جاءها من الله مايكفيها ، وليست بحاجة إلى فكر أو ثقافة أجنبية ،

٤ - حضارة الإسلام إنسانية :

لم يركز الإسلام على التقدم المادى ، وإنما ركز على التقدم الإنسانى ، فحرص على أن يرتقى بالإنسان فى عقيدته ، وخلقه .

لقد حرص الإسلام أن يجعل من الإنسان مخلوقاً سامياً ، يرحم الآخرين ، ويتعاون معهم ، بل يؤثر غيره على نفسه ،

إنه رفض منه أن يكون جباراً ، ورفض منه أن يكون جباناً ، وإنما توسط به فى عالم الفضائل ، وعلا به فى سلم المكارم .

وماذا بعد قول الله تعالى « وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ »[٣]

وماذا بعد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن المسلم ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم "

(١ ، ٢) تقدم تخريجها فى " دعاؤه صلى الله عليه وسلم لها - أى للمدينة - " .
(٣) أول سورة المائدة .

ووجدنا هذا الرقى واقعاً ملموساً فى حياة دولة المسلمين الأولى ، فلا تعالى ولا تطاول ، ولا أنانية ولا تباغض ، وإنما جاد كل بماعنده ، وعف كل عما ليس بحاجة إليه .

وبقدر ماكان الأنصار يقدمون بقدر ماكان المهاجرون يعفون !!

نعم جاء التقدم الإنسانى بالتقدم المادى تبعاً ، فحينما ارتقى الإسلام بفكر المسلمين ، وحثهم على خوض غمار الحياة بعزة واقتدار ، ارتقت أساليب الحياة عندهم .

إن الفكر المنظم بالإسلام ، والعقل الذى صين عن المسكرات ، والخلق السامى كل ذلك أنتج تقدما ماديا ، بل إن بعض المكارم الأخلاقية كانت لمراقبة هذا الجانب مثل قوله صلى الله عليه وسلم " إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه" (١) فأثرى ذلك الجانب المادى فى حياة المسلمين ، وجعلهم أصحاب حضارة مادية تفوق الحضارات ، ويكفى أن تعلم أن أول دبابة صنعت في عهده صلى الله عليه وسلم فى حصار الطائف (٢) .

إن الأمم الأخرى أخذت هذا الجانب من حياة المسلمين ، ألا وهو التقدم المادى ، وظنوا أنهم بذلك تحضروا ، وفاتهم أن هذا التقدم عند المسلمين يسعد البشرية لأنه تحيطه عقيدة تنظم وترتب حياة الإنسان ، وتجعل تصرفاته نافعة مفيدة .

---

(١) أخرجه أبو يعلى فى مسنده ٧ / ٣٤٩ رقم ٤٣٨٦ وقال فى مجمع الزوائد ٤ / ٩٨ رواه أبو يعلى وفيه مصعب بن ثابت ، وثقه ابن حبان ، وضعّفه جماعة .

(٢) راجع تخريج الدلالات السمعية للخزاعى صـ ٤٩٣ .

* غـــزوة الخـنـدق *

بسم الله الرحمن الرحيم
غزوة الخندق
أو
غزوة الأحزاب

سر التسمية :

تسمى هذه الغزوة بـ « غزوة الخندق » لأجل الخندق الذى حفر شمال المدينة ، ما بين الحرتين ، الحرة الشرقية والحرة الغربية ، ليمنع جيش المشركين من دخول المدينة .

وتسمى بـ « غزوة الأحزاب » لاجتماع طوائف من المشركين على حرب المسلمين ، وهم قريش ، ومن تبعها وغطفان ومن تبعها ، واليهود ومن تبعهم . وهذه الطوائف سماها الله سبحانه وتعالى الأحزاب ، وذلك فى قوله سبحانه وتعالى « يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ (١) » وفى قوله سبحانه « وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢) »

فالتسمية الأولى تسمية بالمكان ، أى الغزوة التى دارت فى منطقة الخندق ، ومن الغزوات ما سمى بمكانه كغزوة بدر وغزوة أحد . والتسمية الثانية تسمية بالمحاربين للمسلمين أى الغزوة التى كان المسلمون يحاربون فيها الأحزاب ، ومن الغزوات ما سمى باسم أعداء المسلمين كغزوة بنى سليم ، وغزوة بنى قينقاع ، ومن الغزوات ما سمى بالاسمين معاً كما هنا - غزوة الخندق وهى الأحزاب - وكغزوة بنى المصطلق وهى المريسيع .

---

(١) الأحزاب آية ٢٠ .
(٢) الأحزاب آية ٢٢ .

زمن الغزوة :-

قال البخارى - رحمه الله تعالى - قال موسى بن عقبة : كانت فى شوال سنة أربع أهـ وبهذا قال مالك - رحمه الله تعالى - فيما أخرجه أحمد بن حنبل عن موسى بن داود عنه . واستدل البخارى لهذا القول بأول حديث أخرجه في باب غزوة الخندق (١) عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن النبى صلى الله عليه وسلم عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه ، وعرضه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه ، ووجه استدلاله أن غزوة أحد كانت سنة ثلاث وكان ابن عمر ابن أربع عشرة سنة فيها ، وفى غزوة الخندق كان سنُّه خمس عشرة سنة ، فتكون الخندق بعد أحد بعام واحد ، أى فى العام الرابع .

وذهب ابن إسحاق وغيره من أهل المغازى إلى أن غزوة الخندق كانت فى شهر شوال من العام الخامس ، وحجتهم فى ذلك أن أحداً كانت فى العام الثالث ، وفيها قال أبو سفيان للمسلمين موعدكم العام المقبل ببدر ، فخرج النبى صلى الله عليه وسلم من السنة المقبلة إلى بدر ، فتأخر مجىء أبى سفيان تلك السنة للجدب الذى كان حينئذ ، وقال لقومه إنما يصلح الغزو فى سنة الخصب ، فرجعوا بعد أن وصلوا الى عسفان أو دونها ، أما النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه فأقاموا ببدر ثمانية أيام ينتظرون العدو ويتجرون ، ثم رجعوا إلى المدينة وذلك فى شهر شعبان وقد توطدت هيبتهم (٢) .فهذا يدل على أن العام الرابع لم يكن فيه قتال بين الرسول صلي الله عليه وسلم والمشركين من قريش وإلا فلو كانت غزوة الخندق فيه لكانوا - أى المشركين - قد رجعوا فى شعبان ، وعادوا بعد شهرين أى فى شوال ، وهذا بعيد .

---

(١)من كتاب المغازى فى صحيحه حـ٧ صـ ٤٩٢ حديث رقم ٤٠٩٧ .

(٢) راجع سيرة ابن هشام ، وزاد المعاد ، وسبل الهدى والرشاد حـ ٤ صـ ٤٧٨ - ٤٨٣ وسماها « بدر الموعد »

ومن حق هذا الفريق أن يجيب على الحديث الذى استدل به البخارى بأن أبن عمر كان فى أحد فى أول الرابعة عشر ، وفى الخندق كان قد استكمل الخامسة عشر .

ومما يقوى رأى الفريق الثانى أن ابن شهاب الزهرى الذى روى عنه موسى بن عقبة أن الخندق كان سنة أربع قد صرح بأن الخندق كان بعد أحد بسنتين .

والجمهور على أن هذه الغزوة كانت سنة خمس . قال الذهبى : هو المقطوع به ، وقال ابن كثير : والصحيح قول الجمهور أن أحداً فى شوال سنة ثلاث ، وأن الخندق فى شوال سنة خمس من الهجرة . وقال ابن القيم : إنه الأصح . وقال ابن حجر : هو المعتمد .

سبب الغزوة :

المتتبع لأحداث ما قبل غزوة الخندق يجد أن المسلمين قد نجحوا فى الاستيلاء على زمام الأمور ، وأصبح القاصى والدانى يهابهم . إلا أنه يجد فى نفس الوقت أن هذا الهدوء الذى يشيع فى المنطقة ليس قوياً ، فما أسهل أن تنشب الحروب ، وتشتعل المعارك فاليهود يحملون بين جنباتهم كل غيظ بعد إجلاء بنى النضير إلى خيبر . وغطفان ومنطقة نجد عموماً صدورهم مليئة بالحقد على المسلمين بعد أن طوّف جيش المسلمين منطقة نجد ، وأرهبهم جميعاً ، حتي تركوا ديارهم ولاذوا برؤوس الجبال .

وقريش لم تستطع أن تخرج في موعدها الذي قطعته على نفسها بالعودة فى العام التالى لأحد لتلقى المسلمين محاربة . وهاهى قد مر عليها عام بعد العام الذي قطعته على نفسها .

هذه أحوال الناس تجاه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، ولقد أحس اليهود بهذا الأمر ، أحسوا أن العرب يكرهون قوة الإسلام ، فهذا شىء فى طبعهم

فضلاً عن مواقف الإسلام منهم ، وهزيمته لهم . فلما أحس اليهود بهذا انتظروا عسى أن يقوم العرب بالقضاء على الإسلام ، فدارت المعارك بين المسلمين والعرب، إلا أنها كانت تنتهى لصالح الإسلام ، مما جعل العرب مالوا إلى ترك هذا الجانب ، أعني جانب ملاقاته صلى الله عليه وسلم وجيش المسلمين . فتحرك اليهود لا لحرب المصطفى صلي الله عليه وسلم والمسلمين ، فهم كما وصفهم الله سبحانه « لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ » (١) .

فهم لا يجرؤن علي قتال المسلمين وجهاً لوجه ، وان تجمّعوا واستعدوا .

ومن هنا لم يتحركوا لحرب المسلمين وحدهم ، مع ما لديهم من قوة مالية وسلاح ، وقوة بشرية !!

تحرك اليهود لجمع العرب وإغرائهم بحربه صلى الله عليه وسلم ، ووضعوا فى اعتبارهم أن تكون المعركة التى يخططون لها معركة تستأصل شأفة الإسلام .

فاجتمع عدد من زعماء اليهود ، وطافوا في القبائل العربية ، وقد درسوا وأعدوا المواقف التي تثير كل قبيلة ، فذكروا أكابرها بهذه المواقف ، وذكروهم أن الجميع سيخرج ، وعلي كل قبيلة أم أن تستحث أتباعها ، وأكدوا لهم أن اليهود سيفعلون ويفعلون .

ذهب عشرون من زعماء اليهود وسادات بني النضير إلى قريش - لمكانتها فى العرب ، ولكبير عداوتها للإسلام - فاستجاب القرشيون وفاء بوعدهم الذى عجزوا عن الوفاء به فى العام السابق وهو الخروج لحرب المدينة المنورة وانتهازاً لفرصة اجتماع الغير معهم ، يشجعهم على ذلك ما قاله لهم اليهود من أنهم - أى قريش - أولى بالحق من محمد صلى الله عليه وسلم .

فعن ابن عباس قال : قدم حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف مكة على قريش

---

(١) سورة الحشر آيه ١٤ .

فحالفوهم على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا لهم : أنتم أهل العلم القديم وأهل الكتاب ، فأخبرونا عنا وعن محمد . قالوا : ما أنتم وما محمد ؟ قالوا : ننحر الكوماء ، ونسقى اللبن على الماء ، ونفك العناة ، ونسقى الحجيج ، ونصل الأرحام . قالوا : فما محمد ؟ قالوا : صنبور قطع أرحامنا ، واتبعه سراق الحجيج بنوغفار . قالوا : لا ، بل أنتم خير منهم وأهدى سبيلا فأنزل الله « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ .. الآيات [١] »

فجمعت أتباعها وأموالها .

وذهبوا إلى غطفان ، فاستجابوا ، تنفيساً عن الحقد الذى فى صدورهم ، وحرصاً علي القضاء علي الإسلام الذى رأوا فيه قوة يبغضونها ، وجمعوا جموعهم ، وأقنعوا أتباعهم للتضامن معهم .

والمصطفى المعصوم صلي الله عليه وسلم بالمدينة يراقب من حوله ، فعلم بتحركات اليهود ، وما اتحد عليه القرشيون وغيرهم ، فبدأاستعداده للمعركة .

درس :-

ومن علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحزب الأحزاب ، يتضح لنا مايجب أن يكون عليه المسلم من الحيطة والحذر ، ومن الأخذ بالأسباب ما أمكن كما قال الله تعالى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ [٢] » وكما قال صلى الله عليه وسلم « المؤمن كيس فطن حذر » [٣]

---

(١) الحديث أخرجه الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى الدلائل ، والآيات من سورة النساء . وراجع الدر ١٧١/٢ .

(٢) سورة النساء آية ٧١ .

(٣) أخرجه القضاعى في مسند الشهاب ، والديلمي في الفردوس ، والعسكرى فى الأمثال . عن أنس بن مالك . وذكره السيوطى فى الجامع الصغير رقم ٩١٥٨ ورمز لضعفه . . وذكره السخاوى فى المقاصد ، وابن الديبع فى تمييز الطيب .

وقد تتساءل كيف علم صلى الله عليه وسلم بتحزب الأحزاب ؟

والجواب أنه صلي الله عليه وسلم كانت له عيون تأتيه بالأخبار ، ولم يك صلى الله عليه وسلم بالفظّ ولا بالغليظ حتى يبغضه الجميع ، ولم تك دعوته دعوة ينكرها العقل ، وينفر منها من علم بها بل كان صلي الله عليه وسلم جامعاً لكريم صفات الأخلاق ، وصفه الله سبحانه بقوله « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ . . . الآية [1] ودعوته - الإسلام - متعة للعقل والفطرة ، يحبها من علمها وكان منصفا حرا .

ولقد كان من فضل الله سبحانه وتعالى أن ذهب اليهود إلى قريش أولا ، فما ان اتفقوا علي الخروج ، إلا أرسلت خزاعة ركبها إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم بسرعة غير عادية ، حتى وصل المدينة فى أربع ليال ، فأخبر الرسول صلي الله عليه وسلم ، بما اعتزم عليه اليهود والمشركون .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥٩ .

إلى أرض المعركة

الأحزاب :-

وإلى المدينة اتجهت جموع المشركين ، في ميعاد قد حددوه بدقة ، فمن الجنوب خرجت قريش فى أربعة آلاف ، ومعهم ثلاثمائة فرس ، وألف وخمسمائة بعير ، ولواؤها مع عثمان بن طلحة .

وبعد خروجها بقليل وبينما هم بمر الظهران لقيهم بنو سليم فى سبعمائة يقودهم سفيان بن عبد شمس . وكانوا قد جاءوا من بلادهم لمناصرة قريش ، فاجتمع الفريقان في مر الظهران بين مكة والساحل ، وفى التقائهم دليل على تحديد الميعاد والالتزام والحرص عليه .

ومن الشرق خرجت قبائل غطفان ، بنو فزارة فى ألف رجل يقودهم عينية بن حصن . وأشجع في أربعمائة [1] يقودهم مسعود بن رُخيلة [2] وبنو مرة فى أربعمائة يقودهم الحارث بن عوف المرِّى . وبنوأسد بن خزيمة يقودهم طلحة بن خويلد الأسدى . وعلى مشارف المدينة التقت هذه الجيوش ، والتي كان عددها عشرة آلاف والقيادة العامة لأبى سفيان بن حرب .

المسلمون :-

أما المصطفى صلي الله عليه وسلم فلم يكن عجباً لديه هذا الأمر ، فعندما علم بتحزب الشرك ، جمع أصحابه واستشارهم .

إستشارهم امتثالا لقول الله سبحانه « وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ » [3] قال الحسن :

---

(١) فى رواية عمر بن شبه بسند له عن ابن شهاب عن عروة قال : وفدت أشجع في سبعمائة يقودهم مسعود بن رخيلة فنزلوا بشعبهم ، واتخذ أشجع في محلها مسجدا .

(٢) في بعض النسخ « مسعر » والصواب ما أثبته وأنه مسعود ورخيلة بالراء المهملة والخاء المعجمة والياء المثناه من تحت مصغر . راجع الإصابة ٩٨/٦ رقم ٧٩٤٩ طبع نهضه مصر .

(٣) من الآية ١٥٩ من سورة آل عمران .

قد علم الله أنه مابه إليهم من حاجة ، ولكن أراد أن يستن به من بعده [١] . وهو صلى الله عليه وسلم الذى قال « ماخاب من استخار ، ولا ندم من استشار ، ولا عال من اقتصد [٢] » قاله تعليماً لأمته .

ولقد كانوا على قدر كبير من النضج والفكر ، فعندما استشارهم ، كانت المشورة منصبة على التخيير بين أمرين ، أنجعل ساحة القتال خارج المدينة ، بعيداً عن البيوت والأموال ؟ أم نجعلها فى أبنية المدينة ، فنضربهم من أمام ومن فوق ؟ ولم يقف فكر الصحابة علي هذين الأمرين ، فاقترح الصحابى الجليل سلمان الفارس حلا جمع بين مزية الأمرين ، اقترح أن يقوم المسلمون بحفر خندق حول المدينة ، فتكون المعركة خارج المدينة ، حفاظا علي النساء والذرية والأموال ، ولا تحتدم المعركة الا بنزول المشركين الخندق ، فيتمكن المسلمون منهم كما لو كانوا فى شوارع المدينة ، لقد كان اقتراحا فيه من الوجاهة والكياسة مافيه ، مما ترتب عليه أن قبله سيدنا المعصوم صلى الله عليه وسلم وقبله المسلمون ، برغم ما سيكلفهم من جهد ، هم فى أشد الحاجة إليه ، فالعدو قادم ، بل إنهم كانوا مكلفين بالحفر علي وجه السرعة ، مما أرهقهم ، بيد أن إدراكهم لفائدته جعلهم ينفذونه مهما تحملوا من مشاق .

دروس :-

وفيما سبق دروس منها :-

أولا : فى مشاورته صلي الله عليه وسلم أصحابه ، وهو المصطفي المعصوم ، تنبيه للمسلمين إلى مايجب أن يكونوا عليه في أمورهم من التشاور ، ففي المشورة مايلى :

(١) أخرجه البيهقى فى سننه .
(٢) أخرجه الطبرانى فى الصغير ٧٨/٢ عن أنس بن مالك .

١- بالمشورة تشترك العقول فى تحديد أسمى مايمكن ، وبدونها يقوم بذلك عقل واحد ، ولا شك أن عمل الكثرة أقوى من عمل الفرد ، ولو كان ذلك فى العقول ، فآفاق العقول مختلفة ، وتجربتها متنوعة .

٢- بالمشورة تظهر كل الأوجه المحتملة ، فينتقي أفضلها ، ولا يعتري المستشير ندم ، بظهور وجه كان خافياً عليه ومن هنا يقول صلي الله عليه وسلم « ماخاب من استخار ، ولاندم من استشار . . . الحديث [١]

٣- بالمشورة يشعر الجميع أنه مسئول ، وأنه عضو فى الجماعة ، وهذا له ماله من فائدة ، إذ يكون الكل حريصا ، إيجابياً .

٤- المشورة سبيل تربية الكوادر في الجماعة ، فبإحساس الفرد أنه شريك في الأمر ، تتربى لديه ملكة القيادة ، من غير ما استعباد ، فإنه لم يُستعبد من قبل .

٥- المشورة سبيل استقامة المجتمع والجماعة ، فلا يغتر القائد ، ولا يتجبر ، وفى نفس الوقت يشعر الفرد العادي بوجوده ، فيكون ذا همة وتطلع ، ليس منكسراً ولا مستذلا ، وهذا أمر له قيمته في حياة المجتمعات .

ثانياً :- يجيز الإسلام الاقتباس من الغير ، ففكرة الخندق مقتبسة من الفرس . الا أن ذلك ليس على إطلاقه ، فليس كل ماعند الغير يقتبس ، وإنما تقتبس الأمور التي تعتمد على التجربة الشخصية فقط . فلا تقتبس الأخلاق ، ولا المظهر .

إن حياة المسلم فيها ماجاء به النص ، وما يعتمد علي تجربته ، والثانى تركه الإسلام للمسلمين يجربون ويقتبسون ومن هنا قال ﷺ « أنتم أعلم بأمر دنياكم [٢] » أى أن الأمور التى تعتمد على التجربة فكروا فيها واجتهدوا ، فوسائل الصناعة

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الصغير وراجع المقاصد الحسنة صـ ٣٦٦ رقم ٩٥٤ .

(٢) أخرجه مسلم .

ووسائل النقل ، فكروا فيها ماشئتم ، أما الجانب الخلقى فهذا من الوحي ، فأيما وسيلة من الوسائل تعارض الإسلام ، فلا تفعلوها ، وأي خلق في هذه الوسائل يتعارض مع الإسلام فابتعدوا عنه ، فلنصنع الفراش بأى آلة شئنا ، فلنا الحرية فى ذلك ، لكننا مكلفون ألا نغش فى هذه الصناعة ولا يظلم بعضنا بعضاً . ولننتقل بأى وسيلة من طائرة أو باخرة . . . .الخ فهذا متروك لنا ، ويأمرنا ديننا أن لا يظلم بعضنا بعضا ، ولا يغش أحدنا الآخر ، ولا يعرض أحد نفسه للمتالف ، وهكذا جاء الإسلام بما يجعل الإنسان ذا عقيدة وخلق ، أما مظاهر الحياة ووسائلها « فأنتم أعلم بأمر دنياكم » ومايعتمد علي التجربة ، لا بأس من اقتباسه من الآخرين ، أما ما كان فى باب العقيدة والشريعة أو الآداب ، فهذا جاء به الإسلام ، فالعدول عنه كفر وضلال . ومن عجيب أمر عالمنا المسلم أنهم يقتبسون مايحرم اقتباسه ، ويتركون ماينبغي اقتباسه ، يقتبسون عرى المرأة ، ووسائل اللهو ، ولا يقتبسون صناعة الطائرات أوثقيل الآلات !! وهذه مخالفة نتمنى أن تنتبه الأمة لها ، فهذا سبيل رقيها .

الخندق

موقعه :-

خرج صلى الله عليه وسلم راكباً فرساً له ، ومعه عدد من المهاجرين والأنصار ، لتعيين مكان نزول جيش المسلمين ، وتعيين مكان الخندق . وسأصف لك موقع المدينة ليتبين لك الموقع .

المدينة تقع بين حرتين ، حرة الواقم شرقاً ، وحرة الوبرة غربا ، وجيش المشركين لا يمكنه الإتيان من جهة هذ الحرة أو تلك ، إذ الحرة منطقة أرضها سوداء غليظة ، لا يمكن أن يسير عليها جيش منظماً قوياً .

وفى شمال المدينة جبل يسمى سلع لكنه ليس ممتداً بين الحرتين ، وفي نهاية الحرتين جبل أحد لكنه أيضاً ليس ممتداً بين الحرتين . أما الجنوب ففيه حرة ، فيها ديار بني النضير التى فتحها المسلمون قبل غزوة الخندق ، ويخرج من هذه الحرة جبل عسير متجها إلى الغرب ليقترب من الحرة الغربية ، وفى هذه الحرة أيضاً ديار بنى عمرو بن عوف من الأنصار والتي تسمى قباء ، وبين الحرة الشرقية والحرة الجنوبية ديار بنى قريظة من اليهود ومنطقة بساتين ، وظاهر من هذا الوصف أن المدينة محصنة من ثلاث جهات ، من الجهة الشرقية بالحرة ، ومن الجهة الغربية بالحرة أيضاً ، ومن الجهة الجنوبية بحرة أيضاً ، وديار للمسلمين (قباء) وديار لأتباع المسلمين (بنوقريظة)ومناطق بساتين . وعليه فلم يبق إلا الجهة الشمالية .

ولعلم الأعداء بهذا - وعلم المسلمين به - كانوا يأتون من جهة الشمال ، ولذا نجد أن الغزوات التى بدأوا هم بها كانت من جهة الشمال . فهذه غزوة أحد ، وكذلك غزوة الخندق . واختار صلى الله عليه وسلم أن يكون جبل سلع خلف المسلمين وأن تترك مسافة شماله تكفى جيش المسلمين ، ثم يحفر الخندق ، واصلا بين الحرتين .

وإنما نزل صلي الله عليه وسلم بالخندق قرب المدينة ، لتكون المدينة قريبة للصحابة ، يصلحون أمورهم بسرعة ، ويرعون النساء والذرية ، وليبعد المشركين عن جبل أحد . ولو أنه صعد به إلى جهة الشمال أكثر من ذلك ، لأصبح ظهر المشركين محميا بالجبل ، وظهر المسلمين عارياً .

حفر الخندق :-

عمل صلى الله عليه وسلم فى حفر الخندق بنفسه ، حثا للمسلمين على العمل ، وأخبر المسلمين بقرب عدوهم ، فاجتهد الجميع في الحفر ، وتنظيما للعمل قسّمه صلي الله عليه وسلم ، فوكّل بكل جانب قوماً يحفرونه ، فكان المهاجرون يحفرون من ناحية راتج إلى ذباب ، وكان الأنصار يحفرون من ذباب إلى جبل ابي عبيدة . وجعل لكل عشرة أربعين ذراعاً . وكان طول الخندق قرابة خمسة آلاف ذراع ، وعمقه من سبعة أذرع إلى عشرة ، وعرضه من تسعة أذرع إلى مافوقها .

فعن عمرو بن عوف المزنى أن رسول الله صلي الله عليه وسلم خط الخندق ، من أجم الشيخين طرف بنى حارثة ، حتى بلغ المذاد ، فقطع لكل عشرة أربعين ذراعا(١) .

ولقى الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون فى حفر الخندق شدة ، يرجع سببها إلى :-

١- أن الحفر تم علي وجه السرعة ، فكان العمل متواصلاً يدفعهم إلى ذلك علمهم بقرب قدوم الأعداء ، وهم حريصون علي الانتهاء قبل وصول الأعداء .

٢- أنه تم فى وقت كان الجو فيه شديد البرودة .

٣- أن المسلمين لم يكن لهم عبيد يعملون ، إنما كانوا يعملون بأنفسهم ، يساعدهم فى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) أخرجه الطبرانى بسند لا بأس به .

٤- أنه تم في وقت كان القوم في ضيق من العيش .

٥ - أن المنافقين ظهروا في هذا الوقت بشيء من الوضوح ، فانسحبوا ولم يشاركوا.

يصور ذلك الحديثان الآتيان :

فعن أنس - رضي الله عنه - قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون فى غداة باردة ، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم ، فلما رأى مابهم من النصب (١) والجوع قال : اللهم إن العيش عيش الآخرة ، فاغفر للأنصار والمهاجرة . فقالوا مجيبين له :

نحن الذين بايعوا محمدا   علي الجهاد مابقينا أبداً

وعنه أيضاً قال : جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق حول المدينة ، وينقلون التراب على متونهم (٢) وهم يقولون :

نحن الذين بايعوا محمدا   علي الجهاد مابقينا أبداً

قال : يقول النبى صلي الله عليه وسلم وهو يجيبهم : اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة ، فبارك في الأنصار والمهاجرة . قال : يؤتون بملء كَفَّىْ من الشعير ، فيصنع لهم (٣) بإهالة (٤) سنخة (٥) ، توضع بين يدى القوم ، والقوم جياع ، وهى بشعة (٦) في الحلق (٧)، ولها ريح منتن (٨) »

(١)التعب .

(٢) ظهورهم . وفي رواية « أكتادنا » جمع كَتَد : ملتقى الكتفين .

(٣) أى الشعير يطبخ لهم .

(٤) الإهالة : الدهن الذى يؤتدم به

(٥) أى متغيرة الطعم واللون من قدمها .

(٦) أى كريهة المطعم .

(٧) أي تأخذ الحلق ، كأنها تكتمه من كراهة طعمها .

(٨) هذا الحديث وسابقه أخرجهما البخارى في صحيحه كتاب المغازى باب غزوة الخندق رقم ٤٠٩٩ و ٤١٠٠ جـ ٧ صـ ٤٩٢

ويرغم هذه الظروف التي جعلت الحفر شديدا ، فلقد شمَّر المسلمون عن ساعد الجد ، واستبسلوا واجتهدوا حتي أتموا حفر الخندق وأحكموه ، حتي إن الرجل منهم تكون له الحاجة الماسة فيأبى أن يذهب اليها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، فإن كان ولابد استأذن رسول الله صلي الله عليه وسلم .

أما المنافقون فكانوا فريقين منهم من اعتذر بعذر كضعف أو كشف بيته فرجع ، ومنهم من انسل خفية بغير إذنه ولا علمه صلى الله عليه وسلم يصور هذين الأمرين :

ماروى عن عروة ، ومحمد بن كعب القرظى قالا : لماأقبلت قريش عام الأحزاب، نزلوا بمجمع الأسيال ، من بئر رومة بالمدينة ، قائدها أبو سفيان . وأقبلت غطفان حتى نزلوا بتغمين إلى جانب أحد . وجاء رسولَ الله صلى الله عليه وسلم الخبرُ ، وضرب الخندق على المدينة ، وعمل فيه ، وعمل المسلمون فيه . وأبطأ رجال من المنافقين ، وجعلوا يورّون بالضعيف من العمل ، فيتسللون إلى أهليهم ، بغير علم من رسول الله صلي الله عليه وسلم ولا إذن . وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لابد منها يذكر ذلك لرسول الله صلي الله عليه وسلم ، ويستأذنه في اللحوق لحاجته ، فيأذن له ، فإذا قضي حاجته رجع ، فأنزل الله فى أولئك المؤمنين « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه علي أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم [1] »

وأنزل الله سبحانه في شأن المنافقين « قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم [2] »

---

(١) أخرجه ابن اسحاق وابن المنذر والبيهقى فى دلائل النبوة . الآية من سورة النور رقم ٦٢ .

(٢) جزء من الآية رقم ٦٣ من سورة النور . وصدرها « لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا »

وهذه الظروف التي أحاطت بحفر الخندق ، إذا روعي معها المجهود الذى احتاجه الخندق لحفره ، اتضح لنا مدى عزم المسلمين الأكيد علي التنفيذ ، مادام صلي الله عليه وسلم قد حثهم عليه وشاركهم فيه .

إنه بعملية حسابية بسيطة يتضح لنا أن كل صحابى عمل في الخندق حمل ثلاثمائة وستين ذراعاً (٣٦٠ ذراع = ١٨٠ مترا) تقريباً من تراب الخندق ، مابين رمل ، ومابين صخر، يصعد به قليلا أحيانا، وكثيرا أحياناً ، تم ذلك فى ستة أيام ولقد كان يُثَبِّت المسلمين أمران هما :-

١- إيمانهم بالله سبحانه وتعالى ، إيمانا جعلهم يضحون بالنفس والنفيس ،ومما يوضح أثر الإيمان قولهم في حديث أنس (١)

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد مابقينا أبدا

فمع شدة ماهم فيه ، لم يتضجروا من الجهاد ، وإنما يخبرون أنهم قد بايعوه صلي الله عليه وسلم علي الجهاد فى سبيل الله ماعاشوا .

٢- عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم ، فلقد اشترك صلى الله عليه وسلم فى حفر الخندق ، وبذل فيه جهداً مرئياً .

فعن أم سلمة - رضي الله عنها - قالت : مانسيت يوم الخندق ، وهو يعاطيهم اللِّبن ، وقد اغبرّ شعره . تعني النبى صلي الله عليه وسلم (٢).

وعن البراء بن عازب قال : لما كان يوم الأحزاب ، وخندق رسول الله صلي الله عليه وسلم ، رأيته ينقل من تراب الخندق ، حتى وارى عنِّى التراب جلدة بطنه - وكان كثير الشعر - فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة ، وهو ينقل من التراب ويقول :

---

(١) الذى تقدم وهو عند البخارى .

(٢) رواه أحمد برجال الصحيح ، ورواه أبو يعلي كذا فى سبل الهدى والرشاد حـ ٤ صـ ٥١٦ وفى الفتح ٤٠١/٧ أن إسناده صحيح .

اللهم لولا أنت ماهتدينا ولاتصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

قال : ثم يمد صوته بآخرها [1] .

قال محمد بن عمر : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من شدة اجتهاده في العمل يضرب مرة بالمعول ، ومرة يغرف بالمسحاة التراب ، ومرة يحمل التراب فى المكتل ، ويلغ منه التعب يوما مبلغا فجلس ، ثم اتكأ على حجر على شقه الأيسر فنام . فقام أبو بكر وعمر - رضى الله عنهما - على رأسه ينحيان الناس عنه ؛ أن يمروا به فينبهوه ، ثم استيقظ ووثب فقال : أفلا أفزعتمونى ! وأخذ الكِرْزَن يضرب به، ويقول :

اللهم إنَّ العيَش عيشُ الآخِرَة فاغفِر للأنصارِ والمُهَاجِرة
اللهم العن عضلاً والقاره فهم كلفونى أنقل الحجارة

وهكذا أتم المسلمون حفر الخندق ، كخطوة من استعدادهم لملاقاة أعدائهم .

---

(١) أخرجه البخارى فى المغازى باب غزوة الخندق جـ٧ صـ ٣٩٩ رقم ٤١٠٦ ومن طريق آخر قبل ذلك رقم ٤١٠٤ . وآثرت الطريق الثانى لشىء فى الإسناد لعل البخارى قصده أيضاً وهو تصريح أبى إسحاق بالسماع من البراء .

آيات ظهرت عند حفر الخندق

كم فى غزوة الخندق من آية !! كيف لا وهى فى بدئها ومنتهاها آية ؟

وحديثى هنا عن الآيات التى ظهرت أثناء الحفر ، وكأنها دروس بَيّنها الله للمسلمين لحكمة .

أولا : صخرة الخندق :-

كان المسلمون يحفرون على عجل ، يدفعهم إلى ذلك توقع وصول عدوهم .

وبينما هم كذلك إذ بصخرة شديدة تعترضهم ، صخرة لا تأخذ فيها المعاول ، ولا يمكن رفعها لكبر حجمها ، ولقد بذلوا فى تفتيتها جهداً عظيماً ، حتى كسرت الالآت الحديدية !! إنها لو بقيت لكانت معبراً لجيش الشرك !! إنها ستقضى على فكرة الخندق ، أو تحتم نقله من مكانه [(١)] ، وإذا نقل من مكانه ، فكم سيتكلفون من المجهود ، ولربما اعترضتهم أخرى مثلها !! وما العمل ؟

لقد ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبروه خبر هذه الصخرة قائلين : هذه كُدْية [(٢)] عرضت فى الخندق . ويظهر من كلامهم هذا أنهم أرادوا من كلامهم الرأى منه صلى الله عليه وسلم ، أى بماذا يشور عليهم ؟ أيعدلون عنها ؟ أم ماذا ؟ وكان جوابه صلى الله عليه وسلم أيسر مما تصوروا ،« أنا نازل » أنا نازل لها ، وهو المؤيد والمنصور ، فسيفرج الله الشدة على يدى حبيبه ، ونزل صلى الله عليه وسلم وأخذ المعول ، وضرب الصخرة فصارت - بفضل الله سبحانه - رملا غير متماسك يسيل .

فعن جابر - رضى الله عنه - قال : إنا يوم الخندق نحفر ، فعرضت كدية

---

(١) كما جاء فى رواية البيهقى عن عمرو بن عوف « فمرت بنا صخرة بيضاء كسرت معاولنا ، فأردنا أن نعدل عنها ، فقلنا ، حتى نشاور رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . الحديث .

(٢) بضم الكاف وسكون الدال المهملة ، بعدها تحتانية مثناة ، وهى القطعة الصلبة الصماء .

شديدة ، فجاءوا النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : هذه كدية عرضت فى الخندق !! فقال : أنا نازل . ثم قام وبطنه معصوب بحجر ، ولبثنا ثلاثة أيام لانذوق ذواقا ، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم المعول فضرب في الكدية ، فعاد كثيبا أهيل أو أهيم . . . الحديث [1].

وانتهت معضلة كادت أن تؤثر فى خط سير العمل فى الخندق ، انتهت وقد ازداد المسلمون إيمانا بالله سبحانه وتعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم .

آية فى آية :

وأثناء تفتيته صلى الله عليه وسلم هذه الصخرة البيضاء [2]، ظهرت آية أخرى ، فحينما ضرب الضربة الأولى ، ظهرت أضواء ، أبصر بها صلى الله عليه وسلم قصور الشام ، وأخبره جبريل عليه السلام أن الله سبحانه وتعالى سيفتحها - أى الشام - على أمته ، وحينما ضرب الضربة الثانية ، ظهرت أضواء أبصر بها صلى الله عليه وسلم قصور فارس ، وأخبره جبريل عليه السلام أن الله سبحانه وتعالى سيفتحها على أمته ، وحينما ضرب الضربة الثالثة ، ظهرت منها أضواء ، أبصر بها صلى الله عليه وسلم أبواب صنعاء ، وأخبره جبريل عليه السلام ، أن الله سبحانه وتعالى سيفتح اليمن على أمته .

فعن البراء بن عازب قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق . قال : وعرض لنا صخرة فى مكان من الخندق لاتأخذ فيها المعاول . قال : فشكوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال عوف [3] : وأحسبه قال وضع ثوبه - ثم هبط إلى الصخرة ، فأخذ

---

(١) أخرجه البخارى فى المغازى باب غزوة الخندق ٧/٣٩٥ رقم ٤١٠١ .
(٢) كأن الله سبحانه وتعالى جعلها بيضاء لأنها كانت خيراً .
(٣) أحد رجال الاسناد .

المعول ، فقال : بسم الله . فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر ، وقال : الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام ، والله إنى لأبصر قصورها الحمر من مكانى هذا . ثم قال : بسم الله . وضرب أخرى ، فكسر ثلث الحجر فقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح فارس ، والله إنى لأبصر المدائن ، وأبصر قصرها الأبيض من مكانى هذا . ثم قال : بسم الله ، وضرب ضربة أخرى ، فقلع بقية الحجر ، فقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى هذا (١) .

وإخباره صلى الله عليه وسلم بفتح هذه البلدان فى هذا الوقت ، يصور حاله قول الله تعالى .

«وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلاخساراً (٢) »

فالوحى ينزل يستبشر به المؤمن ، ويزداد إيماناً بالله سبحانه وتعالى ، يزداد يقينا برسالة المصطفى صلى الله عليه وسلم . أما غير المؤمن فإذا سمع ما ينزل به الوحى ازداد بعداً عن الله سبحانه تعالى .

قال قتادة : الله تعالى جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين ، إذا سمعه المؤمن انتفع به ، وحفظه ووعاه . ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ، لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه (٣) .

---

(١) هذا الحديث أخرجه أحمد فى مسنده ٣٠٣/٤ من طريقين ، وأفاد فى مجمع الزوائد ١٣٠/٦ ، ١٣١ أن فيه ميمون أبو عبد الله وثقه ابن حبان وضعفه جماعة ، وبقية رجاله ثقات وأفاد الحافظ فى الفتح ٣٩٧/٧ أن إسناده حسن ، وعزى الحديث لأحمد والنسائى . وهو عند النسائى فى الكبرى فى كتاب السير كذا فى تحفة الأشراف ٦٥/٢ حديث رقم ١٩١٨ ، وليس فى الصغرى كما ظن بعض الكتاب في السير ، ولعل الذى أوقعهم فى هذا نقلهم الحديث من الفتح . إذ أن الرواية التى فى الصغرى ليست عن البراء وانما هى عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أخرجها النسائى فى الجهاد باب غزوة الترك والحبشة ٣٦/٦ بألفاظ تختلف عما هنا ، وهذه الرواية عند أبى داود أيضاً فى الملاحم باختصار عما هنا . وراجع تحفة الأشراف ٢٢٠/١١ رقم ١٥٦٨٩ .

(٢) سورة الإسراء آية ٨٢ .

(٣) أخرجه عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم .

فلقد فرح المسلمون بإخباره صلى الله عليه وسلم هذا فرحاً شديداً ، وهم المؤمنون بأنه صلى الله عليه وسلم الذى لا يقول إلا حقا ، وأنه لا ينطق عن الهوى . فلقد جاء فى نهاية حديث الصخرة هذا عند البيهقى عن عمرو بن عوف « ففرح المسلمون واستبشروا »

أما المنافقون فما زادهم ذلك إلا خسارا فلقد قالوا ، كما جاء في رواية ابن عباس - نحن نخندق على أنفسنا وهو يعدنا قصور فارس والروم [1] ؟ !! .

ولاغرْو فهم الذين وصفهم الله بقوله « وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً [2] » .

واستبشار المؤمنين راجع إلى ثقتهم فيما يقول صلى الله عليه وسلم ، وأن تحقق ما يقول يفيد فى بدايته أنهم منصورون فى غزوتهم هذه ، وأن الشرك وأهله لن يتحقق لهم غرض . وفى مراحله الأخرى ، ستتحقق العزة للإسلام والمسلمين .

والحمد لله وقع ما أخبر به صلى الله عليه وسلم فلقد فتح الله الشام ، وفتح فارس ، وفتح اليمن . وكثرت الفتوح . وحين كثرت الفتوحات فى زمان عمر وزمان عثمان قال أبو هريرة : « افتتحوا مابدا لكم ، فوالذى نفس أبى هريرة بيده، ما افتتحتم من مدينة ، ولا تفتحونها إلى يوم القيامة إلا وقد أعطى الله محمداً صلى الله عليه وسلم مفاتيحها قبل ذلك » .ولما روى حديث « بعثت بجوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، فبينا أنا نائم أوتيت مفاتيح خزائن الأرض فوضعت فى يدى » لما حدث أبو هريرة بهذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه

---

(١) جزء من رواية ابن عباس التى أخرجها الطبرانى ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله ابن أحمد بن حنبل ونعيم العنبرى وهما ثقتان . وراجع مجمع الزوائد ١٣١/٦ ، ١٣٢ والبداية ١١٣/٤ ، ١١٤ .

(٢) سورة الأحزاب آية ١٢ .

وسلم قال : وقد ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنتم تنتثلونها[(١)] .

ومجمل القول أن إخباره صلى الله عليه وسلم بفتح هذه البلاد ، إنما كان لتطمين المسلمين لا على يومهم فقط ، وانما كان على يومهم وغدهم ، فكأنه قال : ستنتصرون فى هذه الغزوة وما بعدها ، وسيفتح الله عليكم الكثير والكثير من الممالك ، لا فى شبه الجزيرة فقط ، وإنما فيها وفى خارجها وقد كان نصيب يومهم النصر فنصرهم الله سبحانه وتعالي ، وكتب لهم العزة . ومن عاش منهم رأى شيئاً من نصيب الغد ، من الفتوحات التى فتحها الله على المسلمين .

ثانياً : تكثير الطعام :

ما أقسى الجوع إذا كان الجائع يعمل بكل طاقته !! فكيف إذا اجتمع مع ذلك برد شديد ؟!

هذا حال المسلمين وهم يحفرون الخندق ، يقاسون حرارة الجوع ، ويعملون بكل طاقتهم ، والبرد شديد .

وسبق فى حديثى أنس « فلما رأى - أى النبى صلى الله عليه وسلم - ما بهم من النصب والجوع قال : اللهم إن العيش عيش الآخرة » وأيضاً أنهم كان يطبخ لهم الشعير بالدهن القديم ذى الرائحة الكريهة والطعم المتغير ، فيأكلونه من شدة الجوع .

وسبق في حديث جابر عن الصخرة « ثم قام - أى النبى صلى الله عليه وسلم - وبطنه معصوب بحجر ، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً » .

وهذا يصور لنا مدى ما وصلوا إليه من جوع ، وقد سبق بيان اجتهادهم فى العمل ، وسبق أيضاً أن البرد كان شديداً .

---

(١) هذا الحديث أخرجه البخارى فى الجهاد باب قول النبى صلى الله عليه وسلم « نصرت بالرعب مسيرة شهر » ١٢٨/٦ رقم ٢٩٧٧ وفى غير هذا الموضع . و« تنتثلونها » من النثل - بالنون والثاء المثلثة - وهو الاستخراج ، تقول نثلت البئر إذا استخرجت ترابها .

وحينما رأى جابر أن رسول الله صلى اله عليه وسلم قد ربط على بطنه حجراً من الجوع ، استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وذهب إلى البيت فقال لامرأته سهيلة بنت مسعود الأنصارية : لقد رأيت برسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ما فى ذلك صبر ، إن الأمر يحتاج إلى سرعة ، فماذا عندك من طعام ؟ فأخبرته بما عندها ، عندها صاع شعير لأولادها ، وعندهم شاة صغيرة ، وأمرها جابر بسرعة طحن الشعير ، وأسرع هو فذبح الشاة ، وعجنت ، وتركت العجين ليتمكن منه الخمير ، ووضعت اللحم على النار ، فأسرع جابر فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه أعد له طعاما يكفيه ورجلين معه ، وما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأكل وحده ، ويترك المسلمين يحفرون !! ليس هذا خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يقدم نفسه فى العبادة ، ويؤخر نفسه فى أمور الدنيا . فلم يذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذه الحال مع جابر ، وإنما دعا أهل الخندق جميعا ، وهو يعلم أن الطعام قليل ، لكن ستتحقق المعجزة، ومن ثم قال لجابر « لا تنزلن برمتكم ،ولا تخبزن عجينكم حتى أجىء [1] » وذهب صلى الله عليه وسلم بأهل الخندق ، وتقدم صلى الله عليه وسلم إلى الطعام فذكر الله عليه ودعا « بسم الله ، اللهم بارك فيها، اللهم بارك فيها [2] » ونفخ فى الطعام، ولأن الأمر معجزة فلابد من مباشرته صلى الله عليه وسلم . فجعل يقطع الخبز ، ويصب عليه المرق ، ويضع فوقه اللحم ، وتقدم القصعة لمجموعة ، ثم تعود فتملأ ، والقصاع كثيرة ، والآكلون أكثر ، وما عند الله أكثر وأكثر ، فظل صلى الله عليه وسلم يفعل هذا حتى أكل الجميع ، ولازال العجين كما هو ، ولازالت البرمة تغلى باللحم والمرق . فأمر امرأة جابر أن تأكل وأولادها ، وتهدى للناس .

(١) ستأتى هذه الرواية كاملة إن شاء الله تعالى .

(٢) من رواية ابن عباس عند الطبرانى / مجمع الزوائد ٦ / ١٣١ ، ١٣٢ .

لقد كان الآكلون من أهل الخندق ألفا ، وغيرهم كثير أكل ، وهذا من معجزاته صلى الله عليه وسلم .

فعن جابر - رضى الله عنه - قال : إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كيدة [1] شديدة ، فجاءوا النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : هذه كدية [2] عرضت فى الخندق !! فقال : أنا نازل . ثم قام وبطنه معصوب بحجر ، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقا ، فأخذ النبى صلى الله عليه وسلم المعول فضرب فى الكدية ، فعادكثيبا أهيل أو أهيم . فقلت يارسول الله إئذن لى إلى البيت ، فقلت لامرأتى : رأيتُ بالنبى صلى الله عليه وسلم شيئا ماكان فى ذلك صبر ، فعندك شيء ؟ فقالت : عندى شعير وعناق فذبحتُ العناق ، وطحنت الشعير، حتى جعلنا اللحم بالبرمة . ثم جئت النبى صلى الله عليه وسلم والعجين قد انكسر ، والبرمة بين الأثافى قد كادت أن تنضج ، فقلت : طُعَيِّمٌ لى ، فقم أنت يا رسول الله ورجل أورجلان قال : كم هو ؟ فذكرت له ، فقال : كثير طيب . قال قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتى . فقال : قوموا . فقام المهاجرون والأنصار . فلما دخل على امرأته قال : ويحك ، جاء النبى صلى الله عليه وسلم بالمهاجرين والأنصار ومن معهم . قالت : هل سألك ؟ قلت : نعم . فقال : ادخلوا ولا تضاغطوا [3] . فجعل يكسر الخبز ، ويجعل عليه اللحم ، ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه ، ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع ، فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا ، وبقى بقية : قال : كلى هذا وأهدى . فإن الناس أصابتهم مجاعة .

وفى رواية ثانية « فجئت وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدم الناس ،

---

(١) بفتح الكاف وسكون الياء التحتانية : القطعة الصلبة الشديدة من الأرض .

(٢) بضم الكاف وإسكان الدال المهملة بعدها ياء تحتانية : القطعة الصلبة الصماء .

(٣) ولا تزاحموا .

حتى جئت امرأتى فقالت : بك وبك [١] . فقلتُ : قد فعلتُ الذى قلتِ . فأخرجت لـه [٢] عجينا ، فبصق فيه وبارك ، ثم عمد إلى برمتنا فبصق وبارك . ثم قال : ادع خابزة فلتخبز معى [٣] واقدحى من برمتكم ولا تنزلوها ، وهم ألف ، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا ، وإن برمتنا لتغط كما هى ، وإن عجيننا ليخبز كما هو [٤] » .

وكما كان تكثير الطعام فى قصة جابر هذه ، فإنه كان أيضاً فى غيرها فهذا أبو رافع يرسل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم شاة ليصليها ، فيصليها ويأخذها فى مكتل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه أن يأكل من الذراع ، فيقول لأبى رافع ناولنى الذراع ، فيناوله له صلى الله عليه وسلم ، ثم يقول له ثانية ناولنى الذراع فيناوله ، ثم يقول له ثالثة ورابعة ، فى كل ذلك يناوله أبو رافع ، ثم يتساءل أبو رافع كيف أنه يناول رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من ذراعين ، مع أن المذبوح شاة واحدة !! ويبين له المصطفى صلى الله عليه وسلم أنه لو سكت وظل يناول رسول الله صلى الله عليه وسلم لناوله مهما طلب صلى الله عليه وسلم .

فعن سلمى امرأة أبى رافع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى أبى رافع بشاة ، وذلك يوم الخندق فيما أعلم . فصلاها أبو رافع ، وجعلها فى مكتل ، ثم انطلق بها ، فلقيه النبى صلى الله عليه وسلم راجعا من الخندق ، فقال : يا أبا رافع ، ناولنى الذراع ، فناولته . ثم قال : يا أبا رافع ، ناولنى الذراع . فناولته ،

---

(١) أى فعل الله بك كذا وفعل بك كذا ، قالته على سبيل العتب لما رأت من كثرة الناس وقلة الطعام .

(٢) أى للنبى صلى الله عليه وسلم .

(٣) أى عندى ، وفي بعض النسخ « معك » وهو الأحسن .

(٤) الروايتان أخرجهما البخارى فى صحيحه فى كتاب المغازى باب غزوة الخندق ٣٩٥/٧ ، ٣٩٦ رقم ٤١٠١ ، ٤١٠٢ .

ثم قال : يا أبا رافع ، ناولنى الذراع . فناولته . ثم قال : يا أبا رافع ، ناولنى الذراع . فقال : يا رسول الله ، هل للشاة الا ذراعان ؟! فقال : لو سكتّ لناولتنى ما سألتك [(١)] .

ومعجزاته صلى الله عليه وسلم فى تكثير الطعام والماء كثيرة ، تشد على يد المسلمين فتقوى إيمانهم ، ويخرجهم الله بها من الشدة إلى الفرج .

دروس وعبر :-

بعد أن تحدثت عن الخندق ، وما ظهر أثناء حفره من آيات ، أقف للأشارة إلى الدروس والعبر المستفادة من ذلك ، وهى :

أولا :- شارك صلى الله عليه وسلم فى حفر الخندق ، فكان يعمل كأى مسلم ، يحمل التراب حتى ستر بطنه ، ويستعمل كل الآلات ، ويعمل كل الأعمال ، حتى تعب فاضطجع على صخرة فنام ، فلما استيقظ تمنى أن لو كانوا أيقظوه ، ولم يتركوه .

وهكذا تكون القدوة ، فعلى الإمام أن يشارك الأمة أمورها ، مشاركة صادقة ، فالجميع فى الإسلام عبيد ، والعبودية فى الإسلام لله سبحانه وتعالى . فعلى الجميع أن يعمل ليرضى عنه الله سبحانه وتعالى .

وحينما اصطدموا بالصخرة ، أخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام وذهب إليها ، وهكذا يجب أن يكون الإمام ، عليه أن يذهب إلى الشدة بنفسه ، يفكر فيها ، ويجتمع الجميع حوله ، فيفكر الجميع ، وتتعاون القوى والأفكار فى حلها .

إن ما سبق يثبت أن المصطفى صلى الله عليه وسلم قد بين أن الاسلام ليس

(١) أخرجه الطبرانى ورجاله ثقات كذا فى المجمع ٨/ ٣١١ وله شواهد عن أبى رافع أخرجها أحمد ٨/٦ والدارمى فى المقدمة ٢٨/١ والطبرانى راجع المجمع ٨/ ٣١١ .

كالتمثيليات التى تأخذ بها كل المجتمعات تقريباً الآن فلم يذهب صلى الله عليه وسلم ليأخذ المعول بين أطراف أصابعه ويضرب ضربة خفيفة إيذانا ببدء العمل، ثم يعود إلى القصر الرقيق، فإذا انتهى العمل، ذهب إليه فى موكب النفاق، ليقص الشريط، والمقص فى علبة ذهبية، تحملها امرأة لا يحل له النظر إليها !! لا، ليس فى الاسلام هذا، إنما فى الاسلام إمام يعمل، والكل يعمل، اقتداء بالمعصوم صلى الله عليه وسلم الذى مكث معهم ستة أيام يحفر، حتى تم حفر الخندق، تعب كما تعبوا، وجاع كما جاعوا، وأكل مما أكلوا !! وإنه لفرق شاسع بين هذا وبين ما نراه فى كثير من المجتمعات.

لقد رأى جابر بطن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد عصب عليها حجراً من الجوع [1]، فأسرع إلى زوجته، وأعدا طعاما سريعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فأبى صلى الله عليه وسلم أن يذهب إلى حيث اللحم والثريد، ويترك جيش المسلمين جائعاً فما ذهب إلا وهم معه.

لقد شاركهم صلى الله عليه وسلم أمور حياتهم، فكان يقدم نفسه فى التبعات، ويؤخر نفسه فى المغانم. وماذا بعد قول أبى طلحة: « شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجوع. ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حجرين [2] »

ثانياً: الترفيه فى الاسلام يكون بكلمات تحمل عظيم المعنى، وتقال بأساليب لا تنافى الاسلام، لقد رفّه الصحابة عن أنفسهم بأبيات تحمل المعانى الطيبة.

---

(١) قال الحافظ فى الفتح ٣٩٦/٧ : وفائدة ربط الحجر على البطن أنها تضمر من الجوع، فيخشى على انحناء الصلب، بواسطة ذلك، فإذا وضع فوقها الحجر، وشد عليها العصابة استقام الظهر. ا هـ ونقل عن الكرمانى قوله: لعله لتسكين حرارة الجوع ببرد الحجر، ولأنها حجارة رقاق قدر البطن تشد الأمعاء، فلا يتحلل شىء مما فى البطن، فلا يحصل ضعف زائد بسبب التحلل.

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه فى الزهد باب ما جاء فى معيشة أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ٣٩/٧، ٤٠ رقم ٢٤٧٦ تحفة وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وأخرجه أيضاً فى شمائله.

نحـن الذيـن بايعـوا محمـداً ∴ علـى الجهـاد ما بقينـا أبـداً

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يرتجز معهم .

اللهـم لولا أنـت مـا اهتـدينـا ولا تـصـدقنـا ولا صـلينـا

إنها كلمات فيها من الخير ما فيها يقولها رجال ، فى أجل الأعمال .

ولم يعرف الاسلام الغناء ، ولا عرف شدو النساء وتمايلهن ، ولا عرف خنوثة الرجال ، إن هذه الأشياء تقتل المجتمع وهو لا يدرى ، وليست من الاسلام فى شىء ، بل هى من الشرك ، فالمشركون هم الذين استغلوا النساء فى تشجيع الرجال على المعارك ، فهم الذين أوقفوا النساء خلف الرجال فى أحد يرددن .

إن تقبلـوا نعانـق ∴ ونفـرش النمـارق

أو تـدبـروا نفـارق ∴ فـراق غـير وامـق

والمشركون هم الذين كان عندهم نساء خصصن للغناء وعندما هزموا فى بدر ، ذهب هؤلاء النسوة إلى المدينة حيث الجيش المنتصر ، فلم يجدن عملا ، فالمسلمون لا يحيون حفلات ، وإنما إذا نزلت بهم نعمة سجدوا شكراً لله تعالى .

ثالثاً : لقد قسّم صلى الله عليه وسلم العمل فى الخندق ، ولم يكن التقسيم قطيعة بين المسلمين ، بمعنى أن الرجل إذا انتهى ، ذهب إلى بيته ، لا وانما هو نوع تنظيم ، جعل كل مسلم يحرص على الانتهاء مما أسند إليه ، فإذا انتهى ساعد أخاه ، عملا بالتعاون الذى حث عليه الاسلام .

ومبدأ تنظيم العمل وتوزيعه ، مبدأ مهم جداً فى حياة الفرد والمجتمع ، فإن الفرد إذا بدأ فى عمل كبير ، فقسمه ، لايفكر إلا فى قسمة اليوم ، وهذا يريحه ويشجعه ، أما إذا نظر إلى كل العمل ، فإن هذا يفت فى عضده .

رابعاً : النفاق مرض مدمر مخذل في المجتمع ، فعلى المجتمع أن يحرص على إبعاد هذا المرض عن أفراده ، ويحرص أيضا على تحصين أفراده ضد مايثيره المنافقون من أفكار هدامة .

خامساً : إذا بارك الله فى الشىء القليل صار كثيراً ، وأغني عن الكثير ، ومن أسباب البركة التوكل علي الله سبحانه ، وحسن الظن به ، والإخلاص له سبحانه وتعالى .

فلقد كان الطعام قليلاً ، واجتمع عليه العدد الكثير فبارك الله فيه فأكلوا جميعاً ، وبقي الطعام كما هو .

إن الذين يقيسون الأمور بالمقاييس المادية ، نُذكرهم بغزوة الخندق ، وما فيها من عبر وآيات ، لتؤكد لهم أن الأمور لا تقاس بالمادة ، وإنما أساس الأمور تقوى الله ، فإذا استقام المجتمع المسلم على شرع الله ، وابتعد عن المعاصى ، وأخذ بالأسباب مااستطاع ، فلا عليه بعد ذلك ، فالله سبحانه يرزقه وينصره ، فإنه نصر دين الله ، وصدق الله إذ يقول « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكمً ويقول ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز »

إن ربط الأرزاق والنصر بالأسباب العادية أمر لم يرد به الإسلام ، وإنما جاء الإسلام مبيناً أن جماعة المسلمين إن استقامت على شرع الله نصرها ورزقها ، وإن قل عددها وإن ضعفت أسباب الإنتاج فيها .

فقال الله سبحانه :

« وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ [1] »

وقال سبحانه :

« إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ . . الآيات[2]

(١) الأنفال آية ٦٠

(٢) من سورة الحج آيات ٣٨ - ٤١

وقال سبحانه - فى الأرزاق -

« وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ . . . الآية [1] »

وقال سبحانه

« . . . وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ الآية [2] »

« وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا[3] »

« وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا [4] »

ولقد كانت غزوة الخندق صورة واقعية لهذه النصوص . ففتح الله عليهم من بركاته ، ونصرهم من فضله - كما سيأتي ذلك إن شاء الله تعالى - رغم قلة عددهم وعدتهم .

إن الذى نخافه علي الأمة جهلها بدينها ، مما يترتب عليه كثرة المعاصى ، والإقبال على الدنيا ، والبعد عن الدين . فلم يهلك الله - فيما أعلمنا فى القرآن الكريم ، وما أخبرنا به رسول الله صلي الله عليه وسلم - أمة الا بذنب اقترفته وأسرفت فيه . وهو صلى الله عليه وسلم يقول : فوالله لا الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت علي من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها ، وتهلككم كما أهلكتهم [5] »

فالمنافسة في الدنيا ينتج عنها الهلاك ، لا القوة والمتاع .

---

(١) من سورة الأعراف آية ٩٦.

(٢ - ٤) من سورة الطلاق آيات ٢ - ٥ .

(٥) أخرجه البخارى في الجزية باب الجزية والموادعة ٦ /٢٥٧ حديث رقم ٣١٥٨ أطول من هذا بكثير .

وقال صلي الله عليه وسلم أيضاً :

« يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن ، وأعوذ بالله أن تدركوهن :

* لم تظهر الفاحشة فى قوم قط ، حتى يعلنوا عنها ، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا .
* ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المئونة ، وجور السلطان عليهم .
* ولم يمنعوا زكاة أموالهم ، إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا
* ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله ، إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم ، فأخذوا بعض مافي أيديهم
* وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ، ويتخيروا مما أنزل الله ، إلا جعل الله بأسهم بينهم (١).

أرأيت من أين يأت البلاء !! إن الأمراض سببها انتشار الفاحشة . والجدب وظلم الحاكم سببها الجور فى المكيال والميزان ، وعدم المطر سببه منع الزكاة .

أما احتلال أرض المسلمين فيأتى حينما ينقضون عهد الله ورسوله ، ويقع الاقتتال بين المسلمين إذا لم يحكموا بكتاب الله . إن الأرض لا تحتل بسبب كثرة العدو أو قوة عدته ، وإنما تحتل إذا نقضنا عهد الله وميثاقه . أما إذا سرنا على شرع الله مكّن لنا ، وأعزنا ، وأغنانا . وهو سبحانه القائل .

« وَعَدَ اللَّهُ الَّذينَ آمَنُوا منكُمْ وَعملُوا الصَّالحات لَيَسْتَخْلفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كما اسْتَخْلَفَ الَّذينَ مِن قَبْلِهِمْ ولَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دينَهُمُ الَّذي ارْتَضىٰ لهُمْ ولَيُبدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْد خوفِهِمْ أَمْنًا

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الفتن باب العقوبات ٢/١٣٣٢ حديث رقم ٤٠١٩ ونقل محققه عن الزوائد هذا حديث صالح للعمل به ، وقد اختلفوا فى ابن ابى مالك وأبيه

يعْبُدُونني لا يُشْرِكُون بي شيْئًا ومن كَفَر بَعْدَ ذَلكَ فَأُولَئكَ هُمُ الفَاسِقُونَ [1] »

وغزوة الخندق خير شاهد على ذلك . فحينما قل طعامهم رزقهم الله ، ولم يسألوا أحداً من خلقه .

وبعد

فلقد أتم المسلمون حفر الخندق ، والعدو لم يصل بعد ، فماذا كان ؟

(١) سورة النور آية ٥٥ .

الجيشان حول الخندق

وصول المشركين :-

ووصل المشركون مشارف المدينة من الجهة الشمالية ، فأغلقوا الفتحة التي بين حرة الواقم (الشرقية) وجبل أحد ، اذ وقف في هذه المنطقة جيش غطفان ومن تبعها من أهل نجد ، وعدتهم ستة آلاف وأغلقوا الفتحة التي بين أحد وحرة الوبرة (الغربية) إذ وقف في هذه المنطقة جيش قريش ومن تبعها من بني كنانة وأهل تهامة .

تهيؤ المسلمين :-

وانتهى رسول الله والمسلمون من حفر الخندق وأحكموه ، ثم علموا بوصول الجيش الشركى ، فاستخلف الرسول صلى الله عليه وسلم على المدينة ابن أم مكتوم وجعل النساء والذرارى فى حصن ، وشبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية فهى كالحصن .

وخرج صلى الله عليه وسلم فجعل جبل سلع خلف جيش المسلمين ، والخندق أمامهم ، وكان عدد جيش الاسلام ثلاثة آلاف ، وكان لواء المهاجرين مع زيد بن حارثة ، ولواء الأنصار مع سعد بن عبادة . وبدأت المعركة بجانبين جانب إدارى وجانب عسكرى وسوف أتكلم عن الجانب الإدارى ثم العسكرى ، وهذا نوع من التنظيم للمادة العلمية أما فى واقع الأمر فكان الجانبان يسيران معاً .

مؤامرة يهودية :-

ولم يكتف حيي بن أخطب اليهودي الخبيث بهذه الجموع لحرب المسلمين ، فراح يؤلب بني قريظة علي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان بين بني قريظة ورسول الله صلي الله عليه وسلم عهد موادعة ، لم ينقضه أحد الطرفين ، فراح حيى يغريهم بنقضه ، وإنما ذهب إليهم فى هذا الوقت بالذات نظراً لاجتماع

المشركين ، وهذا يشجع اليهود علي حربه صلي الله عليه وسلم .

الهدف من المؤامرة :-

ولقد كان عدد المشركين كافياً لغلبة المسلمين ، الا أن حيى ابن أخطب حرص على انضمام بني قريظة كي يتقوى الجيش الشركي بمالديهم من متاع ، خاصة أن جيش الشرك ما أن وصل المدينة إلا وجد نفسه بحاجة إلي علف لدوابه حتي كادت تهلك ، فكان المخرج من ذلك أن يضموا بنى قريظة كي يحصلوا علي مايحفظ لهم دوابهم . وثانياً فبنو قريظة أصحاب كثرة في المال والسلاح فلا يستهان بهم . وثالثا فهم يعلمون أن قضية العدد ليست أساس المعارك مع المسلمين فلقد انتصر ثلثمائة على ألف في بدر . ورابعاً فانضمام بنى قريظة يجعل المسلمين يقاتلون شمالاً ، وجنوباً فى داخل المدينة ، وهذا - كما يراه هذا اليهودى ومن معه يجعل جيش الإسلام مقسماً مما يضعفه .

ذهب هذا اليهودى الى بنى قريظة ، ليقابل كعب بن أسعد القرظى سيد بني قريظة ، ورفض هذا الأخير مقابلة الأول ، فلقد فهم ماجاء من أجله ، الا أن الأول (حى بن أخطب) ظل يخادع ويحتال حتي وصل الي كعب ، فكلمه فرفض كعب كلامه ، فظل يغريه ويزين له يغريه مرة بكثرة جيش المشركين ، ويزين لهم الإنضمام لهذ الجيش ليقضوا علي الإسلام حتي لايحدث لهم ماحدث لبنى النضير، ويعطيه من المواثيق مايجعله يوافق ، فأعطاه عهدا وميثاقاً لإن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك فى حصنك حتي يصيبنى ما أصابك . ظل هكذا . حتي نقض العهد الذي بينه وبين رسول الله صلي الله عليه وسلم ومزقوا الصحيفة التي فيها العقد، ومعه فى ذلك بنو قريظة الا عدداً قليلاً لم يوافق علي نقض العهد ، وهؤلاء الرافضون نقض العهد ذهب بعضهم الي رسول الله صلي الله عليه وسلم فأسلم .

وأراد كعب أن يستوثق لنفسه أكثر ، فطلب من حيى أن يأخذ لهم من قريش رهائن تكون عندهم ، لئلا ينالهم ضيم إن هم رجعوا ولم يناجزوا محمدا ، وتكون الرهائن تسعين رجلاً من أشرافهم ، فوعده حيى ذلك . لكن لم ينفذ فلم يأخذوا رهائن من قريش .

الخبر يبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم :-

وبلغ رسول الله صلي الله عليه وسلم أن قريظة نقضوا العهد ، فبعث اليهم يستوثق من الخبر ، أرسل اليهم سعد بن معاذ ، سيد الأوس ، وسعد بن عبادة ، سيد الخزرج ، وأرسل أيضاً عبدالله بن رواحة وخَوّات بن جبير ، وطلب منهم أن يلحنوا له إذا وجدوا قريظة قد نقضت العهد فعلاً ، حتي لا يفت ذلك فى عضد المسلمين .

وذهبت المجموعة فوجدت قريظة قد نقضت العهد فعلاً ، فناشدوهم الرجوع عن ذلك ، فأبوا ، وأغلظوا لهم القول ، فرجعوا الى رسول الله صلي الله عليه وسلم ، ولحنوا به لحنا يفيد غدرهم فقالوا عضل والقارة ، أى أنهم غدروا كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع .

واضطجع صلي الله عليه وسلم متقنعا بثوبه ومكث طويلاً ، فعرف المسلمون أنه لم يأته عن بني قريظة خير ، ثم رفع صلي الله عليه وسلم رأسه وبشر المسلمين بفتح الله ونصره . وفي ذلك يقول الله تعالى « إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١) » قالت عائشة : وذلك يوم الخندق (٢)

(١) سورة الأحزاب آية ١٠ .

(٢) أخرجه البخارى فى المغازى باب غزوة الخندق ٣٩٩/٧ رقم ٤١٠٣

كيد بكيد :-

وماكان رسول الله صلي الله عليه وسلم ليدخل المعركة علي هذا الوضع ، فجيش المسلمين بعد مؤامرة بني قريظة قد انخفضت معنوياته ، فكان لابد من أمر يعيد له شجاعته وجرأته ، فتكلم صلي اله عليه وسلم مع غطفان - والتي تمثل ثلثى الأحزاب تقريباً - فى أن يرجعوا ولهم نصف تمر المدينة .

وهذا الكلام له أثره فى رفع معنويات الجيش الإسلامي ، وله أثره في خفض معنويات جيش الشرك .

وإذا كانت مؤامرة اليهودى قد أخرجت بني قريظة من عهدهم فإنهم في المسألة ذنب . أما غطفان فهي في جيش الشرك وسط ، فقابل صلي الله عليه وسلم مؤامرة علي الذنب بمؤامرة علي الوسط ، وعلماء السير يقولون إن رسول الله صلي الله عليه وسلم هو الذى أرسل الى غطفان يطلب منهم الرجوع مقابل ثلث ثمار المدينة . أما الأحاديث فتفيد أن الحارث بن عوف سيد بنى غطفان هو الذى أرسل يطلب منه نصف تمر المدينة في مقبل أن يرجع بغطفان .

فعن أبى هريرة قال :جاء الحارث الغطفانى الى رسول الله صلي الله عليه وسلم فقال : يامحمد ! ناصفنا تمر المدينة ، وإلا ملأناها عليك خيلاً ورجالاً ، فقال : حتى أستأمر السعود ، سعد بن عبادة ، وسعد بن معاذ ، يعني يشاورهما ، فقالا : لا والله ، ما أعطينا الدنية (١) من أنفسنا فى الجاهلية فكيف وقد جاء الله بالإسلام ؟ فرجع اليه الحارث ، فأخبره فقال : غدرت يامحمد ! قال : فقال حسان

ياحار (٢) من يغدر بذمة جاره ∴ منكم فإن محمداً لا يغدر
إن تغدروا فالغدر من عاداتكم ∴ واللؤم ينبت في أصول السخبر (٣)
وأمانة النهدى حيث لقيتها ∴ مثل الزجاجة ، صدعها لا يجبر

---

(١) الخصلة الذميمة
(٢) أصلها « ياحارث » حذف الحرف الأخير ترخيماً كما قال ابن مالك
ترخيماً لحذف المنادى كيا سعا فيمن دعا سعادا
(٣) شجر تألفه الحيات وتسكن فى اصوله

قــال : فـقـال الحـارث : كـف عنا يامـحـمـد لسان حسـان ، فلو مـزج به مـاء البحر مزجه [1] .

وعن أبى هريرة قال : جاء الحارث الغطفانى الى رسول اله صلي اله عليه وسلم فقال : يامحمد شاطرنا تمر المدينة فقال : حتى استأمر السعود فبعث الى سعد بن معاذ وسعد ابن عبادة وسعد بن حيثمة ، وسعد بن مسعود ، فقال : إنى قد علمت أن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وإن الحارث سألكم تشاطروه تمر المدينة ، فإن أردتم أن تدفعوه عامكم هذا فى [2] أمركم بعد . فقالوا : يارسول الله : أوحى من السماء ، فالتسليم لأمر الله ، أو عن رأيك وهواك ؟ فرأينا نتبع هواك ورأيك ، فإن كنت إنما تريد الإبقاد علينا فولله لقد رأيتنا وإياهم على سواء ، ما ينالون منا تمرة الا شراء أو قرى . فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم [3] : هو ذا تسمعون ما يقولون . قالوا غدرت يا محمد فقال حسان بن ثابت - رضي الله عنه :

يا جار من يغدر بذمة جاره ∴ منكم فإن محمدا لا يغدر
وأمانة المري حين لقيتها ∴ كسر الزجاجة صدعها لا يجبر
إن تغدروا فالغدر من عاداتكم ∴ واللؤم ينبت في أصول السخبر [4].

---

(١) أخرجه البزار . راجع كشف الأستار ٢/٣٣١ ، ٣٣٢ غزوة الخندق حديث رقم ١٨٠٣ ومفاد كلام الهيثمي في مجمع الزوائد أن فيه محمد بن عمرو وحديثه حسن ، وبقية رجاله ثقات مجمع ٦/١٣٢ وأفاد الهيثمى أنه لا يعلم من رواه عن محمد بن عمرو الا عثمان بن عثمان الغطفانى ولم يسمعه الا من عقبة - تلميذ عثمان الغطفانى .

(٢) لعل الصواب « حتى »

(٣) مخاطباً رسل الغطفان .

(٤) أخرجه الطبراني وفى إسناده محمد بن عمر وحديثه حسن وبقية رجاله ثقات . كذا في مجمع الزوائد ٦/١٣٢ ، ١٣٣ باب غزوة الخندق وقريظة . وراجع مصنف ابن أبي شيبة حـ ١٤ صـ ٤٢٠ حديث رقم ١٨٦٦٣ .

والروايتان تثبتان أشياء تختلف عما قاله علماء السير ، ففيهما أن الحارث الغطفانى هو الذي أرسل بخلاف كلام علماء السير من أن الرسول صلي الله عليه وسلم هو الذي أرسل . وفيهما أن الكلام علي تمر المدينة ، وكلام علماء السير يفيد أن المصالحة كانت علي ثمار المدينة ، فكلام علماء السير أعم .

وفيهما أن الكلام كان علي نصف التمر ، وكلام علماء السير يفيد أن الكلام كان على ثلث الثمار .

وواضح أن هذا الموقف كان خيرا علي المسلمين ، إذ أعلي من معنوياتهم ، وأضعف معنويات جيش الشرك ، فإن كان بنو غطفان هم الذين أرسلوا الى الرسول صلى الله عليه وسلم فهذا خير ساقه الله للمسلمين ليطمئنهم ، وإن كان الرسول صلي الله عليه وسلم هو الذي أرسل ففي هذا أيضاً إعلاء لمعنويات جند الإسلام . ودحر لمعنويات أعدائهم . وبخاصة أن الحديث مع غطفان كان على مرأى ومسمع من المسلمين ، إذ حضره السعود .

وهكذا رُدّ كيد بكيد ، فاحتال اليهودى « حيى به أخطب » حتي ضم قريظة للمشركين ، فاهتز موقف غطفان صاحبة العدد الأكبر في جيش الشرك . هذا فيما يتعلق بالجانب الإدارى أتوقف فيه عند هذا الحد ، لأتناول الدروس المستفادة منه ، ثم أتناول الجانب العسكرى .

دروس :

١- واضح مما سبق أن معنويات الجند أمر أساسى ، وأن المعنويات لا ترفع بالشعارات أو الأغاني أو الهدايا ، وانما ترفع بكياسة التصرف الذى يشعرهم بحسن قيادتهم ، وأنهم لم يفقدوا شيئا ، ففي الموقف السابق حينما نقضت قريظة عهدها ، تُحدث مع غطفان فى شأن الانسحاب من المعركة ، وكان هناك حرص على عدم إشاعة خبر قريظة ، أما أمر غطفان فكان شائعاً ذائعا .

٢- المشورة في الإسلام حقيقة واقعة : لقد استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه فرفضوا فرفض ، وهذا يبين لنا - مع ماكان فى بدر- أن المشورة فى الإسلام حقيقة ، يسمع القائد رأى الآخرين ، ويمتثل مادام هذا رأى الكثرة .

٣- وواضح من حراسة الخندق أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان علي دراية دقيقة بالمعركة ، فهو يعلم أماكن تواجد المسلمين ، والحقل الذى تدور فيه المعركة ، فعلم منطقة ضعيفة يمكن أن يؤتى الجيش منها ، فحرسها بنفسه ، مما يفيد أن اشتراكه صلي الله عليه وسلم كان اشتراك القائد العامل ، لا الآمر المتعالي ، فليس في الإسلام آمر متعال ، وفى الإسلام قائد عامل .

٤- لقد خاف المسلمون من كثرة عدوهم ، وطريقة حصار المدينة ، خوفاً يصوره قول الله سبحانه « وَإِذْ زَاغَت الأَبْصَارُ وَبَلَغَت الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً (١) » لكنه لم يصل بهم الى الاستسلام والوهن ، فعندما طلب منهم أن يسلموا للمشركين نصف تمر المدينة أبوا ، مع أن المصطفى صلي الله عليه وسلم بيّن لهم شدة الموقف بقوله « إن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة »(٢) ولذا يصف الله أحوالهم في هذا الموقف العصيب بقوله « وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا » (٣) والمراد أنهم لما رأووا الأحزاب لم ييأسوا من رحمة الله ووعده بالنصر ، فالنصر الالهي ليس مبنيا على عدد ولا عدة ، وإنما علي أساس التقوى « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » « ولينصرن اللهُ من ينصره إن الله لقوى عزيز » فلم يفت

(١) سورة الأحزاب آية ١٠ ، ١١.

(٢) تقدم فى حديث أبى هريرة الذى أخرجه الطبرانى

(٣) سورة الأحزاب آية ٢٢ .

العدد الكثير في عضدهم ، وإنما إزدادوا به إيمانا بوعد الله وتسليماً لأمره سبحانه وتعالى .

المشركون والخندق :-

نزل المشركون علي حدود الحرتين شمالا - كما سبق ان بينت - وبعد أن جمعوا جموعهم ، ونظموا قوتهم ، بدأوا يستعدون لمهاجمة المدينة ، ولسوف تدرك البون الشاسع بين دراية الرسول صلي الله عليه وسلم بما يدور حول دولة الإسلام فى المدينة ، وبين دراية المشركين بما يدور حولهم ، حينما تعلم أنهم الي الآن لم يعلموا بأن الرسول صلي الله عليه وسلم قد خندق حول المدينة خندقاً !!!

إن الرسول صلي الله عليه وسلم علم بتجمع الشرك قبل أن يصل جيشه بمسافه أتاحت للمسلمين فرصة حفر الخندق أما المشركون فحتى بدء مهاجمة المدينة لم يعلموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد خندق الخندق !!

ونظموا أنفسهم وبدءوا مهاجمة المسلمين ، وبينما هم في ثورة المعركة مسرعين مسلحين ، إذ بالخندق أمامهم يعجزهم عن الوصول الى المدينة وعن لقي المسلمين!! ولقد كان الخندق مفاجأة لهم ، فهو شيء لم تعرفه العرب في حروبها .

المسلمون يستعدون للمعركة :-

أما الرسول صلي الله عليه وسلم فلقد جعل علي المدينة ابن أم مكتوم ، ووضع النساء والذرية في الحصون ، وذلك حتي لا يشغل بالمدينة ، وليكون الجيش متفرغاً لأعدائه .

فعن الزبير بن العوام أن رسول الله صلي الله عليه وسلم خرج الي الخندق فجعل نساءه وعمته صفية فى أطم [١] يقال له « فارع » وجعل معهم حسان ابن ثابت ، وخرج رسول الله صلي الله عليه وسلم الى أحد . . . الحديث [٢]

---

(١) بناء مرتفع .

(٢) أخرجه البزار راجع كشف الأستار ٣٣٣/٢ حديث رقم ١٨٠٧ وسيأتي بتمامه إن شاء الله تعالي .

وذهب صلي الله عليه وسلم والمسلمون الي الخندق يحرسونه حتى لايعبره المشركون فمن عبره ، فهو في موقف ضعف ، فليضرب فى هذه الحال فمن السهل القضاء عليه .

لقد فهم المسلمون مهمتهم ، وهي حراسة الخندق ، فليس أمامهم سوى مواجهة عدوهم ، أما المدينة فيرون أنها آمنة . ومن هنا جعلوا كل إمكاناتهم في حراسة الخندق . يشاركهم في ذلك المصطفي المعصوم صلي الله عليه وسلم ، بل كان أمامهم فى ذلك .

فعن عائشة رضى الله عنها قالت : كنت مع رسول الله صلي الله عليه وسلم وهو بالخندق ، فكان رسول الله صلي الله عليه وسلم يتعاهد ثغرة [١]من الجبل يُخاف منها ، فيأتى فيضطجع في حجرى ، ثم يقوم فيتسمع ، فسمع حِسّ إنسان عليه الحديد ، فانسلّ في الجبل ، فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم : من هذا ؟ فقال :أنا سعد ، جئتك لتأمرنى بأمرك ، فأمره رسول الله صلي الله عليه وسلم أن يثبت في تلك الثغرة ، فقالت عائشة : فنام رسول الله صلي الله عليه وسلم في حجرى حتى سمعت غطيطه ، فقالت عائشة : لا أنساها لسعد [٢].

وبينماهم يستعدون للمعركة ، واضعين أمامهم أن مهمتهم إنما هى حراسة الخندق ، إذ بأمور أخرى تظهر تثقل الكاهل وتضاعف المسئولية ، ففي هذا الوقت العصيب ظهر النفاق ، وباتت قريظة تهدد المدينة ، وبعض المسلمين خاف على بيته، فأراد الانسحاب من المعركة الي بيته ، واليك التفصيل .

---

(١) منطقة الضعف التي خشى أن يؤتى الجيش منها .

(٢) أخرجه البزار . راجع كشف الأستار ٣٣٣/٢ رقم ١٨٠٦ ، وقال في الصحيح طرف منه . وفى مجمع الزوائد ١٣٥/٦ ذكره وقال : رواه البزار عن شيخه عبد الله بن شبيب وهو ضعيف .

النفاق :-

فى هذا الوقت ظهر النفاق فى صورة أقوى من السابقة . ففى حفر الخندق تسلل المنافقون عائدين الى بيوتهم ، أما هنا وقد اقتربت المعركة فلم يقتصر تأثير المنافقين علي أنفسهم ، وانما تعداه ليفتوا فى عضد المسلمين ، يصور ذلك قول الله سبحانه « وإذا يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله الا غرورا (١) . وإذا قالت طائفة منهم ياأهل يثرب (٢) لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة (٣) وماهى بعورة إن يريدون إلا فرارا » وفي هذا دليل علي أنهم كانوا ينسحبون ، وينطقون بكلمات تؤثر علي نفسية المؤمن ، المجتهد في جهاده « لا مقام لكم فارجعوا » !!

عن قتادة فى قوله سبحانه « وإذ يقول المنافقون . . . الآية « قال : قال ذلك أناس من المنافقين : قد كان محمد يعدنا فتح فارس والروم ، وقد حصرنا ههنا ، حتى مايستطيع أحدنا أن يبرز لحاجته (٤) ماوعدنا الله ورسوله الا غرورا (٥) .

---

(١) أى إلا باطلا .

(٢) سموا المدينة باسمها قبل الاسلام ، لبغضهم له .

(٣) العورة : الخلل فى البناء يمكن السارق من الدخول ، والمراد ذات عورة .

(٤) أى لقضاء حاجته من بول وغائط .

(٥) أخرجه الطبرى فى تفسيره حـ ٢١ صـ ١٣٣ .

بنوقريظة يهددون المدينة :-

وفي هذا الوقت أيضاً بدأ خطر بنى قريظة يظهر ! ! فكان صلي الله عليه وسلم قد وضع النساء والذرية في حصن من حصون المدينة - كما تقدم - فأراد اليهود أن يُعملوا القتل فى النساء والذرية ، فعن الزبير بن العوام أن رسول الله صلي الله عليه وسلم خرج الي الخندق [١] فجعل نساءه وعمته صفية فى أطم يقال له فارع ، وجعل معهم حسان بن ثابت ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أُحد ، فيرقى يهودى حتى أشرف على نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى عمته، فقالت صفية : يا حسان قم إليه حتى تقتله ، قال لا والله ماذاك فىَّ ، ولوكان ذلك فيّ لخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالت صفية : فأربط السيف [٢]على ذراعى ثم تقدمت إليه حتى قتلته وقطعت رأسه ، فقالت له : خذ الرأس فارم به علي اليهود ، قال : ماذاك فىَّ . فأخذت هي الرأس فرمت به على اليهود . فقالت اليهود : قد علمنا أن محمدا لم يكن يترك أهله خلوفا ليس معهم أحد ، فتفرقوا وذهبوا ...... الحديث [٣] .

وهكذا أصبحت المدينة مهددة باليهود ، واشتد الأمر علي المسلمين ، وأصبح عليهم مواجهة العدو الذي من الداخل ، وهو بنو قريظة كما أن عليهم أن يواجهوا العدو من الخارج وهم المشركون .

بنو حارثة يريدون العودة :-

وفى هذا الوقت أيضاً اجتمع بنو حارثة فبعثوا أوْس بن قيظىّ إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله إن بيوتنا عورة ، وليس دار من دور

(١) هكذا في مجمع الزوائد ٦ / ١٣٣ ، وهو الأظهر والذى فى كشف الأستار ٢ / ٣٣٣ « أحد » .
(٢) أى : ربّطت السيف .
(٣) أخرجه البزار راجع كشف الأستار ٢ / ٣٣٣ ، ٣٣٤ ومجمع الزوائد ٦ / ١٣٣ ، ١٣٤ وعزاه للبزار وأبى يعلى باختصار .

الأنصار مثل دورنا ، ليس بيننا وبين غطفان أحد يردهم عنا ، فأذن لنا فلنرجع إلى دورنا فنمنع ذرارينا ونساءنا ، فأذن لهم رسول الله صلي الله عليه وسلم ، فتهيئوا للأنصراف ، وعلم سعد بن معاذ بذلك ، فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله لاتأذن لهم ، إنا والله ما أصابنا وإياهم شدة قط إلاصنعوا هكذا ، ثم أقبل عليهم فقال : يا بنى حارثة ، هذا لنا منكم أبدا ، ما أصابنا وإياكم شدة إلا صنعتم هكذا ، فردهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقول سعد : ما أصابنا وإياكم شدة إلا صنعتم هكذا يشير إلي ما وقع منهم قبل ذلك فى أحد ، وهو ما حكاه القرآن الكريم عنهم في قول الله سبحانه وتعالى « إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا(١) »

فعن جابر رضى الله عنه قال : نزلت هذه الآية فينا « إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا » بنى سلمة وبني حارثة ، وما أحب أنها لم تنزل ، والله يقول « وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا (٢) » .

هذه حال المسلمين :-

وهكذا يتضح لنا أن حال المسلمين عند المعركة كان شديدا ، فالمشركون كثيرون ، وقريظة ظهر خطرها ، والنفاق يخشي منه ، وبعض المسلمين يريد العودة وصدق الله العظيم إذ يقول « وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنا لك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا »

معركة الخندق

عندما وصل المشركون الخندق ذهلوا لأن ذلك شيء لم يكن في حسبانهم ، فحجز الخندق بين الجيشين جيش المسلمين وجيش الشرك . ولم يكن هناك قتال إلا

(١) سورة آل عمران آية ١٢٢ .

(٢) أخرجه البخارى في المغازى باب « إذهمت طائفتان منكم أن تفشلا .... » ٧ / ٣٥٧ وفى التفسير سورة آل عمران « إذهمت طائفتان منكم أن تفشلا .... » ٨ / ٢٢٥ .

الرمي بالسهام والحجارة ، ولم يك هذا كافيا بالنسبة للمشركين فإنهم جاءوا لأكثر من هذا ، جاءوا للقضاء علي المسلمين ، فدبروا لجولة جزئية

الجولة الأولى :-

هذه الجولة قام بها رؤساء المشركين وسادتهم ، فلقد ضايقهم أن يقفوا علي حافة الخندق ليس بينهم وبين المسلمين إلا الرمى بالسهام والحجارة ، فأجمعوا علي أن يغدوا جميعاً لقتال المسلمين فغدا أبو سفيان بن حرب ، وعكرمة ابن أبى جهل ، وضرار بن الخطاب ، وخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، ونوفل ابن معاوية الديلمى ، ونوفل بن عبد الله المخزومى ، وعمر بن عبدوُدّ ، ومعهم رؤساء غطفان : عيينة بن حصن ، والحارث بن عوف ، ومسعود بن رخيل - بصيغة التصغير - ومن بنى أسد رؤوسهم طلحة بن خويلد وغيره .

اجتمع هؤلاء وساروا إلى الخندق ، يبحثون عن معبر لهم يكون ضيقا وقد غفل عنه المسلمون .

ووجدوا هذا المكان ، فجعلوا يكرهون خيلهم ويضربونها ، حتي عبره خمسة منهم ، هم : عكرمة ، ونوفل بن عبد الله ، وضرار ابن الخطاب ، وهبيرة بن أبي وهب ، وعمرو بن عبدود ، أما الباقون - وفيهم أبو سفيان - فلم يعبروا .

ورأى المسلمون هذا العدد الذى عبر ، فأسرع عدد من المسلمين نحو المكان الذى عبروا منه ، ليمنعوا عبور عدد آخر ، أما هولاد الذين عبروا فاستقبلهم فرسان المسلمين ، وهنا كانت مبارزة ثم معركة .

المبارزة : -

عندما عبر هذا العدد من المشركين ، قابله من المسلمين ثلاثة فرسان ، أما بقية المسلمين فكانت في حراسه الخندق ، فإنها لا تأمن كيد بقية جيش الشرك .

قابل هذه المجموعة ثلاثة من المسلمين هم علي بن أبى طالب ، وعمر بن الخطاب والزبير بن العوام - رضى الله عنهم وأرضاهم - .

وفي أول اللقاء طلب عمرو بن عبدود [١] البراز ، فاستأذن علي بن أبى طالب رسول الله صلي الله عليه وسلم أن يبارزه ، فقال رسول الله صلي لله عليه وسلم مستشيرا له : أنه عمر بن عبدود اجلس فكرر عمرو النداء وجعل يونبهم ويقول : أين جنتكم التى تزعمون أنه من قتل منكم دخلها ، أفلا تبرزون لى رجلا ؟ فقام على فقال : أنا يارسول الله . فقال اجلس إنه عمرو ثم نادى عمرو الثالثة وقال :

ولقد بححت من النداء ∴ بجمعكم هل من مبارز
ووقفت إذ جبن المشجع ∴ وقفة الرجل المناجز
وكذاك أني لم أزل ∴ متسرعا قبل الهزاهز
إن الشجاعة في الفتى ∴ والجود من خير الغرائز [٢]

فقام على - رضى الله عنه - فقال : أنا له يارسول الله ، فقال : إنه عمرو فقال : وإن كان عمرا . فوافق صلي الله عليه وسلم وأعطاه سيفه وعممّه ، ودعا له قائلا : اللهم أعنه عليه [٣]

أخرج الحاكم بإسناده عن ابن إسحاق قال : كان عمرو بن عبدود ثالث قريش ، وكان قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة ، ولم يشهد أحدا . فلما كان يوم الخندق خرج معلما ليرى مشهده ، فلما وقف هو وخيله قال له علي : يا عمرو قد كنت تعاهد الله لقريش أن لا يدعوك رجل إلى خلتين إلا قبلت منه إحداهما . فقال عمرو : أجل . فقال له علي رضى الله عنه :فإني أدعوك إلى الله عز وجل ، وإلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم والإسلام . فقال : لاحاجة لى فى ذلك قال :

---

(١) أحد صناديد الشرك وأبطالهم ، وشجانعهم المسمَّيْن ، قاتل في جيش الشرك في بدر ، وعجز عن شهود أحد لقداحة جراحه في بدر ، فحرم الدهن علي نفسه ، حتي يثأر من المسلمين ، فلما كانت الخندق خرج ثائر الرأس معلما ليرى مكانه . وكان في التسعين من عمره ، وقد عصب علي حاجبيه يرفعهما ، فلقد سقطا من كبر السن .

(٢) من رواية ابن اسحاق زيادة علي رواية البكائى . راجع عيون الأثر ٢ / ٦١ ، ٦٢ .

(٣) طبقات ابن سعد ٢ / ٦٨ .

فإني أدعوك إلى البراز . قال : يا ابن أخي لم ؟ فوالله ماأحب أن أقتلك ! ! فقال علي : لكني والله أحب أن أقتلك . فحمى عمرو فاقتحم عن فرسه فعقره ، ثم أقبل فجاء إلى على وقال : من يبارز ؟ فقام علي وهو مقنع في الحديد ، فقال : أنا له يا نبي الله ! فقال : إنه عمرو بن عبدود ، اجلس . فنادي عمرو : ألا رجل . فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فمشى إليه علي رضي الله عنه وهو يقول .

لا تعجلن فقد أتـا ∴ ك مجيب صوتك غير عاجز
ذو نبهـة وبصيرة ∴ والصدق منجا كل فائز
إنى لأرجو أن أقيم ∴ عليك نائحة الجنائز
من ضربة نجلاء يبـ ∴ قى ذكرها عند الهزاهز

فقال له عمرو من أنت ؟ قال : أنا على . قال : ابن من ؟ قال : ابن عبد مناف، أنا علي بن أبى طالب . فقال : عندك يا ابن أخى من أعمامك مَنْ هو أسن منك فانصرف ، فإنى أكره أن أهريق دمك . فقال على : لكنى والله ما أكره أن أهريق دمك . فغضب ، فنزل فسل سيفه كأنه شعلة من نار ، ثم أقبل نحو علي مغضبا ، واستقبله على بدرقته ، فضربه عمرو فى الدرقة فقدّها وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجه ، وضربه علي رضى الله عنه علي حبل العاتق فسقط، وثار العجاج، فسمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم التكبير ، فعرف أن عليا قتله ، فثم يقول على رضى الله تعالى عنه .

أعلى يقتحم الفوارس هكذا ∴ عنى وعنهم أخروا أصحابى
اليوم يمنعنى الفرار حفيظتى ∴ ومصمم في الرأس ليس بنابى
ألا ابن عبد حين شد إليـه ؟ ∴ وحلفت فاستمعوا من الكتاب
إنى لأصدق من يهلل بالتقى ∴ رجلان يضربان كل ضراب

فصدرت حين تركته متجدلًا ∴ كالجذع بين دكادك وروابى

وعففت عن أثوابه ولو اننى ∴ كنت المقطر بَزّنى أثوابى

عبدَ الحجارة من سفاهة عقله ∴ وعبدت رب محمد بصواب

ثم أقبل على - رضى الله عنه - نحو رسول الله صلي الله عليه وسلم ووجهه يتهلل فقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - هلا سلبته درعه ؟ فليس للعرب درع خير منها ! ! فقال : ضربته فاتقانى بسوءته ، واستحييت ابن عمى أن استلبه، وخرجت خيله منهزمة حتى أقحمت من الخندق (١) .

وراوية ابن اسحاق هذه تفيد أن عليا - رضي الله عنه - جرح ، أما بقية الروايات فتفيد أن عليا لم يجرح ، وأن سيف عمرو لم يصل إليه .

ولقد كانت هذه المبارزة ، علي الأرجل دون خيول ، يتضح هذا مما سبق من أن عمرا نزل فسل سيفه ، وفي رواية ابن اسحاق (٢) : ويقال إنه كان علي فرسه فقال له على : كيف أقاتلك وأنت عليّ فرسك ، ولكن انزل معى ؟ فنزل عن فرسه ... الخ .

عن الحافظ يحى بن آدم قال : ما شبهت قتل علي عمرا (٣) الا بقول الله عز وجل « فهزموهم بإذن الله وقتل داوود جالوت » (٤) .

المعركة :-

وبقتل علي - رضي الله عنه - عمرو بن عبدود ، انهارت جماعة الشرك ، وولت، فتبعها الزبير بن العوام وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، وحمل الزبير

---

(١) مستدرك الحاكم ٣ / ٣٢ ، ٣٣ ، وعند المحاملى فى أماليه رواية تختلف بعض الشى عما هنا ، ذكرها صاحب كنز العمال صـ ١٠ صـ٤٥٦ رقم ٣٠١٠٦ عن ابن عباس عن عمر .

(٢) عند غير البكائى عيون الآثر ٢ / ٦٢

(٣) أى عمرو بن عبدود .

(٤) أخرجه الحاكم ٣ / ٣٤ وفى المطبوعة خطأ فى كتابة الآية .

على نوفل بن عبدالله بالسيف فضربه ضربة شقته اثنين ووصلت إلى سرج الفرس فقطعته وانتهت إلى كاهل الفرس ، واستغرب المسلمون من ذلك ، فقيل : يا أبا عبد الله ما رأينا مثل سيفك !! فقال : والله ما هو السيف ، ولكنها الساعد . أى أن قوة الساعد هى السبب في قوة الضربة ، وليس للسيف دخل .

ولم يكتف الزبير بقتل نوفل ، وإنما حمل علي هبيرة ابن أبى وهب فضرب ثغر فرسه .

وبعض الروايات تفيد أن نوفل طلب المبارزة ، فأمر رسول الله صلي الله عليه وسلم من الزبير أن يبارزه .

فعن عكرمة قال : « لما كان يوم الخندق قام رجل من المشركين فقال : من يبارز ؟ فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم : قم يازبير ، فقالت صفية : يارسول الله ! واحدي ، فقال قم يازبير ، فقام الزبير ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيهما علا صاحبه قتله ، فعلاه الزبير فقتله ، ثم جاء بسلبه فنفله النبي صلي الله عليه وسلم إياه [1] »

ورجع الذين عبروا ، وقد نالهم ما نالهم حتى إن عكرمة بن ابي جهل ألقي رمحه وهو منهزم عن عمرو بن عبدود ، رجعوا وقد قتل منهم عمرو بن عبدود ، ونوفل بن عبد الله ، رجعوا فعبروا الخندق الي بقية الذين جاءوا اليه ، تحوطهم خيبة الأمل ، ويعلوهم العار حتى قال أبو سفيان هذا يوم لم يكن لنا فيه شيء فارجعوا .

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة مرسلا - كما هو ظاهر - فى المغازى باب غزوة الخندق ١٤ / ٤٢٣ رقم ١٨٦٧٠ ، وذكره ابن كثير ٤ / ١٢١ عن ابن اسحاق قال : وخرج نوفل ابن عبدالله بن المغيرة المخزومى فسأل المبارزة ، فخرج إليه الزبير بن العوام فضربه فشقه باثنتين حتى فلّ فى سيفه فلا ، وانصرف وهو يقول :

إنى امرؤ أحمى وأحتمى ∴ عن النبى المصطفي الأمى .

ماذا في جثث قتلى المشركين ؟ :-

وأرسل المشركون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدون جثث القتلى بالثمن ، فأرسلوا يريدون جثة نوفل بن عبد الله بن المغيرة ويريدون جثة عمرو بن عبد ود ، وجعلوا الثمن مقدار الدية وهو عشرة آلاف ، فرفض صلي الله عليه وسلم الثمن ، وأعطاهم الجيفة .

«عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قتل المسلمون رجلا من المشركين يوم الخندق ، فأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يغرمون الدية بجيفته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه لخبيث ، خبيث الدية ، خبيث الجيفة ، فخلي بينهم وبينه [1] »

قال ابن اسحاق : وبعث المشركون إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم ، يشترون جيفة عمرو بن عبد ود بعشرة الآف . ، فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم : هو لكم ، لانأكل ثمن الموتى .

الجولة الثانية :

ولما رجعت مجموعة المشركين التي قامت بالجولة الأولى ، اغتم المشركون من نتيجة الجولة ، فلقد مات عمرو بن عبدود ، وانهزم من معه فقرروا أن يغدو جيش الشرك بكامله إلى الخندق ، فباتوا يعبئون ويستعدون ، وقبل طلوع الشمس كانوا قد وصلوا إلي الخندق ، وانتشروا علي طول حافته الشامية (الشمالية) ، فجعلوا المسلمين في مثل الحصن من كتائبهم ، وتجاه خيمة الرسول صلي الله عليه وسلم وجهوا كتيبة قوية بقيادة خالد بن الوليد .

أما المسلمون فلقد انتشروا علي حافة الخندق اليمانية (الجنوبية) ، وهدف

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده جـ١ ص٢٧١ وهو عنده أيضا جـ١ صـ ٢٤٨ وأخرجه الترمذى في الجهاد باب ما جاء لاتفادى جيفة الآسير ٥ / ٣٧٦ تحفة ، وقال : غريب لانعرفه إلا من حديث الحكم .

المشركين أن يعبروا الخندق ، وهدف المسلمين صد المشركين عن ذلك ، ومن عبر قتل

واستمر الوضع علي ذلك من الصباح الي المساء عدة أيام ، المشركون يجتمعون ويتفرقون ، ويصولون ويجولون ، والمسلمون علي أتم الاستعداد يصدون أي محاولة للعبور ، والرمي بالسهام والحجارة دائر . ولقد ترتب علي ذلك عدم قدرة المسلمين علي الزوال من مواضعهم ، مما أعجزهم عن تأدية الصلوات في أوقاتها ، فمرة صلى رسول الله صلي الله عليه وسلم العصر بعد غروب الشمس ، ومرة صلي الظهر والعصر والمغرب والعشاء بعد أذان العشاء بفترة .

فعن علي - رضي الله عنه - « عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يوم الخندق : ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم نارا كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتي غابت الشمس [1] »

وعن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - أن المشركين شغلوا النبي صلي الله عليه وسلم يوم الخندق عن أربع صلوات حتي ذهب من الليل ما شاء الله ، قال : فأمر بلالا فأذن ، ثم أقام فصلي الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ، ثم أقام فصلى المغرب ، ثم أقام فصلى العشاء [2] » وفي مساء يوم من الأيام وبعد أذان العشاء بفترة ، رجع المشركون إلى رحالهم ، ورجع المسلمون إلي خيمة رسول الله صلي الله عليه وسلم ، ومن باب الحذر بقيت جماعة من المسلمين بقيادة أُسيد بن حُضير تحرس الخندق ، وكان ما توقعه صلي الله عليه وسلم ، فلقد رجع خالد بن الوليد بكتيبته إلي الخندق ، طالبا غرة المسلمين !! فناوشه أسيد ومن معه ، حتي ردوهم ، الا أن وحشي بن حرب أصاب الطفيل بن نعمان برمحه فقتله .

---

(١) أخرجه البخارى فى المغازى باب غزوة الخندق ٧ / ٤٠٥ حديث رقم ٤١١١ ، وأخرجه مسلم .
(٢) أخرجه أحمد ومالك والترمذى والنسائى والشافعى ، وما ذكرته رواية أحمد من الفتح الربانى ٢ / ٣٠٩ رقم ٢١٧ .

استمر الوضع علي ذلك عدة أيام ، المشركون يحاولون اقتحام الخندق ، والمسلمون يردونهم ، (والمسلمون لم ينسوا المدينة ، فتذهب إليها كتيبة من مائتين بقيادة سلمة بن أسلم ، وكتيبة من ثلاثمائة رجل بقيادة زيد بن حارثة) ، استمر ذلك حتى ثبت للمشركين عجزهم ، فاكتفوا بإرسال الطلائع بالليل طمعا في الغارة ، وانتظارا لما يظهر لهم بعد ذلك .

حال الجيشين :-

ويجدر بي هنا أن أقف لأبين لك حال الجيشين ، جيش الإسلام أو قل جماعة الإسلام عموما ، وجيش الشرك .

أما جيش الإسلام فلقد كان الوضع عليه شديدا فالعدو أمامهم على طول الخندق ، وقريظة خلفهم تهدد النساء والذرية ، بل يمكن أن تعلنها حربا ، يترتب عليها أن يضطر المسلمون لتقسيم أنفسهم قسمين ، قسم يحارب المشركين علي الخندق ، وقسم يحارب قريظة ، وعندئذ يمكن أن ينضم إليهم من المشركين عدد ، أو ينضم إليهم المشركون ، وتتحول وجهة القتال .

وساعد في هذه الشدة : -

١ - طول المدة ، فلقد مكث الحصار نحو عشرين ليلة فعن سعيد بن المسيب قال : حاصر النبي صلى الله عليه وسلم المشركون في الخندق أربعا وعشرين ليلة (١) .

وعن أبي المسيب قال : لما كان يوم الأحزاب حصر النبى صلى الله عليه وسلم، وأصحابه بضع عشرة ليلة ، حتي خلص إلى كل امرىء منهم الكرب ، وحتى قال النبى صلى الله عليه وسلم : اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إنك إن تشأ لاتعبد ... الحديث (٢) .

---

(١) أخرجه ابن سعد ٢ / ٧٣ .

(٢) أخرجه ابن سعد ٢ / ٧٣ .

٢ - ظهور النفاق بجلاء - كما تقدم - .

٣ - ضيق العيش علي المسلمين في هذه الفترة ، فلقد كانوا في انتظار طلع النخل، فلقد نفد ما عندهم من تمر، وفي الحديث « بيت لاتمر فيه جياع أهله [(١)] » فعن عروة « أن رسول الله صلي الله عليه وسلم صاف المشركين يوم الخندق ، قال : وكان يوما شديدا لم يلق المسلمون مثله قط ، قال : ورسول الله صلي الله عليه وسلم جالس وأبو بكر معه جالس ، وذلك زمان طلع النخل ، قال : وكانوا يفرحون به إذا رأوه فرحا شديدا لأن عيشهم فيه ، قال : فرفع أبو بكر رأسه فبصر بطلعة وكانت أول طلعة رئيت ، فقال هكذا بيده طلعة يارسول الله من الفرح ، قال : فنظر اليه رسول الله صلي الله عليه وسلم فتبسم وقال اللهم لاتنزع منا صالح ما أعطيتنا ، أو صالحا أعطيتنا [(٢)] » .

٤ - شدة البرد ، فلقد كانت فترة الخندق شديدة البرد ، كما سبق أن بينت ، وكما سيأتى في حديث حذيفة .

ومن مظاهر اشتداد الوضع على المسلمين ما يلى :

١ - شكواهم شدة الحالة ، يصور ذلك سؤالهم رسول الله صلي الله عليه وسلم عن دعاء يدعون به ، يفرّج الله به عنهم الكرب .

فعن أبى سعيد الخدرى - رضي الله عنه - قال : قلنا يوم الخندق : يارسول الله هل من شيء نقوله فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ قال : نعم ، اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا . قال : فضرب الله عز وجل وجوه أعدائه بالريح ، فهزمهم الله عز وجل بالريح [(٣)] .

---

(١) أخرجه مسلم وابوداود والترمذى وابن ماجه وأحمد .

(٢) أخرجه ابن أبى شيبة في المغازى باب غزوة الخندق جـ١٤ صـ٤١٦ حديث ١٨٦٥٥ .

(٣) أخرجه أحمد ٣ / ٣ .

٢- كثـرة دعـائه صلي الله عليـه وسلم علي الآحزاب ، وإلحاحه علي ربه أن يصرفهم ويهزمهم .

فعن جابر بن عبدالله« أن النبي صلي الله عليه وسلم دعا في مسجدالأحزاب [١] ثلاثا ، يوم الاثنين ، ويوم الثـلاثاء ، ويوم الأربعـاء ، فـاستـجـيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين (الظهر والعصر[٢]) ، فعرف البشر في وجهه . قال جابر : فلم ينزل بي أمر مهم غائظ [٣] الا توخّيت تلك الساعة فأدعوا فيها ، فأعرف الإجابة [٤] .

٣ - قبوله صلي الله عليه وسلم مصالحة غطفان - كما تقدم - ولولا اشتداد الأمر ما قبل صلى الله عليه وسلم ذلك .

وأما جيش الشرك فكان الوضع بالنسبة له عصيباً ، فالخندق أمامه ، ومن نزل الخندق فقد هلك ، وجيش الإسلام علي حافة الخندق ينزل الهلاك بمن حاول عبور الخندق ، ويجيد الرمى فيصيب من المشركين رغم طول المسافة .

ومع هذا الموقف العصيب اجتمعت عدة أمور ، جعلته في غـاية القـسوة !! من هذه الأمور :-

١- طول المدة ، فلقد كـان المشـركون يظنون أن الأمر سيكون يسيراً ، وينتهون من المسلمين في فترة وجيزة ، فإذ بهم وقد خاب ظنهم ، يفشلون فى بلوغ ما يريدون ، فيستمرون في إقامتهم هذه أياماً يترتب عليها نفاد ما عندهم من قوت

٢- التفكك الذى في صفوفهم ، فهم أخلاط شتى ، ليس بينهم من اللحمات

(١) الذى في مطبوعة مسند أحمد " الفتح " والتصويب من طبقات ابن سعد ، ومن سبل الهدى والرشاد .
(٢) ما بين القوسين من ابن سعد .
(٣) هذا لفظ ابن سعد ، وفى مطبوعة مسند احمد " غليظ " .
(٤) أخرجه أحمد في المسند ٣ / ٣٣٢ ، وابن سعد في الطبقات ٢ / ٧٣ واللفظ لأحمد .

ما يجمعهم ويوحدهم ، فها هى غطفان كانت تريد أن تحظى بقدر من ثمار المدينة وتنصرف ، وها هى قريظة تخاف قريشا وغطفان بعد أن ورطوها في نقض العهد مع رسول الله صلي الله عليه وسلم .

٣ - انهيار الروح المعنوية عندهم ، فعندما فشلوا في عبور الخندق انهارت روحهم المعنوية ، حتى أصبحوا يكتفون بإرسال الطلائع عساهم يحققون نصرا ، منه ينطلقون ، ولم يستطيعوا ذلك .

٤ - شدة البرد .

ومن مظاهر قسوة هذه الحال : -

١ - شكواهم سوء حالهم ، يصور ذلك قول أبى سفيان : يا معشر قريش إنكم لستم بدار مقام ، لقد هلك الخف والحافر ، وأجدب الجناب ، وأخلفتنا بنو قريظة .... الخ (١)

٢ - طلبهم الزاد من بنى قريظة ، فلقد نفد زادهم ، ولم يجدوا مرعى لدوابهم فكلم أبو سفيان حيى بن أخطب فى ذلك ، فطلب حيي من كعب بن أسد ، كبير بنى قريظة زادا لجيش الشرك ولدوابه ، فقال كعب : مالنا مالك فاصنع ما رأيت . فأرسلوا عشرين بعيرا فحملوها شعيرا وتمرا وتبنا ، وأرادوا الذهاب إلى قريش وغطفان ، فقابلهم جمع من المسلمين من أهل قباء ، فأخذوا كل ذلك ، وساروا به إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم ، فتوسع بذلك أهل الخندق (٢) .

٣ - قبول غطفان أو طلبها الصلح ، مما يدل على يأسهم من النصر .

ويمكننى أن ألخص حال جيش المشركين ، بأنه الجيش الذى خاب أمله ، واشتد عليه الحال ، فلقد طالت إقامته في خارج بلده وضعفت قوته فلقد تنافرت فرقه .

---

(١) جـ٢ صـ٦٩ من طبقات من ابن سعد .

(٢) ذكره الواقدى ، وعنه نقله صاحب سبل الهدى جـ٤ صـ ٥٣٩ ، ٥٤٠ .

بين حال الجيشين :-

وبعد أن بينت حال الجيشين أستطع أن أعقد مقارنة بينهما ، فجيش المشركين لم يصبح له مصدر قوة ، حتى عدده الكثير لم يصبح مزية بعد أن تشككت فرقه في بعضها ، وأراد بعضها الانسحاب .

أما جيش المسلمين فهو وإن كان في وضع شديد من حيث كثرة عدوه ، لكنه كان يمتلك من أسباب القوة الكثير أذكر منها :

١ - ثقتهم بسلامة التخطيط القتالى ، فلقد حفروا الخندق ، فتبين لهم سلامة الفكرة وآتت ثمارها وأيضا أظهروا في العدو ضعفاً منهكا له ، حينما أصبحت غطفان تطلب الصلح .

٢ - ثقتهم بوجود الكفاءات فيهم ، وهي كفاءات موفقة ، فها هو علي يبارز عمرو بن عبد ود فيقتله ، وهاهو الزبير يقتل نوفلا ، وتعود جماعة المسلمين سليمة رغم قلة عددها ، وتعود جماعة الكفر منهزمة خاسرة . وها هو مشرك يغطى بترسيه جبهته ، وإذ بسعد ابن أبى وقاص يوجه لها سهما يصيب جبهته فيقتله .

فعن سعد - « وذكر النبى صلي الله عليه وسلم - فقال : لقد رأيته يوم الخندق ضحك حتي بدت نواجذه ، قال : قلت : كيف ؟ قال : كان رجل معه ترسان ، وكان سعد راميا ، فكان يقول : كذا وكذا بالترسين يغطى جبهته ، فنزع له سعد بسهم ، فلما رفع رأسه رماه ، فلم يخط هذه منه ، يعني جبهته ، وانقلب ، وأشال برجله ، فضحك النبي صلي الله عليه وسلم حتي بدت نواجذه ، قال : قلت : من أي شيء ضحك ؟ قال : من فعل الرجل [1] »

(١) أخرجه البزار - راجع كشف الأستار ٢ / ٣٣٤ ، ٣٣٥ رقم ١٨٠٨ - وقال : لانعلم رواه عن النبى صلى الله عليه وسلم إلا سعد ، ولانعلم له إلا هذا الأسناد . وأخرجه أحمد في مسنده راجع الفتح الربانى ٢١ / ٧٨ ، ٧٩ وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٦ / ١٣٥ ، ١٣٦ رواه أحمد والبزار ... ورجالهما رجال الصحيح غير محمد بن محمد بن الأسود وهو ثقة .

٣ - إيمانهم بالله سبحانه . هذا الأمر الذى كان مصدر خير عليهم من نواح متعددة، فإيمانهم بالله وحّدهم وجمع شملهم ، وإيمانهم أعطاهم مقدرة زائدة علي تحمل المشاق فأصبحت التضحية أمرا محببا عندهم لأنهم ينتظرون الجزاء من الله سبحانه وتعالى . وإيمانهم بالله عرفهم هدفهم ، فهم يجاهدون من أجل إعلاء كلمة الله ، وهذا هدف اجتمعت قلوبهم عليه . وصدق الله العظيم إذ يقول « وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (١) » .

٤ - ظهور الآيات الناطقة بتأييد الله لحماة دينه « إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا (٢) » فها هم وقد أطعمهم الله من الطعام القليل ، فبارك فيه فأشبع الكثيرين ، وهذه صخرة تتفتت ، وها هو رسول الله صلي الله عليه وسلم بينهم يبشرهم بتأييد الله سبحانه وتعالى ونصره ، ويدع لهم ، وهو صلى الله عليه وسلم مستجاب الدعوة .

ومن هنا أستطيع أن أقول : إن وضع جيش الإسلام معنوياً كان أحسن ، لولا كثرة العدو الكثيرة ، فمن نظر إلى الأول وهم السعود - سعد بن عبادة ، وسعد ابن معاذ وغيرهم - رأى أن المسلمين أقوى ومن هنا قالوا والله لن نعطيهم إلا السيف . ومن نظر إلى الثانى - وهو المصطفى المعصوم صلى الله عليه وسلم - يرى أن من واجب المسلمين أن يهدموا هذه الكثرة، وهذا ما ذهب إليه صلي الله عليه وسلم حينما أراد مصالحة غطفان .

وما ذهب إليه السعود سليم فهو اللائق بالجند ، وهو رأي موفق لأنه أعلي من معنويات الجيش ، وما ذهب إليه صلي الله عليه وسلم أسلم فهو الأحوط ، وكان مراد الله القوى الأكرم فدفع عنهم سبحانه وتعالي - كما سيأتى إن شاء الله تعالى

(١) سورة الأحزاب آية ٢٢ .

(٢) سورة الحج .

ابتداء الفرج :-

اتجهت القلوب إلي الله سبحانه اتجاهة مستغيث بالأعز الأكرم ، وذهب الصحابة يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أرجى دعاء فى محنتهم هذه وأخبرهم صلى الله عليه وسلم أن أنسب دعاء هو " اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا " (١) وأخذ صلى الله عليه وسلم يتضرع إلى الله يسأله بصفاته الحسنى أن يهزم الأحزاب وينصر المسلمين عليهم .

فعن عبد الله بن أبي أوفى - رضى الله عنهما - قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأحزاب فقال : اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب اللهم اهزمهم وزلزلهم . (٢)

واستجاب الله سبحانه وتعالى دعاء رسوله ودعاء المسلمين المستغيثين ، وجل ذكره فهو القائل « قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ » (٣) استجاب فهدى رجلا من جيش المشركين ، أسرع الخطى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبره بإسلامه وأن قومه لم يعلموا بإسلامه ، ويطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأمره بما يشاء ، فيأمره الرسول أن يخذل عن المسلمين ، فإن الحرب خدعة ومن نعمة الله سبحانه أن وفق هذا الرجل فى هذا الأمر ، الذى كلفه به صلى الله عليه وسلم ، فلقد استطاع أن يفرط عقد المشركين ، فشتت الله شملهم ، وفرق جمعهم .

قال ابن اسحاق : وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فيما وصف الله من الخوف والشدة ، لتظاهر عدوهم عليهم ، وإتيانهم إياهم من فوقهم ومن أسفل منهم .

---

(١) تقدم هذا الحديث .

(٢) أخرجه البخارى فى المغازى باب غزوة الخندق ٤٠٦/٧ رقم ٤١١٥ .

(٣) سورة المؤمنون آيه ٨٨ .

قال : ثم إن نُعيم بن مسعود بن عامر بن أُنَيْف بن ثعلبة بن قنفذ بن هلال ابن خلاوة بن أشجع بن ريث بن غطفان أتى رسول الله فقال : يارسول الله إنى قد أسلمت وإنّ قومى لم يعلموا بإسلامى ، فمرنى بماشئت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إنما أنت فينا رجلٌ واحد ، فخذّل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة " فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة وكان لهم نديماً فى الجاهلية فقال : يابنى قريظة قد عرفتم ودى إياكم وخاصة مابينى وبينكم ، قالوا صدقت ، لست عندنا بمتهم ، فقال لهم : إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لاتقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم ونساؤهم وأموالهم بغيره فليسوا كأنتم ، فإن رأوا نُهزة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم ، وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم ، يكونون بأيديكم ثقة لكم ، على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه ، قالوا : لقد أشرت بالرأى .

ثم خرج حتى أتى قريشاً ، فقال لأبى سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش قد عرفتم ودى لكم وفراقى محمداً ، وأنه قد بلغنى أمرٌ قد رأيت علىَّ حقا أن أبلغكموه نصحاً لكم ، فاكتموا عنى . قالوا نفعل . قال تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ماصنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه : إنا قد ندمنا على مافعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين : من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم ، فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقى حتى تستأصلهم ؟ فأرسل إليهم : أن نعم . فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحداً .

ثم خرج حتى أتى غطفان ، فقال : يامعشر غطفان : إنكم أصلى وعشيرتى ،

وأحبُ الناس إلّي ولا أراكم تتهموني . قالوا : صدقت ماأنت عندنا بمتهم ، قال فاكتموا عني قالوا : نفعل . ثم قال لهم مثل ماقال لقريش ، وحذّرهم ماحذّرهم . فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس ، وكان من صنيع الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن أرسل أبو سفيان بن حرب ورؤوس غطفان إلى بني قريظة - عكرمة ابن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان ، فقال لهم : إنا لسنا بدار مُقام هلك الخف والحافر فأعدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه فأرسلوا إليهم : إن اليوم يومُ السبت وهو يوم لانعمل فيه شيئاً ، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثا فأصابهم مالم يخف عليكم ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا ، حتى نناجز محمدا ، فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال - أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلادنا ، ولاطاقة لنا بذلك منه .

فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة ، قالت قريش وغطفان : والله إن الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحق ، مايريد القوم إلا أن تقاتلوا ، فإن رأوا فرصة انتهزوها ، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم ، وخلوا بينكم وبين الرجل في بلادكم .

فأرسلوا إلى قريش وغطفان : إنا والله مانقاتل معكم حتى تعطونا رهناً فأبوا عليهم وخذل الله بينهم وبعث الله الريح في ليلة شاتية شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم ، وتطرح آنيتهم .

لقد استطاع هذا الرجل بخدعته هذه أن يقطع عرى الوفاق بين جحافل الشرك ، ومابناه حيي ابن أخطب - من جعل بني قريظة مع المشركين - هدمه نعيم بتشكيك قريش وغطفان في قريظة ، وتشكيك قريظة في قريش وغطفان ، بل إن خدعة نعيم هذه حولت مؤامرة حيي لصالح الإسلام ، فلقد جعلت المشركين يعتمدون على

قريظة ، فما أن تشككوا فيها إلا ضاع عزمهم ، وانهارت معنوياتهم، وأصبح الرجوع أرجح عندهم .

إن الباحث فى هذه الغزوة يتساءل : لقد خرج المشركون من قريش وحلفائها وغطفان وأتباعها لحرب المسلمين ، ووصلوا بجيوشهم إلى المدينة ، ثم كان أن استطاع حيى بن أخطب أن يستميل قريظة ويضمهم إلى جيش المشركين ، فهل إذا انسحبت قريظة - والتى لم تكن فى حسبانهم وقت الخروج - ينسحب جيش الشرك كله ؟!! وعلى فرض أنهم كانوا يضعونها فى الحسبان فلم لم يتفقوا معها قبل الخروج ؟ إنه لم يبق أمام الباحث إلا أن يقول ، إنه تخطيط الشرك واليهودية رده الله عليهم وصدق الله العظيم إذ يقول « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ »(١) .

نعمة الله :

وبينما المشركون فى تخاذلهم ، وتشككهم فى نصرة قريظة ، وبينما هم فى وهنهم ، إذ بنعمة من الله سبحانه وتعالى يمن بها على المسلمين فأرسل سبحانه وتعالى جبريل عليه السلام ومعه عدد من الملائكة ومعه الريح لنصرة المسلمين . ، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل فسُرَّ ، واستبشر ، ونادى المسلمين " ألا ابشروا " .

فعن سعيد بن جبير قال " كان يوم الخندق بالمدينة ... فأتى جبريل عليه السلام ومعه الريح ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى جبريل : ألا أبشروا . ثلاثا ، فأرسل الله عليهم الريح ، فهتكت القباب ، وكفأت القدور ، ودفنت الرحال ، وقطعت الأوتاد ، فانطلقوا لايلوى أحد على أحد ، فأنزل الله تعالى «إِذْ

(١) سورة الأنفال آية ٣٦ .

جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا »(١) .

لقد أرسل الله عليهم ريحا شأنها غريب فهى :

- قوية جدا حتى إنها تهدم البناء ، وتقلع الأوتاد .
- مع قوتهاهذه محصورة فى مساحة معسكرهم ، لا تتجاوزه شبراً !!!
- تطفىء النار ، والعادة فى الريح أنها تزيد النار اشتعالاً .

لقد منعتهم هذه الريح أسباب الحياة ، فلا يجدون نارا للتدفئة أو إعداد الطعام ولايستقر قدر لإعداد أو تناول طعام أو شراب ، ولا تترك بناء للتستر فيه ، فكيف يمكن الحياة مع ذلك ؟ ولقد كانت هذه الريح هى السبب الأقوى فى انفراط عقد الأحزاب ، فشتتهم الله ، وألقى فى قلوبهم الرعب ، فأسرعوا فى انهزامهم حتى ساروا مسافة ثلاثة أيام في يوم واحد . وهذه الريح والجند أرسلها الله سبحانه وتعالى على قريش صاحبة القيادة والزعامة فى التحزب ، ولما علمت غطفان باندحار جيش قريش ، انشمروا الى بلادهم خائبين .

فعن عبد العزيز بن أخى حذيفة قال : ذكر حذيفة مشاهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال جلساؤه : أما والله لوكنا شهدنا ذلك لكنا فعلنا وفعلنا ، فقال حذيفة : لا تتمنوا ذلك ، لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ، ونحن صافون قعود ، وأبو سفيان ومن معه فوقنا ، وقريظة اليهود أسفل منا ، نخافهم على ذرارينا ، وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة ولا أشد ريحا منها ، فى أصوات ريحها أمثال الصواعق ، وهى ظلمة مايرى أحدنا أصبعه ، فجعل المنافقون يستأذنون النبى صلى الله عليه وسلم ويقولون : إن بيوتنا عورة وماهى بعورة ، فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له ، ويأذن لهم ويتسللون ، ونحن ثلاثمائة ونحو ذلك ، إذ استقبلنا

---

(١) أخرجه ابن سعد ٢ / ٧١

رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا رجلا حتى أتى عليّ وما على جنة من العدو ولا من البرد، إلا مرط لامرأتى مايجاوز ركبتى ، قال فأتانى وأنا جاث على ركبتى . فقال : من هذا ؟ فقلت : حذيفة . فقال : حذيفه ! فتقاصرت للأرض ، فقلت : بلي يارسول الله ، كراهية أن أقوم ، فقمت فقال : " إنه كائن فى القوم خبر فأتنى بخبر القوم " قال : وأنا من أشد الناس فزعا ، وأشدهم قرا، قال : فخرجت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله ، ومن فوقه ومن تحته " قال : فو الله ماخلق الله فزعا ولا قرا فى جوفى الاخرج من جوفى ، فما أجد فيه شيئا . قال : فلما وليت قال : ياحذيفة ! ؛ لاتحدثن فى القوم شيئاً حتى تأتينى " قال : فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت ضوء نار لهم توقد ، واذا رجل أدهم ضخم ، يقوم بيديه على النار ويمسح خاصرته ويقول : الرحيل الرحيل ، ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك فانتزعت سهما من كنانتى أبيض الريش ، فأضعه فى كبد قوسى ، لأرميه به فى ضوء النار ، فذكرت قول رسول اله صلى الله عليه وسلم لا تحدثن فيهم شيئا حتى تأتينى ، فأمسكت ورددت سهمى إلى كنانتى . ثم إنى شجعت نفسى حتى دخلت العسكر ، فإذا أدنى الناس منى بنو عامر يقولون : يا آل عامر الرحيل الرحيل لا مقام لكم ، وإذا الريح فى عسكرهم وماتجاوز عسكرهم شبرا : فوالله إنى لأسمع صوت الحجارة فى رحالهم وفرشهم ، الريح تضرب بها ، ثم إنى خرجت نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما انتصفت بى الطريق أو نحو ذلك ، اذا أنا بنحو عشرين فارسا - أو نحو ذلك معتمين فقالوا : أخبر صاحبك أن الله قد كفاه : قال : فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مشتمل فى شملة يصلى ، فو الله ماعدا أن رجعت راجعنى القر وجعلت أقرقف [1] فأومأ إلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده وهو يصلى، فدنون منه فأسبل علّى شملته ،

(١) أرتعد .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى . فأخبرته خبر القوم : أخبرته أني تركتهم يرحلون ، قال : وأنزل الله تعالى " يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعلمون بصيرا "[(١)] يعنى الآيات كلها إلى قوله " ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا " .

وفى رواية مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال : " ألا رجل يأتينى بخبر القوم جعله الله معى يوم القيامة " ، فسكتنا قال هذا القول صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، وهم سكوت وفيها أنه صلى الله عليه وسلم قال لحذيفة عند الصباح " قم يانومان " [(٢)] .

وفى رواية أحمد " فقال حذيفة يا ابن أخى والله لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخندق ، وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل هَوِيًّا [(٣)] ثم التفت إلينا فقال : من رَجل يقوم فينظر لنا مافعل القوم (ثم يرجع) [(٤)] - يشترط له رسول آله صلى الله عليه وسلم أنه يرجع - أدخله الله الجنة ؟ فما قام رجل ، ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هويا من الليل ثم التفت إلينا فقال : من رجل يقوم فينظر لنا مافعل القوم ثم يرجع - يشترط له رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجعة - أسأل الله أن يكون رفيقى فى الجنة ؟ فما قام رجل من القوم مع شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد ، فلما لم يقم أحد ، دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن لى بد فى القيام حين دعانى ،

---

(١) هذه رواية الحاكم والبيهقى فى الدلائل كما أوردها ابن كثير فى البداية ٤/١٢٩ ، ١٣٠ .

(٢) أخرجه مسلم فى الجهاد والسير باب غزوة الأحزاب صـ ٣ صـ ١٤١٤ ، ١٤١٥ حديث رقم ١٧٨٨ .

(٣) الهوى - بفتح الهاء وكسر الواو - الحين الطويل من الزمان ، وقيل : هو الحين الطويل من الليل ١ هـ نهاية بتصرف .

(٤) ساقط من الأصل . وليس فى الفتح الربانى كذلك ٢١ / ٨٠ .

فقال : ياحذيفه اذهب فادخل فى القوم ، فانظر مايفعلون ولا تحدثن شيئا حتى تأتينا ، قال فذهبت فدخلت فى القوم والريح وجنود الله تفعل ماتفعل ، لاتقرلهم قدر ولا نار ولا بناء ، فقام أبو سفيان بن حرب فقال : يامعشر قريش لينظر امرؤ من جليسه ، فقال حذيفة : فأخذت بيد الرجل الذى إلى جنبى فقلت ! من أنت ؟ ، قال أنا فلان بن فلان ثم قال : أبو سفيان : يامعشر قريش إنكم والله ماأصبحتم بدار مقام ؛ لقد هلك الكراع [1] وأخلفتنا بنو قريظة ، بلغنا منهم الذى نكره ، ولقينا من هذه الريح ماترون ، والله ماتطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولايستمسك لنا بناء فارتحلوا فإنى مرتحل ، ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب على ثلاث فما أطلق عقله إلا وهو قائم .. وسمعت غطفان بما فعلت قريش وانشمروا إلى بلادهم . [2]

لقد اطمأن صلى الله عليه وسلم حينما رأى جبريل ، ومع ذلك أرسلت له الملائكة مع حذيفة مايطمئنه " أخبر صاحبك - رسول الله صلى الله عليه وسلم - أن الله قد كفاه " ومن هنا يقول صلى الله عليه وسلم " نصرت بالصَّبا ، وأهلكت عاد بالدبور " [3] .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : " أتت الصَّبا الشمال ليلة الأحزاب ، فقالت : مُرِّى حتى ننصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت الشمال : إن الحرة لاتسرى بالليل . فكانت الريح التى نصر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبا » [4] .

---

(١) بضم الكاف اسم لجمع الخيل .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده ٣٩٢/٥ ، ٣٩٣ .

(٣) أخرجه البخارى فى المغازى باب غزوة الخندق ٣٩٩/٧ رقم ٤١٠٥ .

عن ابن عباس . والصبا بفتح الصاد المهملة . والباء الموحدة - الريح الشرقية ، والدّبور - بفتح الدال المهملة ، والباء الموحدة - الريح الغربية .

(٤) أخرجه البزار راجع كشف الأستار كتاب الهجرة والمغازى بابا غزوة الخندق ٣٣٦/٢ وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ١٣٩/٦ ، ١٤٠ وقال رواه البزار ورجاله رجال الصحيح .

وفى رواية أخرى عن ابن عباس : قالت الصبا للشمال : اذهبى بنا ننصر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إن الحرائر لاتهب بالليل ، فغضب الله عليها فجعلها عقيما" (١) .

الآتى بخبر القوم :

وحديث الباب من كل رواياته - سواء مافى مسلم أو الحاكم أو البيهقى أو أبى نعيم - يفيد أن الصحابى الذى أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم للإتيان بخبر جيش قريش هو حذيفة بن اليمان رضى الله تعالى عنه .

وقد استشكل بعض الأئمة هذا الحديث مع حديث عند البخارى عن جابر قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب : من يأتينا بخبر القوم ؟ فقال الزبير : أنا ، ثم قال : من يأتينا بخبر القوم ؟ فقال الزبير : أنا ثم قال : إن لكل نبى حواريا وإن حواى الزبير "(٢)

استشكل هذا بناء على القول باتحاد القصة ، فقال ابن الملقن : اعلم أنه وقع هنا أن الزبير هو الذى ذهب لكشف خبر بنى قريظة ، والمشهور كما قاله شيخنا أبو الفتح اليعمرى أن الذى توجه ليأتى بخبر القوم حذيفة كما رويناه من طريق ابن اسحاق وغيره ١ هـ قال الحافظ ابن حجر - متعقبا شيخه ابن الملقن - وهذا الحصر مردود ، فإن القصة التى ذهب لكشفها غير القصة التى ذهب حذيفة لكشفها ، فقصة الزبير كانت لكشف خبر بنى قريظة هل نقضوا العهد أو لا وقصة حذيفة كانت لكشف خبر الأحزاب بعد أن أرسل الله عليهم الملائكة والريح (٣) .

---

(١) أخرجه ابن مردويه فى التفسير كذا فى فتح البارى ٤٠٢/٧ فى شرح حديث : نصرت بالصبا ... " .

(٢) أخرجه البخارى فى الجهاد باب فضل الطليعة ٥٢/٦ رقم ٢٨٤٦ وفى المغازى باب غزوة الخندق ٤٠٦/٧ رقم ٤١١٣ ، ومسلم فى فضائل الصحابة باب من فضائل طلحة والزبير - رضى الله عنهما - جـ ٤ صـ ١٨٧٩ رقم ٤٨ .

(٣) انتهى من الفتح ٤٠٦/٧ ، ٤٠٧ بتصرف .

قلت : الأمر أيسر من أن يستشكل ، وبخاصة أنه قد وردت به النصوص صراحة .

فعن جابر بن عبد الله قال : اشتد الأمر يوم الخندق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا رجل يأتينا بخبر بنى قريظة ؟ فانطلق الزبير فجاء بخبرهم ، ثم اشتد الأمر أيضاً فذكر ثلاث مرات ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لكل بنى حوارىّ ، والزبير حوارىّ (١) .

ورواية أحمد هذه تزيح الإشكال ففيها التصريح بأن المراد خبر بنى قريظة ، وعلى هذا فلا إشكال نهائياً ، ولو أن هذه الرواية كانت فى ذاكرة من استشكل ما استشكل . والحديث وإن كان فى البخارى ومسلم - كما تقدم - إلا أن الشاهد فى هذه الرواية " ألا رجل يأتينا بخبر بنى قريظة ؟ »

وفى احدى روايات هذا الحديث عند البخارى مايزيح هذا الإشكال ، فعنده عن على بن عبد الله - ابن المدينى - حدثنا سفيان - ابن عيينه - حدثنا ابن المنكدر قال : سمعت جابر بن عبد الله قال : ندب النبى صلى الله عليه وسلم الناس يوم الخندق فانتدب الزبير ، ثم ندبهم فانتدب الزبير ، ثم ندبهم فانتدب الزبير ، فقال : لكل بنى حوارى ، وحوارى الزبير ... قلت - أى على بن المدينى - لسفيان : فإن الثورى يقول : يوم قريظة " فقال : كذا حفظته منه كما أنك جالس " يوم الخندق " قال سفيان : هو يوم واحد : وتبسم سفيان (٢) .

ورواية أخرى عند البخارى ومسلم تبين أن الزبير إنما كان مرسلا لكشف حال

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده الفتح الربانى ٨٤/٢١ رقم ٢٩٢ ، وابن أبى شيبه مرسلا عن عروة فى مصنفه فى الفضائل باب ماحفظت فى الزبير بن العوام رضى الله عنه ٩٣/١٢ رقم ١٢٢١٦ وفيه زيادة " وابن عمتى" وأخرجه أيضاً فى المغازى باب غزوة الخندق ٤٢١/١٤ رقم ١٨٦٦٦ وفى الروايتين موطن الشاهد " فيأتينا بخبر بنى قريظه " وراجع ترجمة الزبير من طبقات ابن سعد وكتب الفضائل من كتب السنة .

(٢) أخرجه فى أخبار الآحاد باب بعث النبى صلى الله عليه وسلم الزبير طليعة وحده ٢٣٩/١٣ رقم ٢٧٦١ ومعنى " ندب " طلب ودعا . ومعنى " انتدب " أجاب فأسرع .

بنى قريظة وهى ماروياه عن عبد الله بن الزبير قال : كنت يوم الأحزاب جعلت أنا وعمر بن أبى سلمة فى النساء ، فنظرت فإذا أنا بالزبير على فرسه يختلف إلى بنى قريظة مرتين أو ثلاثا ، فلما رجعت قلت : يا أبت رأيتك تختلف : قال : أوهل رأيتنى يابنىّ ؟ قلت : نعم . قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من يأت بنى قريظة فيأتينى بخبرهم ؟ فانطلقت ، فلما رجعت جمع لى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويه فقال : فداك أبى وأمى [1] .

أفبعد هذا يستشكل بأن المبعوث للإتيان بخبر المشركين حذيفة أو الزبير ؟ بدهى لا . فإن الزبير أرسل لمعرفة حال بنى قريظة ، وحذيفة أرسل لمعرفة حال المشركين بعد أن أرسل الله عليهم جنوده والريح .

دور الزبير فى قريظة :

سبق أن ذكرت أن الرسول صلى الله عليه وسلم أرسل سعد بن معاذ ، وسعد ابن عبادة وعبد الله بن رواحة ، وخوات بن جبير إلى بنى قريظة لمعرفة موقفهم من العهد الذى بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين، وقد تقول : لمْ تذكر الزبير ؟ بل كيف ذهب هؤلاء مع أن الروايات تفيد أن الزبير وحده هو الذى ذهب ؟

والجواب :

أن الزبير لم يك مرسلا مع هؤلاء ، ولا للهدف الذى أرسل له هؤلاء ، فهؤلاء أرسلوا لمعرفة موقف بنى قريظة من العهد الذى بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذهبوا إليهم ، ودخلوا معهم حصنهم ودعوهم إلى تجديد الحلف ، فأبوا وعابوا .

(١) أخرجه البخارى فى فضائل الصحابة باب مناقب الزبير بن العوام ٧/ ٨٠ رقم ٣٧٢٠ واللفظ له . وأخرجه مسلم فى فضائل الصحابة باب من فضائل طلحة والزبير - رضى الله عنهما - ١٨٧٩/٤ حديث رقم ٤٩ من طريقين .

أمـا الزبيـر فكان مـرسـلا ليطلع على أحـوالهم ، أسـيـغـيـرون على المدينة ؟ أسيفتحون جهة أخرى للقتـال؟ ولقد أرسل لهذه المهمة ثلاث مرات كما هو ظاهر فى الرواية . ومن هنا ترجم البخارى لهذا الحديث بـ " فضل الطليـعة " [١] و "هـل يبعث الطليعة وحده [٢] " و " بعث النبى صلى الله عليـه وسلم الزبير طليعـة وحده [٣] " . والطليـعة من يبعث إلى العدو ليطلع على أحوالهم ، فكان الزبير مرسلا لمعـرفـة موقف قريظة من قـتـال المسلمين ، ولربما تحولت مـهـمتـه إلى قـتـال وهذا ماصرحت به إحدى روايات هذا الحديث عند أحمد [٤] ففيـها أنه صلى الله عليه وسلم قال : « من يأتى بني قريظة فيقاتلهم » .

وهذا الذى أخذته من الروايات يختلف عـمـا ذهب إليه الحافظ ابن حجر [٥] - رحمـه الله - فإنه جعل مهمة الزبير هى نفس مهمة السعدين ومن معهما ، مع أن ظاهر الروايات غيـر هذا ، بل لم تكرر إرساله إن كان لنفس الغـرض ؟ إنه يقول فى شرحه لحديث جابر [٦] : وفيـه - أى حديث جابر - أن الزبير توجه إلى ذلك ثلاث مرات [٧] وقال أيضاً - فى شرحه لرواية أخرى لنفس الحديـث - وفى الحديث جواز استعمال التجسس فى الجهاد ، وفيه منقبة للزبير وقوة قلبه ، وصحة يقينه ، وفيه جواز سفر الرجل وحده .... الخ [٨] .

فـمحصلة كـلامـه - رحمـه الله - على الحديث أن الزبيـر تكرر إرسـاله ، وكـان لغـرض الاطلاع علـى أحـوال القـوم " التـجـسس " وكـان وحـده . وكـل هذا يؤكـد

(١) كتاب الجهاد باب فضل الطليعة حـ ٦ صـ ٥٢ .
(٢) الباب الذى يلى السـابق .
(٣) كتاب الآحاد باب بعث النبى صلى الله عليه وسلم الزبير طليعة وحده حـ ١١ صـ ٢٣٩ .
(٤) جـ ١ صـ ١٦٤ من مسند الزبير .
(٥) من أن الزبير قدم لكشف هل نقضت قريظة العهد أولا ؟ وقد تقدم هذا هنا فى أول المسألة .
(٦) الذى تقدم ذكره ، والذى أوله : من يأتينى بخبر القوم ... وحوارىّ الزبير .
(٧) فتح ٦ / ٥٣ .
(٨) فتح ٦ / ٥٣ .

اختلاف مهمته عن مهمة السعدين التى كانت بلا تكرار ، ولا تجسس ، وكانوا جمعا .

لقد أطلت فى هذه المسألة لبيان أن لاتعارض بين أحاديث إرسال الزبير وأحاديث إرسال حذيفة ، فهذا لهدف وهذا لهدف آخر ، ولبيان أن مهمة الزبير لم تك مكررة مع مهمة السعدين ، ومخالفة الحافظ بل الحفاظ عموماً - لا أحبها ، لكن ماتعطيه النصوص صراحة أولى بالقول به ، والله ولى التوفيق .

هروب الأحزاب :

وأسرعت قريش سيرها عائدة إلى بلادها ، وعلمت غطفان فجمعت جموعها عائدة أدراجها ، بيد أن القرشيين فروا والخوف يلحقهم من المسلمين أن يتعقبوهم ، ومن هنا ظلت مجموعة من عسكرهم حماية لجمعهم من أن يطلبه جيش الإسلام فيقضى عليه وهو فى حالة انصراف .

قال ابن سعد : قالوا : وجعل الناس يرحلون ، وأبو سفيان قائم حتى خف العسكر ، فأقام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد فى مائتى فارس ساقة للعسكر ورداءاً لهم مخافة الطلب . (١)

المسلمون يتعقبون المشركين :

ويبدو أن إقامة عمرو وخالد كانت لمدة محدودة ، ولجزء يسير من الليل ، فما أن أصبح الصباح إلا أعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين بانصراف المشركين ، وأرسل فى أثرهم من يطمئن لرحيلهم ، فسارت جماعة من جيش الإسلام إلى حمراء الأسد ، اتضح لها بذلك أن جيش الشرك ولى لغير مارجعة ، فرجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فعن سعيد بن المسيب قال : فندب النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه فى طلبهم ، فطلبوهم حتى بلغوا حمراء الأسد ، قال فرجعوا ... (٢) وإنما كان الطلب

---

(١) الطبقات ٢ / ٦٩ .

(٢) أخرجه عبد الرزاق فى مصنفه ٣٦٩/٥ ومن طريقه أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة صـ ٤٣٧ ، ٤٣٨ .

إلى حمراء الأسد ، لأن من وصلها فقد أبعد .. وليس فى العادة له عود ، وحمراء الأسد تقع إلى جنوب غرب المدينة على بعد ثمانية أميال ، ولقد تتبع المسلمون المشركين إليها فى غزوة أحد أيضاً .

واطمأن صلى الله عليه وسلم والمسلمون لانصراف المشركين ، وأحسوا بنعمة الله سبحانه وتعالى عليهم ، وأنه سبحانه وتعالى هو الذى صرفهم بحوله وقوته جل جلاله « وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا » (١) وأنه سبحانه هو الذى تولى الدفع عن المسلمين ؟ فلم يدخلوا مع جيش الشرك فى ملحمة وقتال ؟ ومن هنا كان صلى الله عليه وسلم يقول : لا إله إلا الله وحده ، أعز جنده ، ونصر عبده ، وغلب الأحزاب وحده ، فلا شىء بعده (٢) .

وكانت هذه النعمة - نعمة دفع الأحزاب - تتردد فى تسبيحه صلى الله عليه وسلم شاكراً ربه عليها ، ومن هنا يقول عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قفل من الغزو أو الحج أو العمرة يبدأ فيكبر ثلاث مرات ثم يقول : لا إله إلا الله ، وحده لاشريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير . آيبون ، تائبون ، عابدون ، ساجدون لربنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده (٣) والمراد أنه سبحانه وتعالى حقق لهم كل ماوعدهم به من استخلاف في الأرض ، ودخول المسجد الحرام ، ونصر رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهزم الأحزاب من غير أن يتحمل المسلمون فى ذلك قتالا .

---

(١) سورة الأحزاب آية ٢٥ .

(٢) أخرجه البخارى فى المغازى باب غزوة الخندق ٤٠٦/٧ رقم ٤١١٤ .

(٣) أخرجه البخارى فى المغازى فى الموضع السابق ، وفى الدعوات باب الدعاء إذا أراد سفرا أو رجع ١٨٨/١١ رقم ٦٣٨٥ .

المنافقون :-

صرف الله الأحزاب عن المسلمين ، وأحس المسلمون بنعمة الله عليهم . أما المنافقون فكانوا فى بيوتهم ينتظرون ما يحل برسول الله صلي الله عليه وسلم والمسلمين من هزيمة من الأحزاب ، ويقولون : ما هلكوا بعد ؟ وما علم هولاء - المنافقون - بما أنزل الله على المومنين من نصر وتأييد ، من ريح وجند طيرت عدوهم ، وصدق الله العظيم إذ يقول فى شأن هؤلاء المنافقين « يحسبون الأحزاب لم يذهبوا » ويقول « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً » .

لن تغزى المدينة بعد :-

لقد كانت غزوة الأحزاب بأيامها ثقيلة على المسلمين ، فلقد كانوا أمام الجزيرة بأسرها ، فى برد شديد ، وضيق من العيش . وفي وسط هذا الضيق يخبر الصادق المصدوق بأمور يصدقها المسلمون وتأتىَ الأيام لتثبت صدق ما أنبأ به صلى الله عليه وسلم ، فبينما هم يحفرون الخندق ، والعمل متواصل ، والجوع مستحكم ، والبرد شديد يخبرهم صلى الله عليه وسلم أن الله سبحانه وتعالى سيفتح علي أمته الكثير والكثير من البلاد ، فسيفتحون بلاد الفرس وبلاد الروم وبلاد اليمن [١] . وبينما هم أمام الأحزاب والموقف عصيب ، يبشرهم بأن جبريل قد أرسله الله ، وأن النصر قد جاء ويرسل صلي الله عليه وسلم من يستطلع أخبار القوم ، فإذا بهم قد انقشعوا ورجعوا إلى بلادهم . لقد انقشعوا بما أرسل الله عليهم من ريح وجنود ، ولم ينازلهم المسلمون معركة ، مما معه يمكن أن تسوّل للمشركين أنفسهم أن يعيدوا الكرة ، إلا أنه صلى الله عليه وسلم يخبر بغير ذلك ، يخبر بأنه لن تغزى المدينة بعد غزوة الخندق هذه ، وإنما سيخرج جيش الإسلام من المدينة غازيا الأماكن الأخرى .

(١) تقدم تفصيل ذلك .

فعن سليمان بن صرد قال : «سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول حين أُجْلي الأحزابُ عنه : الآن نغزوهم ولايغزوننا ، نحن نسير إليهم [١]».

وعن جابر أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال يوم الأحزاب ، وقد جمعوا له جموعا كثيرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لايغزونكم بعدها أبداً ، ولكن تغزونهم [٢] » .

قال الحافظ : وذكر الواقدى أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك بعد أن انصرفوا ، وذلك لسبع بقين من ذي القعدة . ثم قال : وفيه علم من أعلام النبوة ، فإنه صلى الله عليه وسلم اعتمر في السنة المقبلة ، فصدته قريش عن البيت ، ووقعت الهدنة بينهم إلى أن نقضوها فكان ذلك سبب فتح مكة ، فوقع الأمر كما قال صلى الله عليه وسلم [٣]أ هـ .

وقال ابن إسحاق : فلما انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله صلي الله عليه وسلم فيما بلغنا « لن تغزوكم قريش بعد عامكم ، ولكنكم تغزونهم » قال فلم تغز قريش بعد ذلك ، وكان يغزوهم بعد ذلك ، حتى فتح الله عليه مكة [٤] أهـ

وبعد ،

فإنه يبقى هنا تساؤلات :

الأول : إذا كان الله سبحانه وتعالى قد قدر أن يتولى سبحانه وتعالى الدفع عن المسلمين ، فلم تركهم إلى هذه الحال التي وصفها سبحانه « وإذ زاغت الأبصار

---

(١) أخرجه البخارى في المغازي باب غزوة الخندق ٧ / ٤٠٥ رقم ٤١٠٩ .
(٢) أخرجه البزار راجع كشف الأستار ٢ / ٣٣٦ رقم ١٨١٠ [قال في الفتح ٧ / ٤٠٥ بإسناد حسن]
وفي مطبوعة كشف الأستار " لايغزوكم ... تغزوهم " وإنما أثبت النون في الفعلين مراعاة للقواعد ، وما في الفتح كما هنا .
(٣) فتح ٧ / ٤٠٥ .
(٤) البداية ٤ / ١٣٠ .

وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا » وكان في قدرته سبحانه - وهو القادر المقتدر - أن يصد الأحزاب قبل ذلك بل قبل وصولهم المدينة ؟ .

الثاني : لم تولى سبحانه وتعالى الدفع عن المسلمين في هذه الغزوة ، حتى إنه لم يحدث بين الجيشين التحام ؟ .

الثالث : لم كانت الجنود والريح علي قريش ، دون غطفان ودون قريظة ؟ .

الرابع : ما حدث في غزوة الخندق هل يسمى نصراً للمؤمنين أو ماذا ؟ .

الخامس : الدارس لغزوة الخندق - بل ولغيرها - يتضح له أن آل بيت رسول الله صلي الله عليه وسلم كانوا أسبق من غيرهم في الشجاعة ، فها هي صفية عمته صلي الله عليه وسلم تقتل اليهودي الذي اقترب من حصن النساء والذرية وها هو الزبير ابن عمته صلي الله عليه وسلم يقتل نوفلا في المبارزة ، ويذهب ليطلع أخبار قريظة ، وهذا على بن أبى طالب كرم الله وجهه ابن عمه صلي الله عليه وسلم وزوج ابنته فاطمه يبارز عمرو بن عبد ود ، هذا المشرك المغوار ، يخرج له علي فيقتله . هذا وأمثاله يبين أن آل بيته صلى الله عليه وسلم كانوا أسبق إلى الشدائد من غيرهم ، وكان صلي الله عليه وسلم يقدمهم فما سر ذلك ؟

وإليك الإجابة ، وبالله التوفيق :-

أولاً :- <u>توقيت النصر</u>

قدر الله سبحانه وتعالى أن يتولى الدفع عن المسلمين ، ولكن ليس ابتداء وإنما في وقت محدد ، وذلك لحكم يمكن تلمسها ، ومنها :-

١ - تلقين الشرك درساً لن ينساه ، فلقد اجتمع المشركون حول المدينة ، وما كان العرب يستطيعون أن يجمعوا أكثر من ذلك - وبذلوا كل طاقتهم في سبيل النيل من المسلمين ، فجاءتهم قوة لاقبل لهم بها ، فماذا يفعلون في الريح التى طيرت جمعهم ؟ ، ماذا يفعلون فى ملائكة لاقبل لهم بهم ؟ لقدأدركوا أن لهذا

الدين ربا يحميه ، اعترف بذلك اليهود والمشركون ، حتي قال كعب بن أسد - سيد بنى قريظة - ... فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل [١] .

وأقر بذلك فرسان جيش الشرك من أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص . ولو أن الله سبحانه صرفهم ابتداء ما أدركوا ذلك .

٢ - تمحيص المجتمع المسلم استعداداً لانطلاقة قادمة ، فأراد الله سبحانه أن يترك الأمر يشتد على جيش المسلمين ، ليظهر المسلمون المخلصون من المنافقين ولتظهر حقيقة اليهود الذين هم فى معاهدة مع المسلمين ، ليظهر كل ذلك ، لتعرف حقيقة الأمة ، ، معرفة دقيقة ، على أساسها تتم الخطوات القادمة ، وهكذا يكون النصر تأخر ليعرف المشركون قوة هذا الدين ، وليتمحص المجتمع المسلم ، ويعرف جانب النفاق ، وموقف اليهود . وبهذا تعد الأمة الإسلامية لانطلاقة قادمة ، فقد زلزلت أقدام الشرك ، وصفي المجتمع المسلم ، وثبتت أقدامه ، ومن هنا قال صلي الله عليه وسلم « نغزوهم ولايغزوننا [٢] »

ومع هاتين الحكمتين حكم أخرى فرعية :

٣ - تنبيه المسلمين إلى سنة كونية بيّنها الله سبحانه وتعالى في قوله « وَلا تُؤْمِنُوا إلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ [٣] » ، فها هو الشرك قد اجتمع ، فاجتمع معه اليهود ، مع أنهم في معاهدة مع المسلمين .

٤ - تنبيه المسلمين إلى ما يجب أن يكونوا عليه من القوة ، فقوة المسلمين للحق والعدل ، قوة لتطبيق شرع الله في الأرض ، فإن ذهبت هذه القوة منهم ، اعتدى عليهم أعداؤهم ، فما أن ظن اليهود أن المشركين أكثر إلا تحولوا إلى جانب الشرك ، وأصبحوا حربا على المسلمين . فما كانوا في سلم وفاء بمعاهدة ، وإنما

---

(١) البداية والنهاية ٤ / ١٣٥ نقلا عن ابن إسحاق .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) سورة آل عمران آية ٧٣ .

خوفا من قوتهم ، فما أن خيل لهم أن قوة المسلمين قد ضعفت لكثرة أعدائهم إلا أظهروا نياتهم المبيتة .

ولاتظنن أن حيى بن أخطب هو الذى أغراهم ، فانساقوا دون ما حب لذلك ، لا ، لقد أغراهم حيى بما يوافق طبيعتهم ، ومن هنا بالغوا فيه ، حتى حينما جاءهم جيش المسلمين ، بعد هروب الأحزاب ، نالوا من رسول الله صلي الله عليه وسلم .

٥ - فتح باب الثواب للمسلمين ، فلقد صبروا وصابروا ، واجتهدوا وجاهدوا ، وكل ذلك في ميزان حسناتهم ، فمن قتل فهو شهيد ، ومن جاهد فهو مأجور كما قال سبحانه .

« مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١) »

ثانياً : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » :-

وتولي الله سبحانه وتعالى الدفع عن المسلمين ، وكفاهم الالتحام مع أعدائهم ، لحكم يمكن تلمسها ، منها :-

١ - أن يبين سبحانه وتعالى للبشرية علي مدى حياتها أن للإسلام ربا يحميه ، وأن الكثرة وإن كانت مصدر قوة ، فإنما ذلك إذا قدر الله لها ذلك ، أما إن أراد هزيمة الكثرة علي يد القلة ، فيمكن ذلك ، بل وبدون قتال ولا التحام ، « كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّه » (٢) « وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا » (٣)

---

(١) سورة الأحزاب آية ٢٣ .
(٢) سورة البقرة آية ٢٤٩ .
(٣) سورة الأحزاب آية ٢٥ .

٢ - أن يبين سبحانه وتعالي للبشرية ، أن الطغيان لايرضي الله وجوده ، فلما طغى المشركون ، وجمعوا جموعهم ضد الإسلام هزمهم الله بقوته سبحانه وتعالى .

٣ - أن يبين للمسلمين سنة كونية هى أن أمة الإسلام إذا بذلت ما فى وسعها ، فإن الله يرزقها النصر ، وإن كانت إمكاناتها لاتستجلب ذلك ، فما على المسلمين إلا أن يبذلوا ما في وسعهم ، وما فى الوسع أمران :

الأول : دينى ، فعليهم الاستقامة وطاعة الله سبحانه وتعالى ، والتضرع إليه «إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم » فالإستجابة تأتي فور الاستغاثة .

والثاني :- إعدادى ، فعليهم أن يعدوا للقاء عدوهم ما استطاعوا كما قال سبحانه « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ... » .

ومسلمو اليوم يركزون على الثاني ، وينسون الأول ، ومن هنا سلبوا هذه السنة الكونية .

ثالثا :- الريح والجنود علي قريش خاصة :-

جاءت الريح على معسكر قريش فقط وأتت الملائكة على قريش وحدها !! وذلك أنهم هم الصدر ، فهم المتشمرون للأمر الحريصون على القضاء على المسلمين .

أما غطفان فطلاب مغنم ، ولذا لما جرى الحديث على بعض ثمار المدينة في مقابل الرجوع حرصوا على ذلك ، بل إن الذى أخرجهم إغراء اليهود لهم بثمار خيبر .

أما قريظة فإنهم يظلون ليقع لهم ما قدر الله عليهم ، وليجتهد جند الإسلام في القتال ، ففي وسعهم تأديب هؤلاء ، فلم تأت عليهم الريح لتبعثرهم ، وجاءت إليهم الملائكة لتزلزلهم .

رابعاً :- ونصر عبده :-

كانت غزوة الخندق غزوة بكل المعاني ، استبسل فيها المسلمون ، وثبتت أقدامهم ، وأحسنوا بالله الظن ، قائلين ما حكاه الله عنهم « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما » لقد حفروا الخندق ، وبذلوا في ذلك جهدا مضنياً ، وصدوا عدوهم ، وبارزوهم ، وما استطاع العدو أن يعبر الخندق من قوة صد المسلمين لهم ، وهم مع ذلك يحرسون المدينة ، ويحترسون من بني قريظة ، ومن هنا فإن النتيجة كانت أن نصرهم الله .

وقد يقول قائل .. كيف يكون نصر ولم يحدث قتال ؟

والجواب :

١- إنهم بدأوا المعركة بكل حزم وشجاعة - كما سبق هنا -

٢- أن عدوهم رغم طول المدة لم ينل منهم ، وإنما نالوا منه ، حتي كان العدو أقرب للاستسلام منهم .

٣- أن النصر للمسلمين إذا جاء من عند الله فهو نصر لهم ، فإنه جاء ببركة إيمانهم ودعائهم . « إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ [١] » .

٤- أن المصطفي صلي الله عليه وسلم سماه نصرا ، وسمي ما حدث للأحزاب هزيمة وذلك فى قوله صلي الله عليه وسلم : لا إله إلا الله وحده ، أعز جنده ، ونصر عبده ، وغلب الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده [٢] .

خامساً: رسالة لاغنيمة :-

لقد بين صلي الله عليه وسلم ما ينبغي أن يكون عليه الإمام وكبير القوم ، فإن

---

(١) سورة محمد آية ٧ .

(٢) أخرجه البخارى في المغازى باب غزوة الخندق ٧ / ٤٠٦ رقم ٤١١٤ - وقد تقدم - .

الإمامة فى الإسلام رسالة ، فليبدأ الأمير ، والإمام بنفسه وذويه في المغارم ، وليوخر نفسه وذويه فى المغانم ، إن الإمارة ليست فرصة للغنيمة ، والإمامة ليست مصدراً للطمع ، وإنما كل منهما رسالة على من أسندت إليه أن يتقي الله ويقتدى برسول الله صلي الله عليه وسلم .

ففي نفسه صلى الله عليه وسلم كان في غاية العفاف ، يعف عند المغنم ، ويتحمل كل عبء يصور هذا قوله صلي الله عليه وسلم : أنا أولي بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن توفى من المؤمنين فترك دينا فعليّ قضاؤه ، ومن ترك مالا فلورثته [(١)] »

وفى رواية مسلم « ومن ترك دينا أو ضياعا فليأتنى » « وضياعا » أي أفراد ذوى ضياع أى لا شىء لهم .

أرأيت كيف جعل على نفسه صلى الله عليه وسلم دين من مات من المسلمين وكذلك نفقة من كان يعول ؟ أما إذا ترك الميت مالا فإنه لورثته !! لقد طبق صلى الله عليه وسلم قول الله « النبي أولي بالمؤمنين من أنفسهم » طبقها على أكرم ما يمكن من ناحيته هو ، فهل يوفى المسلمون من ناحيتهم ؟ !

وفي شجاعته كان مثالا يحتذي ، يصور هذا حديث أنس .. « كان النبي صلي الله عليه وسلم أحسن الناس ، وأشجع الناس ، ولقد فزع أهل المدينة ليلة فخرجوا نحو الصوت ، فاستقبلهم النبي صلى الله عليه وسلم وقد استبرأ الخبر وهو على فرس لأبي طلحة عُرْى وفى عنقه السيف وهو يقول : لم تراعوا ، لم تراعوا[(٢)].

وبيّن لأهله أن عليهم أن يسلكوا هذا المسلك ، يقول صلى الله عليه وسلم

---

(١) أخرجه البخارى في الكفالة باب الدَّيْن ٤ / ٤٧٧ رقم ٢٢٩٨ وفي غيرها هذا الموضع ، وأخرجه أيضا مسلم وغيرهما .

(٢) أخرجه البخارى فى الجهاد باب الحمائل وتعليق السيف بالعنق ٦ / ٩٥ رقم ٢٩٠٨ وراجعه أيضا في بقية مواضعه المذكورة في الهبة باب من استعار من الناس الفرس ٥ / ٢٤٠ رقم ٢٦٢٧ .

« وربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضع ربانا ، ربا عباس بن عبد المطلب ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ربيعة بن الحارث [١] » .

وعن علي بن أبى طالب - كرم الله وجهه - قال : إن فاطمة عليها السلام اشتكت ما تلقي من الرحى مما تطحنه ، فبلغها أن رسول الله صلي الله عليه وسلم أتى بسبى ، فأتته تسأله خادما فلم توافقه ، فذكرت لعائشة ، فجاء النبي صلي الله عليه وسلم فذكرت ذلك عائشة له ، فأتانا وقد أخذنا مضاجعنا فذهبنا لنقوم فقال : علي مكانكم ، حتي وجدت برد قدمه على صدرى ، فقال : ألا أدلكم علي خير مما سألتمانى ؟ إذا أخذتما مضاجعكما فكبرا الله أربعا وثلاثين ، واحمدا ثلاثا وثلاثين ، وسبحا ثلاثا وثلاثين ، فإن ذلك خير لكما مما سألتماه [٢] » .

وهكذا لم يقدم صلي الله عليه وسلم ابنته في هذا العطاء ، وإنما أرشدها إلى ما هو أفضل لها ولزوجها في الدنيا والآخرة ، إلى ذكر الله سبحانه وتعالى .

وهذا المنهج فهمه آله صلي الله عليه وسلم ، وأن الحظوة والسعادة أن يتحملوا الكثير والكثير فى سبيل الله ، لا أن يجمعوا المال والراحة ، ومن هنا ضحّوا بكل مرتخص وغال ، وجاهدوا في سبيل الله بكل ما أوتوا ، طلبا لما عند الله سبحانه وتعالى .

هذا والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق والسداد .

أسأله - وهو الكريم - أن ينفع به وأن يجعله في ميزان حسناتى يوم ألقاه ، وأن يمتعنى بالنظر إلى وجهه الكريم وصلّ اللهم وسلم وبارك على عبدك ورسولك سيدنا محمد وعلي آله وأصحابه والتابعين والحمد لله رب العالمين .

---

(١) أخرجه مسلم في الحج باب حجة النبى صلي الله عليه وسلم .

(٢) أخرجه البخارى في فرض الخمس باب الدليل علي أن الخمس لنوائب رسول الله صلي الله عليه وسلم والمساكين .... إلخ جـ٦ صـ ٢١٥ رقم ٣١١٣ وقد أخرجه أحمد بأطول من هذا .

* الفهـــــــرس *

الفهرس